يوسف القعيد

البيات الشتوي

الناشر
مكتبة مدبولي - القاهرة

البيات
الشتوي

البيات الشتوى



احكم بالعدل يا قاضى
قدامك مظاليم ..

● من موال شعبى ●

تقرير عن الحالة في السوالم

ساعة الاصيل فى مسجد سيدى الغريب .

يقف الشيخ محمود امام باب المسـجد ، على الدرجتين الصـغيرتين ، وفى كل يوم يدرك انهما تآكلتا ، وانه عند جمع المسانية القادمة ، سيبنى بدلا منهما ، غير انه فى كل عام كان يؤجل الموضوع كله .

ــ السنة الجاية تفرج .

الشيخ محمود يخرج ساعته القديمة ، يتحسسها بيـده ، يقربها من عينه اليمنى حتى يلامس زجاج السـاعة بقايا رموش العين ، يضعها فى جيب الصديرى الداخلى ، يدخـل الميضـة ، يتوضأ ، يتمشى فى باحة المسجد ببطء ، عيناه تطالعان شـيوخ البلد ، رجال كبار ، يجلسون فى صحن الجامع طول النهـار ، يحكون حكايا مبللة بالوجد عن أيام خير مضت ولن تعود ، وتخرج الـكلمات من أفواههم التى بلا أسنان ، هشـة خافتة كالانين . انهم يأتون وقت الضحى ، يخلعون نعالهم القديمة ، التى كانت احذية لأولادهم ، يضعونها تحتهم ، يسندون العصى التى يتوكأون عليهـا على الحائط . يتقارب الشـيوخ ، يبتسمون وقد رقق المرض من كل شىء فيهم ، يجمعون شـمل الذكريات القديمة ، وتموت الرؤى المرتعشة على الشفاه ، وتتعلق فى العيـون دموع جفت منذ سنوات . انهم يترحمون على الذين ماتوا .

ــ سبقونا الى دار الخلود .

يتذكرون الاحيـاء ، الذين اقعدهم المرض فى بيوتهم ، يتأملون حياتهم ، انهم قضوها يجرون ، يلهثون ، يكرهون بعضهم البعض ، يتعاركون على دور الميـاه والرى والمحصول ، يكتبون الشـكاوى فى السر ، لاولياء الله وأولى الامر فى البندر . غير انهم يدركون لآن ، فى لحظة العصـارى ، انهم جميعا مجبرون على السـفر بمفردهم ، فى آخر الامر ، الى جهة غير معلومة .

ان الشيخ محمود يستعد للصعود فوق المئذنة ، كي يؤذن لصلاة المغرب ، انه ينظر الى المئذنة من باحة المسجد ، بناء قديم ، حائل اللون ، يشق الفراغ الازرق المغسول ، يطعن السماء الصافية ، يلتقى بها على البعد ، يتلامس معها ، ويصبح فى النهاية جزءا منها . من فوق المئذنة ، يشاهد الشيخ محمود ، مناظر تطالعه كل يوم ، مساحات لا نهائية من الخضرة ، وفى الحقول رجال وأطفال ، يحلون البهائم ، يغتسلون ، يصلون ما فاتهم من فرائض اليوم ، استعدادا للعودة من الحقول . فى السماء الصافية ، طيور تستعد للهجرة نحو أعشاشها بعد يوم طويل . يحاول الشيخ محمود ، أن يرى أكثر من ذلك ، انه يشاهد بلادا بعيدة ، بقعا يختلط فيها البياض بالسواد وسط الحقول . تبدو له ترعة ساحل مرقص ، ترتفع على البعد ، حتى تلتقى بالافق ، وتكون قد تحولت الى مجرى صغير ، خط أزرق متموج كقناة فى أحد الحقول ، بقايا ظلال المئذنة تتكسر على الحارات والبيوت والحقول القريبة . فوق أسطح البيوت ، يتناثر الحطب الجاف ، وبعض البيوت خلا من الحطب ، فتبدو أسطحها رمادية اللون ، ومن مناور البيوت يخرج الدخان . الشيخ محمود يدرك انه لو كان فى الحوارى الآن ، لسمع صوت طشيش التقلية ، وشم رائحة السمن المحروق ، ولرأى الرجال على المصاطب ، وأمام دكاكين البقالة والاطفال يلعبون فى الحوارى . فى الحقول ، رجال تأخروا فى العودة بسبب أعمالهم . على الجسر يقف الشبان ، يدخنون ويتحدثون ، كلمات كسولة ، تتخللها فترات صمت طويلة ، وعلى الناحية الاخرى من الجسر ، مسافرون لم تحضر لهم سيارات . انهم يقفون وقد تعلقت عيونهم بمكان بعيد فى الافق ، حيث يتوه الجسر تماما بين الاشجار العالية ، انه أول مكان تظهر منه السيارات القادمة من كفر عوانه . تحت الشيخ محمود مباشرة ، باحة المسجد والميضة والدورة وطلمبة رفع المياه . ان الرجال يتوضأون ، يصلون ما فاتهم . وفى صحن الجامع ، مصباح قديم ناعس ، يروح ويجىء ، فتتحرك الظلال والاضواء مع حركته البطيئة ، فتكشف عن محتويات الجامع .

وعلى المدى البعيد ، كانت زرقة السماء غامقة ، وكانت هناك بعض النجوم القليلة بدا لمعانها خابيا . ان ليل الخريف البارد ، بلياليه الطوال ، يرتفع الآن من الحارات والجسر والحقول

المنبسطة حتى اللانهاية . الشيخ محمود يخرج ساعته ، يقربها هذه المرة من عينيه أكثر من المرة السابقة ، يضعها فى جيبه بسرعة ، يدور حول المئذنة ، تهب نسمة هواء خريفية فتداعب جلبابه ، يعدل وضع العمامة على رأسه الاصلع ، يرفع يده اليسرى ، ينحسر عنها الكم ، فتبدو رفيعة معروقة . يرفع يده اليمنى . يضعها على خده ، يغطى بها نصف فمه ، يفتح عينيه اللتين بلا رموش على آخرهما ، يستنشق هواء مبللا برائحة الماء والخضرة ، يفتح فمه على آخره ، تبدو عروق رقبته غليظة منتفخة
– الله أكبر ، الله أكبر .

على مدى سنوات طوال ، ولا أحد يدرى كم عددها ، أيام غير معلومة ، ساعات لا يحسبها أحد ، حدثت أشياء كثيرة ، أحداث مدهشة ، حكايا لا تصدقها الآذان . ان هذه السنوات التى مرت ، لحظات بطيئة من الفراغ ، تسربت ومعها حياة الناس ، الميلاد ، معاناة لحظات العمر ، الشيخوخة والمرض ، ثم الموت فى النهاية . ويكتب الناس على وجه الايام والليالى قصص حياتهم ، حكايا أيامهم العجاف . يتعاقب الليل والنهار ، تدور دورة الخريف والشتاء ، ذلك ما كان ، وما هو كائن ، غير ان ما يحدث فى هذه اللحظة ، فى حياة كفور السوالم « الساعة الخامسة والدقيقة الاربعين من مساء يوم الاثنين الخامس من شهر أكتوبر سنة أربع وستين وتسعمائة والف ، من بعد ميلاد السيد المسيح » . امر غير عادى ، بل انه يحدث فى حياة البلد للمرة الاولى .

الناس تنظر للأمر بدهشة ، ويحاول كل منهم حساب الامور فى ذهنه ، كى يتوصل الى رأى فيما يحدث . وبمجرد أن يخدش شكل الحياة فى السوالم ، حادث ما ، وينفذ الى حياة الناس ، حتى تتباين وجهات نظرهم اليه ، يأتى المساء ، ويجتمعون على المصاطب ، أو على الجسر الكبير ، أو فى باحة المسجد ، ويتناقشون فى الامر ، يقولون كلمات بسيطة ، تخرج من الافواه مطحونة ، متآكلة الحروف ، يدلى كل منهم برأيه ، ولا يتفقون على أمر ما فى النهاية . ان الكلمات ليست أهم الوسائل فى الاتصال بين الناس : الصمت ، النظرات المنكسرة الزاخرة بالصبر والمرارة ، التعب والاجهاد المنسال على ملامح الوجوه . ربما كانت تشكل اتصالا روحيا بين الناس ، اكثر من الكلمات . تظلم الدنيا ، تبتلع عتمة المساء ، البيوت والترعة والاشجار

والجسر الكبير ، يعود الرجال الى بيوتهم ، فى حجراتهم الصغيرة ، يعيدون لزوجاتهم ، وأولادهم الصغار ، التعليق على ما يحدث . والرجل لا يحكى فحسب ، انه فى منزله ، وهنا توجد مملكته ، لذا فانه يحكى ما حدث ، ويعلق عليه ، ويتناوله بالمناقشة ، ثم يدلى برأيه النهائى فى الموضوع ، على انه الرأى الصحيح ، الذى لا يقبل مناقشته مع أحد .

اليوم هو يوم الاثنين ، وفى ساعة الاصيل ، والرجال واقفون على الجسر ، يتحدثون فى أمور عامة ، توقفت سيارتان ، من سيارات الحكومة . على الطريق الزراعى . ثم اتجهتا الى الجسر ، ومنه الى السوالم ، دهش الناس ، أن السيارتين تتجهان الى الفضاء الذى يفصل بين السوالم بحرى والسوالم قبلى ، وهو ليس فضاء واسعا ، فحوله منازل من كل ناحية ، والسبب فى تركه فراغا ، ان فيه دائما نشع ، يصبح بركة مياه أيام الفيضان . مما أدى بأهالى البلد ، لجعله وقفا لمسجد سيدى الغريب .

ينزل من السيارتين رجال ، أفندية ، قادمون من البنادر ، ينزلون أشياء كثيرة ، مناضد ، خيام ، حقائب . ويدور بين الناس الغرباء ، حديث ، ضحكات ، وفى محاجرهم تدور عيون مستطلعة ، جريئة . ان من ينظر الى البيوت المحيطة بالمنطقة التى يقف فيها الرجال الغرباء ، يجد أبواب البيوت والمناور الصغيرة وأسطحها ، قد أصبحت مبطنة بالعيون الصغيرة المستطلعة . أطفال صغار ، نساء ، شيوخ مقعدون فى المنازل ، العيون تنظر ، وقد ران على الناس صمت مشحون ، متوج بالقلق والرغبة فى معرفة أمر هؤلاء الغرباء .

بعد قليل ، كان الاطفال والصبية ، قد اقتربوا من السيارتين والرجال الغرباء . رأوهم عن قرب ، استطاعوا أن يستمعوا الى كلماتهم ويرون ما معهم ، فأدرك احد الصبية الصغار ، حقيقة ما يجرى . القادمون يحفرون الارض ، ويدقون الاوتاد لنصب الخيام ، للسكنى فيها ، وبمجرد أن توصل ذهنه الى ذلك ، انصرف مسرعا ، كى ينقل الخبر الى أهالى البلد ، وعندما يهل على السوالم شخص غريب ، فان جميع أهالى البلد ، رغم ما يكون بينهم عادة من الخلافات ، يعتبرونه ضيفهم ، ويرحبون به ، ويفرحون لوجوده جميعا .

على الجسر ، أرسل الرجال فى طلب حب الدين سرحان ، كى

يسألونه عن الغرباء . وقبل أن يحضر حب الدين ، راح كل رجل يخمن من يكونون . قالوا : قد يكون الغرباء من مصلحة المساحة، أو من المركز ، أو من بنك التسليف الزراعي ، أو من وزارة الصحة العمومية . قال لهم حب ، بعد أن حضر ، انه يعتقد أن الذى حضر الليلة هو الباشمهندس .

- الباشمهندس مين ؟

ذكرهم حب الدين ، انه منذ ستة اشهر مضت ، حضر الى البلد ، شاب صغير ، يضع على عينيه نظارة طبية .

قال أحدهم :

- صحيح ، فيهم واحد بنضارة ، أنا شفته بعينى .

ان هذا الشاب ، قد أخذ عينة من الارض الفضاء الصغيرة ، وعينة أخرى ، من نصف الفدان الذى يملكه وردانى . أخذ هذه العينات ، ثم سافر الى مصر ، ومن يومها لم يعد ، ونسى الناس بالتالى ، حكايته تماما .

- فاكرين والله .

رفع كل منهم يده الى جبهته ، ووضع السبابة بجوار اذنه اليمنى ، مؤكدا انه يتذكر ذلك ، وان الستة اشهر ، نصف السنة ، مرت كأنها فركة كعب قصيرة .

الرجال يستعيدون الآن حضور المهندس ، كان الوقت صباحا ، وكانت شمس ذلك اليوم زاهية . قياس الارض ، تحديد مكانين . أرض الوقف الخلاء ، أرض وردانى بحرى البلد ، اخذ عينة من المكانين ، حضور العمدة الى المهندس بنفسه ، سؤاله عن السبب فى اخذ العينات ، المهندس يقول له ، وهو منهمك فى عمله ، هناك احتمال وجود بترول فى المنطقة ، تحليل العينات اجراء مبدئى ، ونتائجه ليست نهائية ، قد يعود أو لايعود الى البلد بعد ذلك ، العودة متوقفة على نتائج الدراسات التى ستجرى على هذه العينات يوميا ، سأل المهندس ، اسئلة كثيرة ، عن السوالم والبلاد المحيطة بها ، عدد سكان البلد ، مساحة الارض التنظيمات السياسية ، متوسط دخل الفرد ، مستوى التعليم . وزار بعض الفلاحين فى بيوتهم ، ومكث بداخل البيوت طويلا ، وشاهد طعام الناس . وجلس أمام الكانون والفرن . ودخل غرف المعاش وشرب من الازيار ، وفى المساء ، رحل المهندس عن البلد .

يقول الرجال ، ان حكاية المهندس ، أيامها . منذ نصف عام ، تحولت الى نكتة ، وبعد رحيـله ، فى الليـل ، فى عشة سلسبيله ، تناولوها بالحديث .

ـ قال بترول قال .

قال أحدهم :

ـ بترول يعنى جاز ، والجاز بنشـغـل بيه الوابور واللمبه نمره عشرة .

ـ ياعم دا فيها اللى مكفيها .

وضـحكوا ، انهم يستلقون على ظهورهم من الضحك . وبين رشفات الشاى ، بدأوا يتكلمون ، تتمدد أصواتهم فى رهبة الليل. ومع دخان الجوزة ، بدأ بعضهم يغنى ، تجرح أصـواتهم الليـل بموال عتاب حزين . وقال لهم حب الدين : ان البترول هو الجاز الذى يشترونه من المعلم يعقوب ، بالـكابون ضمن التموين ، مع السكر والزيت . وانه رغم غلو ثمنه ، الا انه يخرج من الارض بكميات كبيرة . وعارضـــه أحدهم ، قال ان الجاز يصنع فى السويس . وقال شاب ، كان يتعلم فى المدارس من قبل ، ان أول دول العالم انتاجا للبترول هى دولة الـكويت .

قالت سلسبيلة من خلف نصبة الشاى :

ـ آهى تخاريف ليل .

آخر الليل ، عاد الرجال الى بيوتهم ، وكانت البيوت والحارات والاشجار ، تنام فى الظلام كجنين مبهم ، لم تتحدد ملامحه بعد لمخلوق مقبل ، وكان السكون يمد رائحته على البلد .

ذهب الرجال الى حقولهم فى صـباح اليوم التالى ، وهناك ، بذروا فى رحم الارض ، ضبابا ومواسم وهمية واحلاما . ونسـوا حكاية المهندس والبترول خلال سوقية الحياة وتفاهتها المتجددة ، حيث تحنط الاحلام ويرسو الذبول ، ويعلو الصدأ روح الحياة ، ويؤجل كل شىء .

حب الدين يســتأذن من الرجال ، انه يريد أن يذهب الى المهندس ، للسلام عليه والترحيب به ، والسـؤال عن الصـحة والحال وما فعلته به الايام .

ـ وتعرف لنا الخبر ايه ؟

تواعدوا على اللقاء فى عشة سلسبيله بعد صـلاة العشـاء . حب الدين يسير ناحية البلد ، شابكا يده اليمنى فى يده اليسرى

خلف ظهره . يسير ببطء ، ناظرا الى الارض تحت قدميه ، مفكرا فيما صارت اليه الحال . الرجال يقفون على الجسر . المساء يحل الآن بالسوالم ، وظلال الشمس اللينة الطويلة بهتت معالمها وذابت ، تهب النسمات الطرية فتصافح الوجوه ، ويقل الرجال الواقفون على الجسر ، يذهب بعضهم لصلاة المغرب . ويعود البعض الآخر الى منازلهم . لم يكن هناك حديث للناس ، سوى موضوع المهندس ، الخيام التي نصبت ، السيارتين ، ذكرى حضور المهندس الى البلد منذ ستة أشهر ، العينات ، الارض ، البترول ، ونسى كل فرد همومه الخاصة ، واشترك مع الآخرين في هذا الموضوع الطارىء وقال احد الرجال لزوجته ، وهما يتناولان طعام العشاء ، في وسط داره :

ــ لا ، ولسه ياما حانشوف .

بعد العشاء ، عشة سلسبيلة ، وسلسبيلة مشغولة الآن بتجهيز العشة . تحضر الوابور ، البراد الـكبير ، الاكواب ، الشـاى ، السكر ، المعسل ، عشة سلسبيلة بجوار الجسر ، على الترعة ، ن مواجهتها ، فى الناحية الاخرى ، مصلى صغير ، دوران طينى منخفض ، فى التواء سكة الثعبان ، على شكل نصف دائرة ، فرش بقش أرز ، وعند بابه الصغير درجات من الحجر ، تبدو مغسولة دائما بمياه الترعة ، يتوضأ الرجال عليها قبل الصلاة . فى منتصف المصلى ، شجرة جميز عجوز ، يقول الرجال انها حضرت هوجة احمـد عرابى المصرى . بجوار عشة سلسبيلة يوجد سبيل، ثلاثة أزيار دفن نصفها الاسفل فى الارض ، فوقها تكعيبة عنب تظللهـا « ويا بخت من سقا مسافر عطشان ساعة القيالة » .

عشـة سلسبيلة تقوم مقـام المقاهى التى يشاهدها الرجال فى البنادر ، غير انه لا يوجد فى العشة كراسى ولا مناضد ، ولا يحضر كل الرجال الى العشة ، وحتى الذين يحضرون اليها ، لايواظبون على الحضور . اثنان فقط ، لابد من وجودهما كل ليلة ، سلسبيلة بنى الله وحب الدين سرحان ، وهما صاحبا العشـة ، اما وجوه الرجال فتتغير كل ليلة .

يجلس الرجال فى دائرة ، او فى مجموعات صـــغيرة حسب الحال ، وتدور عليهم اكواب الشاى والجوزة حتى آخر السهرة . انهم يحضرون الى العشة كى يستريحوا من عناء العمـل طول النهار . سلسبيلة تجلس خلف النصبة ، فى آخر العشـة من الداخل ، اما حب الدين ، فانه يجلس فى منتصف الرجال ويقوم بتوزيع الطلبات عليهم .

— بقى وسلمت على الباشمهندس ؟

ينسى حب الدين احيانا عمله ، ويجلس وسط الرجال ، يحكى لهم الحكايا ، الرجال ينصتون ، ويظـل يحكى ، الى ان تذكره سلسبيلة بعمله ، فيقوم كى يوزع الطلبات ، وهو يحكى خـلال ذلك أيضا . الرجال فى السوالم ، يحضرون الى العشة ، مدفوعين

الى ذلك برغبة فى أن تكتحل عيونهم بمرأى سلسبيله ، أو سماع حكايا حب الدين . السهر عند سلسبيله سفن من الورق ، يبحر فيها الرجال فى ليل السوالم . حب الدين يجلس الآن وسـط الرجال ، يحكى حكاية المهندس . ذهب اليه ، سلم عليه .

– الحمد لله على السلامة يا باشمهندس .

يقسم حب الدين ، ان المهنـدس ما زال يذكره ، لا بشـكله فقط ، بل باسـمه ، وانه قال له : ازيك ياسى حب الدين . وسأله عن البلد والعمدة ، واسم صـاحب الارض ، التى اخذ منها العينة منذ ستة أشهر ، يقول حب الدين ، ان المهندس قد حضر هذه المرة لاقامة طويلة . وانه قد اجل زيارته للعمدة حتى صباح الغد ، وانه قد نصب ثلاث خيام فى أرض الوقف .

– وماعرفتش ايه الموضوع ؟

يقول حب الدين : الموضوع كله سيعرف فى الغـد ، لا داعى للاستعجال ، سيكون خيرا . قال لهم : انه مطمئن للمهندس ، فهو رجل لطيف ، يحب الناس ويسعى لمصلحتهم ، المهندس اكد له ، ان الايام القادمة ستحمل للسوالم كلها الخير ، خير من نوع جديد . لم يعلق الرجال أهمية على كلام حب الدين الاخير .

– ومنين ييجى الخير ؟
– الخير أيامه راحت ياعم .

يحكى لهم حب الدين ، شاهد المهندس ، يعلق غياراته الاخرى داخل الخيمة ، وان المهندس سأله عن كيفية الحصول على الطعام وسعره ، وان كان فى السوالم بيت من الممكن ان يستأجره ، وانه سأله عن اسم مأمور المركز ، ومعاون نقطة بوليس تكلا العنب . لم يفهم الرجـال كلام حب الدين ، وبدأوا يفقـدون اهتمامهم بالموضوع كله. كانوا يتصورون ان المهندس سيغادر البلد فى الصباح الباكر على الاكثر ، غير ان الموضوع لم يكن واضحا فى اذهانهم ، كانت الامور ضبابية وقلقة فى فهم كل منهم . الضبابية تكمن فى أمر واحد ، ماذا يريد المهندس من بلدهم . كانت حكاية البترول والخير الذى ينتظر الجميع ، احلاما لم يكن هناك من يحلم بها . اقصى ما كان يحلم به احدهم ، فى هذه الليلة ، هو ان يكون حسابه فى الجمعية التعاونية فى آخر العام بالعدل ، وان يتبقى له من ثمن المحصول ما يكسو به الاولاد ، أو أن يمتد دور المياه يوما واحدا

او ان ينجح ابنه الذى يتعلم فى مدرسة المركز ، أو أن تلد جاموسته عجلين فى بطن واحد .

حب الدين يقول لهم ، انه أحب المهندس ، ومن يدرى - قد يكون أهله ، من الفلاحين مثلهم . الرجال يدخنون ، يمسك حب الدين غابة الجوزة ، يجلس وسطهم ، تدور الغابة بين الافواه ، وكل منهم يمسك بطرفها قبل أن يدسها بين شفتيه ، تتوهج الجمرات فى حجر الجوزة ، ويخرج الدخان الازرق من الانوف والافواه كثيفا ، يتلون فى جو العشة ، فيملؤه بالظلال ، التى تحجب عن الرجال الضوء الخافت . ترتفع أيادى الرجال ، تمسح الظلال عن عيونهم ، يحدقون فى بعضهم ، يتأكد كل منهم ، ان الآخرين كما هم أمامه ، يصعد الدخان الى رءوسهم ، يشعرون بالدوخة ، وتنفك عقدة اللسان . الكلمات تقال الآن ، لكنها تخرج كسولة ، كما فى حياة السوالم من الحزن اليومى المتجدد ، حيث يبدأ وينتهى كل شىء بعد صلاة العشاء . ويصبح الذهاب الى الفراش أمرا له خطورته ، والجلوس فى عشة سلسبيله يكلف الكثير . ظلام الليل يتوج اليوم كله بالحيرة . يوم مر كغيره من أيام العمر ، وقد يمر اليوم بلا عمل ، وبذلك يكون قد سقط من حساب الحياة .

ان فترات الصمت التى تتخلل حديث الرجال قد طالت ، واصبحت الشفاه المزمومة لا يخرج منها سوى حروف قليلة ، الحديث يتناول كل ما فى حياة السوالم الصغيرة . الحديث يدور بين الرجال ، وسلسبيله تنظر الى الرجال بعيون ميتة ، من خلف النصبة ، ونادرا ما تتشارك فى الحديث معهم . حب الدين يتوسط الرجال ، وقد كف عن متابعة حكايته مع المهندس ، غير انه كان يود أن يقول لهم ان المهندس قد وعده بالعمل معه ، سواء فى السوالم أو فى بلاد أخرى ، وانه خير له أن يترك البلد ، فحاله لا يسر أحدا من الناس . غير انه صمت ، جلس ويداه فى حجره ، وسند الجوزة الى صفيحة المياه امام سلسبيله . الحديث بطىء كتيار ترعة ساحل مرقص ، الذى ينساح تحت العشة مباشرة ، والكلمات مسترخية كما تمضى لياليهم تحت سماء منقوشة بالنجوم اللامعة . مثقلة بضباب ليالى الخريف الباردة ، والحمل فى حديث الرجال متثاقلة كتثاقل مرور الحياة فى السوالم .

قبل انتصاف الليل ، قال ورداني ، وكانت تلك أول مرة يتكلم فيها ، منذ ان جلس فى العشة ، ان قلبه غير مستريح لحكاية المهندس ، وانه يقسم للرجال ، من الآن ، ان فى الموضوع شيئا ما ، فى غير مصلحة أهل البلد كلهم ، ان قلبه دليله ، وقلبه لا يخطئه ولا يكذب عليه .

ـ والله انا عينى الشمال بترف من يومين .

قال ورداني ، ان رف عينه الشمال دليل شؤم ، وانه لن يستريح الا بعد سفر المهندس وتركه البلد . وطلب ورداني من الله أن تمر هذه الايام على خير . فمن يدرى ماذا سيحدث للبلد .

ـ ومالكو محيرين نفسكو ليه ؟
بكره يرحل ، وترجع ريمه ..
أكمل أحدهم حديث سلسبيله ..
ـ لعادتها القديمة ..

ضحكوا ، وتعالت الضحكات فى جو العشة ، طلبوا من سلسبيله دور شاى يختمون به السهرة . وخلال شرب الشاى ، قالوا لانفسهم ، أنه من المستحسن لهم أن يذهبوا الى المعلم يعقوب . يطلبون منه المشورة ، فهو أقدر منهم على فهم هذه الامور ، قال الآخرون ، لابد من فتح الكتاب ، لقراءة الغيب ، فلا يمكن السكوت على ما يحدث فى بلدهم ، وتمنى بعض الرجال ، لو تمر على بلدهم فى الصباح الباكر الفجرية ، تكشف لهم الاثر ، وتعرف ماسيكون . بعد شرب الدور الاخير . قام الرجال .

ـ تصبحوا على خير يا رجاله ..

تفرق الرجال فى حوارى السوالم . الليل ينتصف الآن ، وفى ظلام الليل ، تبهت المعالم المألوفة ، وتبدو للناس كالاشباح . وتبدو السماء مرصعة بالنجوم ، وقد تحجب النجوم غيمة منخفضة كأنها الوسادة فوق الارض ، وتظهر النجوم بين الحين والآخر ، كأنها تغمز غمزات متقطعة خلال الغيمة الرمادية . ويهب على الرجال هواء مشبع برطوبة ليلية . يصل الرجال الى بيوتهم . يتبولون فى الحوارى أمام أبواب البيوت ، يدخلون بيوتهم . وفى الزرائب ، يطمئنون على بهائمهم ، يضعون لها العلف فى المزاود ، وفى حجرات نومهم يخلعون ملابسهم ، ويرتدى الرجل منهم جلبابا قديما على اللحم ينام به . وفى حجرات نومهم ، يقضون أوقاتا

واعشة ، لحظات نادرة ، ينسون فيها كل الاشياء ، يتحسسون الاجساد البضة الناعمة ، يعيشون لحظات فى حلاوة الشهد ، يقولون كلمات ملساء ، يشربون رحيق نسائهم ، يتحسسون بألسنتهم المشققة خدود رفيقات العمر فى رقة وحنان . انهم يبذرون فى الارحام اطفالا ، شوهتهم مرارة الايام وقسوتها ، وشكل الصبر ملامح وجوههم .

ذلك ما يحدث فى الليل ، ولكنهم فى الصباح ...

فى الصباح ، قرر المهندس عصمت ، ان يزور العمدة فى منزله ، أرسل له من اخبره بذلك . فى العاشرة ، اتجه عصمت الى دو ر العمدة . الطريق ، الشارع الرئيسى ، الحارات الضيقة ، كل شيء يؤكد معنى الجفاف ، ذبول وجوه الرجال الجالسين على المصاطب بدون عمل ، اختفاء الحطب من فوق السطوح ، أفرع الاشجار العارية ، الجرداء ، كأنها تصاوير الرعب ، تحت الاشجار ، الاوراق الجافة المتساقطة على الارض ، تذكر الناس ، فى كل لحظة ، ان السوالم ، تمر بأيام الخريف . عصمت يسير فى حوارى السوالم بمفرده ، واضعا يده اليمنى فى جيبه الايمن ، ويده اليسرى فى جيبه الايسر . انه يفكر فى مشروعه المقبل ، ويدرك انه وحيد ، وانه سيواجه مصيره هنا بمفرده ، انه يكاد يحدث نفسه ، غير انه يؤجل الموضوع لحين عودته الى الخيام ، وهناك سيدون ، يكتب ، ترتعش الكلمات وتلتوى الاحرف ، ومطلوب منه أن يدون الكثير .

عند الدوار ، كان العمدة وشيخ الغفر ، وحب الدين سرحان ، وبعض الرجال من أهالى البلد ، وبعض الغفر الذين ذبلت عيونهم من سهر الليالى .

– نورت الكفور يا باشمهندس .

– الله يخليك ياعمدة .

يتبادلان معا كلمات معاده ، تقال فى مثل هذه المواقف ، السؤال عن الصحة ، والحال ، والمزاج ، كلمات يقولها الناس ، عندما يلتقون لاول مرة ، انهم لم يعرفوا بعضهم البعض ، وهذه الكلمات لا تقرب ما بينهم ، ولا حتى تبدد وحشة الصمت ، ولكنها تقال تزحم مساحات الهواء بين الرجال ، تخرج من بين شفاه مزمومة ، وتلقى على وجوه يصيبها الخجل والارتباك .

عصمت يقول للعمدة ، ان التحاليل المبدئية ، لم تؤكد وجود البترول ، ولم تنف وجوده ، وان المسألة مسألة احتمال فقط . قال عصمت ، ان المتبع فى مثل هذه الحالات أن يتم حفر بئر

اختبارية ، قال عصمت بالحرف الواحد للعمدة ، ان هذه البئر صـــــغيرة محدودة ، لا تكلف الشركة كثيرا ، ومن خلال البئر يمكن التعرف على امكانية وجود البترول وكميته ، أى عمر البئر ودرجة جودته .

العمدة لايدرك حقيقة ما يقوله عصمت ، لقد تصور أن السبب فى ذلك الى كلام عادى ، غير أن الـكتب والمدارس . بعد ذلك انتقل عصمت الى كلام عادى ، غير ان العمدة لم يكن يعنيه هل فهم ، ام لم يفهم ، لم يشعر العمدة الا بشعور واحد ، ان هذا الشاب الغريب يجب مقاومته ، لقد أدرك العمدة ، فى الثوانى الاولى ، ان هناك شيئا ما يموت فيه ، يذبل قبل الاوان ، وهذا الاحســـاس ناتج من انه أمام شىء جديد تماما ، مدهش ، غير عادى ، ممثل فى هذا الشاب الصغير ، الجالس أمامه ، يحدثه عن البئر والبترول والتحليلات ، يقول كل هـــذا بكلمات رائعة ، وان لم يكن قد فهمها .

قال عصمت ، انه قد حضر للعمدة ، للتعرف عليه ، لا يهمه موضوع البترول ، بقدر ما يهمه معرفة الرجال . انه يطلب من العمدة أن يعاونه . انه يريد قطعة ارض ، النصف فدان الموجود بحرى البلد ، حيث ان احتمال وجود البترول فيه أكثر ، سيؤجره من صاحبه بشكل مؤقت. وان ثبت وجود البترول فيه ، ستؤجره الشركة بأى ثمن يطلبه . قال أيضا ، انه يريد أن يعاونه الرجال فى العمليات المبدئية فى المشروع بالاجر ، حتى يصـــل الى نتيجة ما ، وانه يطلب منزلا للاقامة فيه . فذلك أفضل من الحياة فى الخيام ، وانه يطلب غفيرا لحراسة المعدات والخيام والسيارتين. قال عصمت ، انه يمد يده للعمدة ، كي يعاونه فى المشروع ، دون اللجوء الى الرســـــميات . وانه مطمئن لنتائج المشروع ، قال عصمت ، وهو ينظر الى الحقول ، من خلال النافذة البحرية ، ان نجاح المشروع ، يعنى أن يتغير شكل الحياة فى السوالم ، لسنوات طوال قادمة .

لم يتكلم العمــدة ، امتدت بينهما فترة صمت ، وكان يتناهى اليهما نهيق حمـــار ، وثغاء حيوانات ، ونداءات خافتة تأتى من الحقول البعيدة ، وصوت رياح خريفية تهب من الحقول الواسعة.

ـــ قلت ايه ياعمدة ؟

ـــ هيه ، أصل الموضوع .

يقول العمدة ، ان الموضوع خطير ، وانه لابد له من الرجوع الى رؤسائه .
ـ لازم المركز يعرف .

افهمه العمــدة بكلمات بطيئة ، ان المركز ومجلس القرية فى منشت الانعام ، والنقطة الثابتة فى نكلا العنب ، لابد وأن تعرف الموضوع ، وانه سيرسل فى طلب التعليمات من هــذه الجهات . صمت العمدة ، قام من مكانه ، وقف ، تمشى ، حاول أن يبتسم ، وأن يقترب من المهنــدس ، جلس مرة أخرى ، وضــع يديه فى حجره ، استراح فى جلسته ، وقال المهنــدس ، انه سيتعاون معه ، وانه يصعب عليه من الآن اى تأخير قد يعترض الامور، قال العمدة بسرعة ، كمن تذكر شيئا ، ان للأهالى رأيها فى الموضوع ، ولا بد من الرجوع اليهم ، قبل اتخاذ اى اجراء ، أما من ناحية وجود منزل خال ، فهذا خارج عن ارادته ، فلا يوجد فى البــلد كلها ، منزل واحد خال ، وان الخيام قد تكون أصلح من البيوت أما من ناحية التعاون ، ومد اليد ، وحسن النية ..
ـ احنا أهل يا باشمهندس .

قال كلاما بعد ذلك ، لم يميزه عصمت ، وكانت طيور الصباح تملأ الفضاء الازرق ، تشق السماء طائرة فى فرح . ان البلد ، يقول العمدة ، فى الحقيقة ، عبارة عن بلدين . السوالم بحرى ، والسوالم قبلى . وانه من المفروض أن يكون للسوالم بحرى عمدة آخر ، غير انه يوكل نائبا له هناك . وانه مسئول عن كل شيء هنا وهناك .
قال العمدة ، ان هذه الايام تختلف عن أيام زمان . فى هـــذه الايام ، يوجد الاتحاد الاشتراكى العربى « أشـار الى انه الامين العام ، وأن الناس هى التى انتخبته وأصرت على ذلك » ، يوجد أيضا ، مجلس القرية ، والنقطة الثابتة ، والعمــدة . أما أيام زمان ، تنهد العمدة ، رفع يده اليمنى ملوحا بها . لم يكمل .
ـ عموما ، احنا هنا ، تحت أمرك .
يقف المهندس ، تستريح نظراته على البيوت الترابية التى بدت له ، من خلال النافذة ، يمد يده للعمدة ، يصافحه ، يؤكد له انه سيعتمد عليه بشكل رئيسى . يقول له العمدة ، انه سيكون ذراعه اليمنى ، وانه لا يطلب منه ، سوى أن يسلمها لله سبحانه وتعالى ، وأن يضع فى بطنه بطيخه صيفى .

ـ حد يوصل الباشمهندس يا أولاد ..

فى الطريق ، كان عصمت ، وكان التعب والاجهاد ، والاحساس المحذر بالخوف على أول طريق الوصول . همس عصمت لنفسه ، ان المسألة ، ليست الخوف أو الشجاعة ، كان فى نفسه احساس ما ، ربما لا يقدر على التعبير عنه فى كلمات ، لم يكن يشعر بالاطمئنان ، أدرك انه لم يصل الى ما ينتويه العمدة . ان كلمات العمدة ، وتعابير الوجه ، ولمحات العيون ، والبسمات المرسومة بعناية على الشفاه ، والضحكة الخافتة ، أن كل هذا ، لا يعكس ما فى نفس العمدة . عصمت يتذكر الآن ، بعين خياله ، ملامح العمدة الحادة ، عينيه الصغيرتين ، شعره الابيض ، صدره العريض ، ملابسه ، جلسته ، نظرته من خلال النافذة على البيوت والحقول والناس ، حديثه .

***

فى الدوار ، جلس العمدة بمفرده ، طلب دور شاى ، وطلب الا يدخل عليه أحد . وقف ، سار فى دواره ، وقف بجوار النافذة ، أمسك بحديدها ، وراح يستنشق بملء رئتيه هواء الخريف الجاف ، الذى يحمل له رائحة الارض الشراقي . العمدة يحاول ان يفكر فى موضوع المهندس ، الذى فرض نفسه على حياة البلد ، وهو من البداية يدرك ان الامور بدات تفلت من يده . هذا الطارق الجديد ، المهندس الشاب ، المبتسم دائما فى صفاء ومودة ، الارض الحكومة ، البلد ، الاهالى . العمدية ليست منصبا ، بل هى كل حياته ، كانت حياة آبائه هنا ، ولا بد أن يكون فى نفس المكان ميراث أبنائه . والطريق من حجرة نومه ، حتى كنبته فى الدوار ، سكة فى القلب ، يقطعها مرتين أو ثلاثا كل يوم ، لم يفهم العمدة الامور جيدا ، غير انه استشعر الخطر من مجرد وجود المهندس فى السوالم ، احس انه مندوب اتى قبل الاوان ، لايام لم تعشها السوالم بعد . ومن يدرى ؟

اشارة : من عمدة السوالم ، الى نقطة بوليس تكلا العنب الثابتة ، ومجلس قرية ششت الانعام ، ومركز ايتاى البارود . حضر الينا اليوم ، مهندس من مصر ، وأقام خيامه بالناحية ، وقال انه ، حاضر طرفنا للبحث عن البترول ، وقال ان معه التصاريح اللازمة لذلك . رجاء افادتنا ، على وجه السرعة ، عما

يتبع نحوه ، واقبلوا التحية . مبلغ الاشارة ، امضاء . التاريخ ، رقم الصادر .

العمدة ، رغم انه يفك الخط ، ويقرأ الجريدة ، أن أتى بها أحد من الضهرية ، فان كل المسائل فى السوالم مرتبة أمامه ، فى الزمان والمكان ، وجميع مشاكل البلد ، تجد عنده الحل دونما أى مفاجآت ، كل الامور ، تجرى بعمليات حسابية دقيقة . وأهل السوالم كلهم ، يتصورون انه يطل على البلد من مكان مرتفع . كان عند العمدة وعى بسيط يضبط به مجرى الامور ، غير انه لم يكن يعرف ما فى الطبيعة البشرية من التردد والاقدام ، الخوف والشجاعة ، القدرة على كسر كافة القواعد المتعارف عليها ، العنف ، الخروج عن المألوف . وعندما كانت تسد كافة الطرق فى وجوه الناس ، فان نشاطهم البشرى ، كان يتحول الى مسارات أخرى . العمدة يريد أن يصرف كل الامور فى مملكته بنفسه ، غير أن الحياة فى عفويتها ، فى حضورها الدائم ، فى تواجدها بعبلها وقضها وقضيضها ، كانت تكسر أى نظام ، تجعله تخطيطا مجردا من كل محتوى . وعند ذلك كان العمدة ، يقر ، بينه وبين نفسه دونما كلمات ، بهزيمته ، أمام ذلك الشىء الذى لا يعرف له اسما ولا حتى شكلا محددا .

حاشية : الاهالى طرفنا مستاءون جدا من حضور المهندس ، ويقولون لبعضهم البعض ، ان حكاية المهندس لن تنتهى على خير .

الوقت هو وقت الضحى ، والحاج على الدفراوى ، عمدة السوالم ، يجلس فى دواره ، وهو يدرك ، انه امام حادث جديد ، ويدرك ايضا ، ان ما سيقوم به ، لن يجدى شيئا ، وان السوالم الناس والحوارى والبيوت والاشجار والبهائم ، بل والارض من تحتها والسماء من فوقها ، ستفاجئه بشىء لم يقم له اى حساب من قبل .

ملحوظة : المعلومات الواردة فى الحاشية ، لم يقلها لنا أحد صراحة ، ولكننا عرفناها بطريقتنا الخاصة .

***

عصمت فى طريق عودته من دوار العمدة ، يسير خلفه خفير نظامى ، حاول عصمت أن يسير ببطء كى يحاذيه الخفير ، غير ان الخفير ابطأ من سيره هو الآخر ، وعندما تأكد عصمت من عدم

جدوى المحاولة ، توقف تماما ، واستدار الى الخفير ، عند استدارته ، رفع الخفير يده بالتحية فى خوف . ابتسم عصمت ، أنه لايريد سوى أن يكلم الخفير ، تنحنح ، ابتسم ، حاول أن يبدد وحشة الصمت ، غير ان ملامح الخفير كانت تنطق بالبلادة . سأله ان كانت الجرائد تصل الى السوالم ، قال له : انها لا تصل الا صدفة ، حاول أن يعرف منه عدد السكان ، واسم رئيس مجلس قرية ششت الانعام ، الرجل لم يكن يعرف الكثير، عند الخيام ، تركه الخفير ، بعد أن حياه ، وسأله ان كان يطلب اى خدمات ، وعاد الى دوار العمدة .

عصمت يقف امام الخيام ، ويمسح الفضاء بنظراته ، أرض فضاء يطفو على سطحها النشع ، فيها أشجار نخل وجميزة كبيرة يبدو أنها عاقر ، المنطقة التى أقيمت فيها الخيام ، مساحة من الارض ، مغطاة بطبقة جيرية بيضاء ، وعلى حدودها ، تنام بيوت ترابية مبعثرة غير منتظمة ، انه يقف متجها ناحية الشرق ، على يمينه ، السوالم قبلى ، وعلى يساره ، السوالم بحرى ، وأمامه وخلفه بيوت صغيرة ، تداخلت فى بعضها البعض ، وعلى مرمى البصر امامه ، زاد النشع ، فتحول الى بركة صغيرة ، تنعكس على صفحة مياهها الداكنة ، سماء خريفية شاحبة ، كنست الرياح السحب منها ، فبدت مغسولة صافية ، وعكست مياه الترعة فروع الاشجار العارية . أحيانا ، كانت تنزل بطة صغيرة فى الترعة ، فيثير نزولها تموجات فى المياه ، فتتكسر صور الاشياء ، تطول الاشجار ، تتموج السماء فى ليونة ، تقصر البيوت ، تتكسر اشكالها الخارجية على صفحة المياه .

عصمت يتقدم الى الخيام ، زملاؤه جالسون ، يتمتعون بشمس الخريف ، الموشاة بذكريات الصيف الماضى . ظله واضح على الارض خلفه ، وهو يتقدم ببطء الى الخيام . وعلى البعد ، تحدق العيون الصغيرة فيهم . عصمت يخلع نظارته ، يمسح زجاجها ، يمسكها بيده ، يمسح عينيه بمنديل أبيض ، يفركهما ، يحدق فى قرص الشمس بدون نظارة .

فى الخيمة ، جلس صامتا ، شرب الشاى ، استراح قليلا، جلس على مكتبه المتنقل الصغير ، اخرج ورقة بيضاء ، أمسك بقلمه بين أصابعه ، ادرك ان الحال ليست على ما يرام ، وانه خائف ،

وأن الشجاعة مسألة نظرية ، جلس كى يكتب تقريره اليومى عما تم انجازه من خطوات المشروع .

السوالم ، بحيرة ، فى . تقرير للعرض على السيد . مقدم من المهندس . المشرف على مشروع .. وفى صباح الغد ، سيضعه فى مظروف مغلق . سرى وعاجل جدا . يرسل الى المقر الرئيسى للشركة فى مصر

معلومات مبدئية : فى الزمان القديم ، كانت البلد ، عبارة عن عدد غير معلوم من الكفور ، قيل عشرين كفرا ، وقيل أقل ، وقيل أكثر ، الله أعلم ورسوله . كان اسمها ، كفور السوالم ، وبمرور الزمان ، ومروره يفعل دائما بالحياة والناس كل شيء ، تحولت الكفور الى تجمعين ، سمى أحدهما ، وهو الذى الى ناحية الجنوب ، السوالم قبلى ، وسمى الآخر ، وهو الذى الى ناحية الشمال ، السوالم بحرى ، واصبح من المتعارف عليه ، أن لكل منهما حدودا فاصلة ، ولكل من البلدين أرضه وعمدته ، وجمعيته التعاونية . غير ان المدرسة الابتدائية كانت واحدة . لا يوجد فى السوالم سوى عمدة واحد ، الا أن لكل بلد منهما شيخ خفر وخفراء مستقلين عن البلد الآخر ، ولكل بلد منهما حجرة تليفون ، شرقى السوالم مباشرة ، ترعة ساحل مرقص ، وهى ترعة كبيرة ، شرقى الترعة ، طريق زراعى واسع ، شرقى الطريق الزراعى ، بلدة اشليمه ، يربط السوالم بالطريق الزراعى واشليمه جسر عريض . غربى السوالم ، طريق صغير ، يتسع لمرور سيارة بالكاد ، يوصلها بشبشت الانعام ، والطريق الزراعى ، يوصل السوالم ، جنوبا بدميسنا وكفر عوانه ونكلا العنب . وشمالا بالضهرية والتوفيقية ، حيث الطريق السريع .

يقول أهالى البلد ، ان هناك «شيخ قديم» ، سيدنا الغريب» قد كتب كتابا كبيرا ، سماه « مدونة تاريخ السوالم » عاش حياته كلها للعبادة والصلاة ، ولمحاولة معرفة كل شيء عن البلد ، ملأ عينيه بالبيوت والاشجار والناس ، وشنف أذنيه بكل ما يقال ، قرأ الكتب ، حادث الناس ، سمع وقرأ الكثير . يقول المسنون من أهالى البلد ، ان سيدنا الغريب ، كان يبدو للناس فى آخر أيامه ، مهلهل القلب والجسد واللب ، ساهما مفكرا ، مدونا كل ما يراه . يختم الاهالى حكاياتهم ، بالاسف لضياع الكتاب ، وطلب الرحمة لسيدنا الغريب حيث يرقد الآن ، ويحاول كل منهم ان يتكهن بما فى ذلك الكتاب العظيم .

سيدنا الغريب ، يذكر المسنون هذا ، كان يتغنى فى خلوته ، يرتفع صوته الحلو ، يجرح صدر الليل ، تبعثره نسمات الهواء ، تتناقله الاسماع . انصت يا قلبى ، وانع الارض التى نشأت فيها ، لقد اصبحت البلاد حزينة ، فلا من يهتم بها ، ولا من يتكلم عنها ، ولا من يذرف الدمع عليها ، فأية حال تلك التى عليها البلاد . انصت يا قلبى ، وانع الارض التى نشأت فيها .

يقول الناس : يرحمه الله .

الصورة العامة : ترعة كبيرة ، تنعكس على صفحة مياهها الزرقاء الصافية ، بيوت ترابية متناثرة ، بدون نظام ، وبين البيوت ، حارات صغيرة ، تصعد مرتفعة بالتدريج الى قلب البلد، وسط البيوت ، تتناثر أشجار جميز وتوت ونخيل مرتفع ، من يقترب من الترعة وتكون المياه مستوية السطح ، يستطيع أن يشاهد بعض البيوت ، التى تخرج على المألوف ، بيوت مطلية بألوان زاهية ، طليت فى مناسبات يذكرها الناس ، حج ، زواج ، شراء أرض ، وعلى هذه الالوان ، رسومات صغيرة ، سفن ، جمال ، ست الحسن والجمال ، الشاطر حسن ، أبو زيد الهلالى، الزناتى خليفة ، يرسمها لهم رجل مبيضاتى ، يأتون به من ايتاى البارود ، من أجل ذلك خصيصا . بعض البيوت ، مبنية من دورين ، ويقول الناس عنها ، انها مبنية بالمسلح . فى هذه البيوت ، أبراج حمام صغيرة . وخلف الصورة ، أعمدة واسلاك تليفونات . وفى ركن من الصورة ، مبنى يبدو فوق جميع البيوت ، كأنه يطل عليها ، انه صهريج المياه ، الذى يمد حنفيات البلد ، الموجودة فى الحارات والشوارع ، بالمياه النقية ، للشرب فقط . فى منتصف الصورة ، فضاء صغير ، يفصل البلدين ، انها أرض الوقف ، التى لايملكها أحد ، بجوار أرض الوقف ، تبدو فى الصورة مئذنة عالية ، مبنى اصفر قاتم ، مطفى اللون . تلك هى الصورة العامة . وعندما تنزل فى مياه الترعة ، ساقين رائعتين لامرأة تملأ جرتها ، أو رجل يعوم عابرا الترعة ، فان تموجات المياه ، وانكساراتها ، تعجن البيوت والصهريج والمئذنة والاشجار. البلد ، تكون شكلا جديدا ، بعدا آخر أمام العيون ، المرئيات تعود الى شكلها الاول ، بعد أن تهدأ مياه الترعة . تنساح المياه متجهة ناحية الجنوب فى بطء مهاجرة فى الزمان ابدا . وتبدو الصورة ، البيوت والحوارى والناس ، مغسولة بالحنين . نظيفة ، ملفوفة

بالشهد ، أحلى من قطر الندى .

خلفية الصـــــــورة : اراض زراعية ، مساحات لا نهائية من الخضرة ، وسطها طرق ومسارب ومدقات ترابية اللون ، أشجار عالية ، مدارات «سواقى» فى الشمال طريق صغير ، يرتفع حتى يصل شنت الانعام ، وسط الحقول الواسعة ، رجال نائمون ومواش تأكل فى مزاود صـــغيرة ، اخصاص من الحطب الجاف ، نصبت وسط الحقول ، للمبيت فيها وقت جني المحصول ، بيوت قليلة بناها فلاحون تركوا البلد ، لسبب أو لآخر ، وفضلوا الحياة فى الحقول الواسعة . جنوبى الصورة كوم مرتفع ، تظهر منه عيدان الحلفاء النامية ، لونها أخضر ، خضرة رصاصية ، يتناثر التراب عليهـا . وسط الحلفاء شـواهد قبور ، وفى الركن الايمن دوار مرتفع ، مدفن عائلة الدفراوى ، باقى القبور تتناثر على الـكوم كله ، فى غير نظام ، ثمة طريق مهمل ، غير مطروق ، يصل المدافن بالبلد .

عن الالوان : اللون الرمادى ، لون تراب الارض ، ومعظــم البيوت يمتزج بلون أخضر رصاصى غامق ، يلتقيان معا عند خط الافق الغربى ، بلون ازرق ، صـافى الزرقة ، لون السماء . فى الوسط الوان اخرى ، أصـفر باهت ، احمر وابيض ، غير انها لا تشكل خروجا على المـألوف من الالوان العامة للصورة .

يدون تحت الصورة ما يلى : الناس هنا طيبون يملـكون شيئا ما ، قدرة خاصة ، انهم عنـدما يضعون اقدامهم المشـققة على الارض الشراقى ، ويشقون بطنها بسن المحراث ، فان الارض تبوح لهم بسرها ، ومن رحم الارض ، ينتزعون السر ، كل رجل يملك فى داخله بذرة ما ، احســاس معين ، يدهش الارض ، يجعلهـا تصرخ دافعة ما فى رحمها الى الناس . تكتب لـكم من احد منازل السوالم ، المنزل يقف على رأس الشارع الرئيسى كالحارس الليلى اليقظ ، الشارع يمتد قاسما السوالم الى نصفين كالنهر الـكبير ، وعلى شاطئيه ، تنبت الحارات الضيقة المرتفعة على الجانبين ، مثل العروق على ورقة شجرة التوت ، وفى ارتفـاع الحارات ، تتكور البيوت الطينية ، ومن جوفها ، تطـــــل العتمة والبرودة والانكماش والانطواء . وفوق الاسطح ، الحطب وصوامع التخزين والنساء والاطفال والشيوخ . وفى ساعة العصارى ، تدور العيون فى المحاجر ، تمسح الحارات والحقول والسماء الخريفية الصافية

من اجل هؤلاء وعنهم . نثبت فى أوراق زماننا هذه الكلمات

فى السوالم صمت ليلى ملىء بالمرارة والانكسار. رجال مكسورو القلوب ، يلعبون السيجة وقت الغروب ، ويشربون الشاى المر ويدخنون المعسل فى عشة سلسبيله على الله . هنا رجال يتكلمون فى السياسة . ولا يأكلون اللحم الا فى المواسم والاعياد ، وينامون على الأرض ، يربون المواشى والدجاج والطيور كى يبيعونها يوم السوق من كل أسبوع . ويبيعون البيض واللبن والسمن. الرجال هنا ، يحملون فى جيوب الصديرى ، محافظ خالية من النقود . فيها ايصالات مكتوبة ، موقعة منهم ، بطلب سلفة من الجمعية التعاونية ، لم يحصلوا عليها بعد ، ومعلق فيها أختامهم الصفراء الصدئة .

فى السوالم ، أبناء ليل ، شبان بلا عمل ، يسرقون ويقتلون ، ويحلمون بفتح بيوت لهم ، وبالتوبة ، لا يظهرون بالنهار، ويملأون الليالى بالخوف والقهر والرعب ، يجرون فى الحقول ، تدوس أقدامهم فى قلوب الرجال ، وأهالى السوالم يشفقون عليهم ، رغم كل ما يحدث منهم فى الليالى الطوال ، ويحاولون أن يجدوا لهم العذر ..

فى السوالم ، سوق واحدة ، تقام يوم الخميس فى الشارع الرئيسى وفوق الجسر ، يتخفف الناس فيها مما عندهم بالبيع . فى يوم السوق ، يذهب الكثيرون ، يلفون السوق ، يملأون قلوبهم بالرغبة فى كل ما يباع ، اليد قصيرة والعين بصيرة ، يعودون كما هبوا ، جيوبهم خالية ، وصدورهم قد فاض بها الصبر ، يعزون انفسهم بأن يقولوا انهم اما حضروا للبحث عن طلب لم يجدوه فى كل انحاء السوق، واما انهم حضروا للفرجة فقط

والصمت اكثر من الكلمات فى أفواه الرجال . قاموس حياتهم شحيح . فقير . نادر المفردات . الحوار يبدأ بالصمت ، صمت جياش زاخر بالاسى . الصبر صبر ايوبى ، انه ليس صبرا ، بل نوع من الخضوع للعالم الخارجى والناس والاشياء . فى صناديق النساء القديمة . ايصالات بمبالغ اقترضها الرجال بالربا من اغنياء البلد ، فى انتظار جنى المحصول . فى الصناديق عقود زواج قديمة ، شهادات ميلاد الابناء الصغار ، صور باهتة المعالم لافراد من الاسرة ، تركوا البلد ، وسافروا الى البنادر القريبة . هنا ارض خصبة ، سماء صافية ، وهمسات راجفة فى القاعات

الواطئة ، ويقظات حارقة فى الليالى الشتوية الناعسة . فى قيعان انحارات ، وهنا فى السوالم ، آمال ملساء ، ناعمة ، تنسجها الشفاه ، وترسمها العيون . بأن النهارات الرائعة ، لابد وان تأتى الى السوالم ، مع مجىء الربيع القادم .

الرجال ينامون ، يتمددون على ظهورهم ، يطالعهم فى نومتهم السقف والخشب والبوص والسناج الاسود الذى يغطى الكل . الرجال يفكرون وهم نيام ، فى الذهاب فى صباح الغد ، الى من يكتب لهم شكاوى موجهة الى جهات متعددة ، وفى قيعان محافظهم انجلدية الحائلة اللون ، أوراق دمغة اشتروها فى ساعات رخاء نادرة ، وحفظوها من أجل هذه الشكاوى ، انهم يفكرون فيمن ستكتب لهم الشكاوى ، وستكتب ضد من : العمدة ، شيخ البلد ، شيخ الخفر ، معاون الجمعية التعاونية ، أمين شونة بنك التسليف الزراعى فى كفر عوانه ، مقاول الترحيلة ، ناظر المدرسة ، معاون البوستة ، يحركون السنتهم فى أفواههم ، يدركون انهم قد أصيبوا بالخرس . فيقررون الذهاب صباحا الى فتحى سالم . وهناك ، يصفون له ، بكلمات منكسرة ، ما آلت اليه الحال ، ويجلسون على الارض . بجوار مكتبه ، يطلبون منه أن يحشى الشكوى بكلمتين من عنده ، يفلون الحديد ، ينصت فتحى سالم الى كلامهم كله ، وهو صامت ، ثم يشمر أكمامه . ويحرك شفتيه وينظر ناحية السقف ويكتب .

فى المسجد ، يصلى الشيخ محمود بالناس . ويخطب يوم الجمعة ، ويجلس فى مقام سيدى الغريب ، يفتح الكتاب ، يقرأ الغيب ، يكتب الوصفات البلدية للمرضى ، وصفات بسيطة ورخيصة ، وعندما ينزل بالناس الكرب والضيق ، فانهم يذهبون اليه .

ــ والنبى ياسيدنا .

ينذرون النذور ، ينفذون ما يطلبه منهم أملا فى الشفاء . عباد الله ، يا ريحة الدنيا ، يا أهل هذا الزمان ، لقد رأيت ، ليلة الامس فى المنام ، رؤيا عجيبة يا تراب الارض ، وملح السماء ، تعالوا نمزق بالكلمات آلام هذه الايام ، استمعوا الى يا أبنائى ، فى ساعة العصارى ، يذهب اليه الرجال ، يحكون له أحلامهم ، ما راوه فى المنام بالليالى ، كى فسرها لهم .

ــ شوف ياسيدى ، اللحمه فى المنام خير .

فى السوالم ـ سكر ـ امرأة مجروحة القلب والجسد . تملأ الليالى بالدموع ـ تخطو ساعة الغروب فى الحوارى . فوق الجسد اللدن ملابس مبلولة بالحنين ـ تجففها نظرات الرجال ـ ألف ألف نظرة تنزلق فوق انسياب الظهر ـ وتستقر فى الردفين . انها راضية بما قسم لها ـ اللهفة والحزن والحنين والجنون والعزاء ، انه هنا ـ فى حوارى السوالم وبيوتها وحقولها وناسها ـ بحر كبير ـ بحر الخلاص ـ بحر يغسل آلام الليل والزمان وذكرى عطفة باب الوداع وعصمت والشاب المنتحر .

تمر بالسوالم أحيانا غجرية . امرأة سمراء ، طويلة القد ، متينة البنيان ـ مصبوغة الشعر واليدين والقدمين بالحناء ـ مزدانة الوجه بالوشم الاخضر . الست محروسة . تقرأ الودع للرجال ـ تجلس ـ يلتفون حولها فى نصف دائرة ـ وفى المنتصف ـ تفرش الرمل ـ وفوقه الزلط ـ يدفع لها الرجال قروشا ممسوحة المعالم .

ـ وشوش الدكر .

يذكر الرجل اسم أبيه ـ يدوس على الحروف ببطء ـ يكمل الرجل بخجل ريفى اسم أمه ـ تتكلم الغجرية ـ تستخرج لهم من رحم الغيب أحلاما كثيرة .

ـ قدامك نتايه وبتشاغلك ـ وعايزاك .

ـ هيه فين بس ؟

تتحدث الغجرية ـ عن أيام عصيبة قادمة ـ وعن مخلص ـ نبى جديد ـ سيظهر فى البر ـ يجمع الشمل ـ وينشر العدل . تتحدث الست محروسة عن الوقاية من عين الحسود والستر ـ وسكة السلامة وسكة الندامة والسفر الى بلاد بعيدة ـ والعودة من هناك بكل ما يشتهى الانسان ـ وزيارة قريبة يقوم بها للبلد أناس طيبون ـ يغيرون حياة السوالم .

فى السوالم ـ رجال طيبون ـ يصلون ويصومون ـ ويزكون عن النفس والاولاد والارض والمال ـ يطيعون الله ورسوله وأولى الامر ـ ويحلمون بيوم يأتى فى مستقبل عمرهم ـ يستطيعون فيه الذهاب الى بلاد الحجاز ؛ وهناك يمسكون بحديد الشباك ـ ويهتفون من اعماق القلوب ؛ أجرنا يارسول الله .

فى السوالم ـ أغنياء قليلون ـ وفقراء كثيرون ؛ ظالمون ومظلومون ـ رجال يملكون مساحات من الارض ؛ ورءوس من الماشية ـ وبيوت

نظيفة ورجال لا يملكون سوى اجسادهم وقلوبهم الفارغة . وهنا ايضا ، قصص حب ، حكايا يقولها . الرجال فى الحقول ، أحلام منحوتة من جدب أيامهم ، وسفرات نادرة الى البلاد القريبة وسهرات قليلة ، لحظات نادرة مختلسة من عمر الزمان .

نعتذر نحن الموقعين على هذا التقرير ، عما سنقوله الآن . لايوجد فى السوالم ، قبلى أو بحرى أو اشليمه او دميسنا ، دكتور واحد ، أو مستشفى ، أو حتى ممرضة ، لا توجد مدرسة اعدادية ، ولا سلك كهرباء ، لايوجد تليفون ، سوى تليفون العمدة ، وهو تليفون اميرى ، لايوجد وابور حرث ولا سيارة ، لا تصل الى هنا جريدة صباحية ، تحمل أخبار العالم وما يحدث فيه .

مرة أخرى . نعتذر .

ارقام واحصائيات هامة : فى السوالم ، قبلى وبحرى ، خمسة عشر الف نسمة ، ويتبع زمامها حوالى خمسة آلاف فدان . فى السوالم . مسجد واحد ، هو مسجد سيدى الغريب ، وولى آخر من أولياء الله الصالحين ، لم يبن له مسجد بعد . فى السوالم . «سواقى» كثيرة ، بناها الناس بالمشاركة. هنا ، طنابير، خلايا نحل ، ابراج حمام ، اشجار جازورين وصفصاف ونخيل ، للسوالم اربعة طرق توصلها بالعالم الخارجى ، بها شارع رئيسي واحد ، دكاكين للترزية البلدى ، بقالون ، اهمها دكان المعلم يعقوب . تجار حبوب ، جزماتية ، حلاقون . سمكرية ، جزارون. أما باقى ما يحتاجه البلد ، فيجده الناس فى يوم السوق من كل اسبوع .

بقايا كتابات اثرية ، وجدت على الواح قديمة . بجوار ساقية مهجورة :

« ان المبصر قد غشى بصره . والمستمع قد صم ، وذلك الذى يجب ان يكون مرشدا ، اصبح مضللا » .

« كنت اتكلم فى قاعة العدل ، بفم فصيح غير هياب » .

« وقد طفح كيل عذابى ، وفاض بحر آلامى . وهو ذا يتدفق من فمى ، أنينا وشكوى » .

اما الفلاح فحسابه مستمر « اى ان صاحب الارض يطالبه دائما بتأدية ما عليه من ديون » الى الابد ، وصوته اعلى من صوت

آبو « دائما يشكو » . وهو كذلك ، اكثر تعبا مما يمكن التحدث به ، وحالته كحالة الذى يعيش بين الاسود، وهو فى غالب الاوقات مريض. وعندما يعود الى بيته فى الغروب، فان المشى يكون قد مزقه اربا « أى إن طول الطريق بجهده اجهادا كبيرا ، فوق ما يلاقى من التعب خلال اليوم » .

السفر في الليل

السوالم بحيرة ..

الاثنين ٥ اكتوبر سنة ١٩٦٤ م

كانت السيارة تسير بنا على الطريق الزراعى - مصر - اسكندرية الاشجار وأعمدة التليفونات والبيوت والمزروعات تجرى فى سرعة الى الخلف ، أسلاك التليفونات تبدو مشدودة . تسترخى وسط الاعمدة ، تقف عليها الطيور التى لم تهاجر بعد ، ناحية الجنوب . يدور خط الافق البعيد ، بخضرته الباهتة ، فى نصف دائرة . مركزها السيارة ، تجرى النباتات المرتعشة الى الخلف . بجوار الطريق ، رياح صغير ، به ميـــاه راكدة ، تجمعت بها قاذورات الحياة اليومية ، حطب ، جثث ، حيوانات طافية ميتة ، نباتات مهوشه ، نساء يغسلن ملابس أولادهن ، بهائم مربوطة بجوارالرياح

عند التوفيقية ، توقفت السيـــارة ، انعطفت فى طريق جانبى مترب ، متجها ناحية الجنوب ، يرتفع الطريق مبتعدا حتى الافق البعيد ، يتحول فى نهاية الامر ، الى نقطة ترابية ، تتوه وســط الاشجار . على الطريق الزراعى ، التراب والمطبات والفلاحين فى حقولهم . قلل السائق من سرعته ، غربى الطريق ، ترعة ســاحل مرقص ، وعلى الشاطىء الآخر من الترعة ، كان ينعكس على مياه الترعة ، نساء يملأن الجرار ، ويغسلن الاطباق والاوانى. النساء فى لحظة مرور السيارة عليهن ، يخفين مفاتنهن البيضاء بملابسهن يدرن الوجوه الى الناحية الاخرى ، يتهامسن بكلمات لينة. رفعت عينى ، فى الحقول البعيدة ، الرصـاصـية اللون ، الخالية من الخضرة الزاهية . كان هناك فلاح ، مقوس الظهر ، يبدو للعين صغيرا ، يغمس يديه فى الطين ، بحثا عن شيء ما فى الارض تحت قدميه .

خلال سيرنا ، مررنا بكنيسة الضهرية ، ثم ظهر لنـا مئـذنة مسجد ، ومبنى حكومى ، وبرج حمام ، وأسلاك تليفون ، وصهريج

مياه ، عرفت انها الضهرية ، أكبر قرى الناحية . المبانى تقترب ببطء ، وبعد مرورنا بالضهرية ، البـــيوت المتناثرة ، وانعزب انصغيرة ، تبدو متباعدة ، ضئيلة ، وســط الحقول الواسعة . السوالم واشليمه ، تقتربان ، الطريق يقبل علينا ، حيث تتهادى السيارة عليه. عند الجسر، نصبة جزار، ومصلى صغير، وشجرة صفصاف تحتها دكة وبجوارها مبنى . حيث ينتظر المســافرون السيارات .

الغروب ، نسمات الخريف ، تهب علينا مشبعة برائحة المساء والجفاف والجدب . السيارة تجرى ، وعيناى تسرحان على الطريق، الطريق يتلوى أمامنا ، ثم يستقيم ، يقبل على السيارة فى سرعة هاجمة ، تعبره ، يرتمى الى الخلف . دائخا ، مسترخيـــا ، بليدا . المشروع ، هو أول عمل أقوم به بعد التخرج . افكر فى كل شيء دفعة واحدة ، لا اســــتطيع أن أثبت فى ذهنى شيئا محددا ، الامور متداخلة ومختلطة وقد فقدت أشكالها الحقيقية . لحظات قليلة من عمر الانسان ، يشعر فيها ان حيــاته لا تخضع لأى منطق ، بل قد يشعر بأن ما يعيشه ، شيء غريب ونادر ، ويبدو العمر كله حلما قديما ، يغشوه الضباب . الفساتين القصيرة مساحات اللحم الابيض ، السيقان والافخاذ ، البسمات التى تقطر صفاء ومودة ، الاحلام والرؤى المستقطرة من أعمـــاق الحرمان اليومى ، استقبال الحياة فى قرية صغيرة ، نائية ، بعيدة ، منسية شمال اسوان ، البلاد الحارة نهارا ، الرطوبة الثلجية طول الليل، الليالى الدافئة فى عمق الشتاء ، الحياة مع العقارب والثعابين فى حجرة واحدة ، الدماء الحارة النافرة فى العروق ، الجلد الاسمر المحروق من الشمس ، الجلد فوق العظم ، والعظـام أشـواك ، والاشواك طريق نقطعه كل يوم ، ذهابا وعودة الى بلادنا الحارة . السفر شمالا ، الهجرة مع مياه النيل ، التـرجرج مع ارضنـا النازلة نحو الشمال ، تلاوة صلاة الاستسقاء خلال السفرة الاولى وفى بلاد الشمال ، البرد والهواء الشتوى وموجات البحر العالية.

شــوارع الاسكندرية الليلية المغسولة بالحنين ، البخار الخارج من الافواه مع الكلمات . كانت الموجة طولها ستة أمتـار طوال ليلة أمس . الحياة مع أسرة غريبة ، السكنى بمفردى فى الحجرات الصغيرة المؤجرة ، التكلم منفردا معظم الوقت ، اليقظة الحارقة فى ليالى الاسكندرية البـاردة . وضعت قلبى ، الرؤى المرتجفـة ،

الاحساسات الراعشة ، فى خطاب ازرق معطر ، أرسلته الى هناك ، الى قريتى . قلت فيه كلاما عن الحزن الليلى ، المستقبل ، المذاكرة ، الرغبات المعششة فى الاعماق ، الصمت والكلام ، الخوف والشجاعة ، عانقت فيه التوق والهمس واللهفة والحزن والجنون . قلت ان فى الاعماق رؤى مريضة ، أحلاما مهوشة ، فكره لم تتحدد بعد عن القهر والموت . أخبرت أبى ، ان السعادة والايام الخضراء التى لم نعشها بعد ، هناك ، حيث كنوز الملك سليمان ، موضوعة فى صندوق ذهبى . والصندوق فى أعماق سابع بحر تحت الارض . قلت اننى بعد التخرج سأصنع سفينة من ورق الاحلام ، أملأ شراعها بالوهم ، أبحر بها بعيدا ، وهناك سأبحث عن كنوز الملك سليمان . الاسرة الصدئة . الضحك ثم الضحك بلا سبب واضح فى الطرقات الخالية ليلا ، الحيطان الكالحة ، الاجساد المتكورة الصفراء ، حسابات الربح والخسارة البيع و لشراء . الحوالة البريدية أول الشهر ، التردد على مكتب البريد أكثر من مرة للسؤال عنها . ادفعوا للسيد/مبلغ وقدره مليم . جنيه فقط . أقدم لك الباشمهندس عصمت فهمى النجعاوى ، أهلا يا افندم . تشرفنا ، أنا سعيد بمعرفتك الليلة ، خلينا نشوفك بعد كده .

الشوارع المبطنة بالناس ليلا ، العيون المتطلعة من داخل السيارات المغلقة ، النوافذ والشرفات ، الشفاه المثقلة بالطلاء ، الرموش لسوداء الطويلة ، أهلا ساوى . تعرفى يامدموازيل . يتحول الليل الى أغنية عن الهوان والقهر . السهر حتى الصباح . الميل متاهة متجددة ، وأول قطرة ضوء بحر الخلاص ، النوم والراحة والاستيقاظ فى الصباح والعظام مدشدشة ، والرأس مثقل بالصداع ، العيون المتعبة ، حولها هالات من السواد الازرق . قال أبى : أن نجاحك نجاح لنا كلنا . رأيت الذين لايملكون ، والذين بنامون دون عشاء ، والذين لم يبق فى حياتهم سوى الاحلام وحديث النفس ولهفة ما بعد الاوان . فقلت لنفسى : ان بلدنا تأكل أبناءها ، أقسمت لنفسي ذات ليلة ، اننى لن أعود الى قريتى الصغيرة ، الا ومعى الشهادة ، وقررت لصديقى ، ان التعليم والاستذكار والنجاح ، هو عصمتنا الوحيدة تجاه الفقر الذى خلفناه وراءنا . قال أبى فى احدى رسائله الى : انه صبح مهددا ببيع قطعة ارض . قال أخى الاكبر الذى لم يكمل تعليمه ، بسبب ظروف خاصة

بالعائلة ، انه لم يتمكن أحد من العائلة ، من أن يخوض معركة ما ، وانهم يعيشون فى دائرة الانحناء ، وان رءوسهم تقترب من الارض، يوما بعد يوم ، وان أقدامهم قد التصقت بالارض ، اكثر من أى يوم مضى . قال أخى : ما من معركة ربحها أحد ، بل ما من احد قدر له يا عصمت أن يخوض معركة ما . التنزه فى التذكارات المنسية ، محاولة الفزل من جذب الايام أشياء بسيطة وساذجة . التخرج ، الفرح بالنجاح ، الحصول على بكالوريوس الهندسة . مبروك . يصل ويسلم ليد السيد الوالد . البحث عن وظيفة ، القيام برحلة يومية ، بلا نقطة ابتداء وبلا هدف فى الوصول الى نقطة انتهاء ، السؤال والجواب ، قراءة جريدة الصباح فى ثلاث ساعات ، التعليم بالقلم الاحمر فى اكثر من مكان فى الجريدة ،كتابة خطابات رقيقة مهذبة ، ايماء الى الاعلان المنشور فى جريدة . العدد . الصادرة بتاريخ . فى الصفحة رقم . العمود رقم .

بشأن طلب وظيفة . يسرنى أن أقدم لكم هذه البيانات ، الرحيل الى القاهرة ، جمع الحقائب والذكريات ، الاخفاقات الصغيرة ، الاحلام التى لن تتحقق أبدا ، الانتظار ، محاولة تمزيق لحظات الانتظار بالاحلام والكلمات والتسكع ، قراءة صفحة الوفيات ، متابعة ما يجرى فى البلد باهتمام بارد ، العثور على عمل مناسب فى احدى الشركات ، ارتداء ملابس نظيفة ومكواه ، السير فى الشارع فى السابعة والربع صباحا ، المقابلات ، الجلوس على مكتب ايديال فى الدور العاشر فى احدى عمارات القاهرة العالية « ولا ينقصنا الآن سوى مشاهدة رؤياكم الكريمة » ذات صباح ، أعطانى رئيس قسم المتابعة ، خطوات احد مشروعات الشركة فى محافظة البحيرة ، كان المشروع لم ينته بشكل نهائى .

كان مؤشرا عليه « للدراسة والمتابعة واتخاذ المناسب من الاجراءات ، وعرض » . من خلال دراساتى للخرائط البترولية ، وتقرير لجنة المشروع السابق ، توصلت الى نتيجة مبدئية ، انه من المحتمل وجود بترول على بعد معين من مكان المشروع السابق. المشروع السابق كان فى منطقة حوش عيسى ، محافظة البحيرة . كانت اللجنة المشرفة على المشروع ، قد تركت خرائط لمصيدة بترولية أحتمالية ، ومجموعة أخرى من الاستنتاجات . رحت أدرس المشروع بعناية ، كان الفراغ والملل قد أكلا ذهنى ، رحت أقرأ الوصف الخارجى للمنطقة . لم يكن هناك نضح زيتى ، أو

مظهر غازى ، وهما اولى علامات وجود البترول ، وقلت لنفسى ، ان الظروف التركيبية لطبيعة الارض ، دليل أكثر على وجود بئر اقتصادية ، بحثت فى التقرير ، عن مسير تاريخى لتكوين طبقات المنطقة ، فتذكرت ان أنسب أماكن لتكوين البترول ، هى الخلجان البحرية الضحلة حيث يكثر ترسب المواد العضوية تحت ظروف غير هوائية ، فلا تتأكسد فى مثل هذه الخلجان ، المحمية الفقيرة فى الاوكسجين ، ونتوقع بذلك ، أن تتكون صخور المصيدة البترولية النموذجية ، ويتكون البترول على شكل مصايد ، انتهيت من دراساتى الى نتيجة هامة ، لو ثبت وجود منطقة مائية واسعة فى هذه الناحية فى قديم العصور ،، فاحتمال وجود البترول قائم خلال كافة دراساتى ، التى تمت بعد ذلك ، تأكدت من أمر واحد بشكل مبدئى ، احتمال وجود بترول فى بلدة اسمها السوالم ، فى مكانين بالسوالم . اخذت خرائطى ، عرضت كافة الخطوات والنتائج على الشركة .

صراحة ، فرحت بعد هذه الاكتشافات المبدئية ، وتحمست للمشروع ، قررت ان أبدأ بعد زيارتى الاولى للسوالم ، وانا فى الطريق الى القاهرة ، تصورت شيئا ما ، احساسا بسيطا وساذجا ولكنه جعلنى اهتم بالمشروع . تصورت ان الناس فى السوالم ودميسنا واشليمه والضهرية وششت الانعام ، موتى ، غير انهم يتحركون ، يروحون ويجيئون ، يضحكون ويبكون ، انهم راضخون مستسلمون للسماء العالية ، والارض السمراء والترعة والطريق الزراعى ، وما يقوله الراديو وما يفعله الخفير وشيخ الحفر ، وصوت السيارة التى تعبر بلدهم بسرعة ، والطائرة التى تشق الفضاء متجهة ناحية الجنوب وقت اذان الفجر ، لما يشيعه الناس القادمون من البنادر البعيدة من اشاعات عما آلت اليه الحال . قلت لنفسى : هؤلاء الناس فى انتظار حدوث معجزة ما ، تهبط من السماء ، أو تخرج من جوف الارض ، أو تأتى من البنادر البعيدة النائية ، الناس تعيش ، تمر بها الايام والليالى والشهور والسنوات الطوال ، فى انتظار حدوث هذه المعجزة .

تمثلت فى خاطرى ما يقولونه عن سيدى الغريب ، وكتابه الذى ضاع ، كما يضيع عمر الرجال هنا ، فى انتظارهم لظهور نبى مخلص جديد ، يظهر فى البلاد .

فى الصباح ، فى السادسة والنصف صباحا ، صحوت من نومى ،

خرجت من أعماق سريرى ، ذهبت الى دورة الميـاه ، وقفت فى الحمام ، المياه تنزلق على جسدى فى كسل . خرجت ، ارتديت ملابسى ، وقفت امام المرآة ، لم اتناول افطارى . كان فى اعماقى نوع من الفناء الذى لم أجربه من قبل، اعددت حقيبتى ، وضعت فيها غيارات داخلية ، كتبا ، مراجع علمية ، دواوين شـعر بين أسطرها فضضت بكارة الاحـلام الاولى ، ورقا ابيض ، خرائط بترولية ، أدوات هندسية ، رسومات ، مذكرات قديمة ، تأكدت اننى اغلقت النوافذ والابواب ، وصنبور المياه ، ونزلت .

فى الشارع العريض ، بين ضجيج السـيارات ، رحت اتغنى بمقطع من اغنية حب قديمة ، وقلت لنفسى : اننى فى مكان ما . ربما لا وجود له على خريطة مصر ، سأبدأ تجربتى الاولى ، مع اناس لا اعرفهم . فى مكتب المدير سلمت عليه ، شربت الشـاى الدافىء ، متعت نفسى بمرئيات بالغة الفخامة ، وعزيت نفسى عما ينتظرنى فى السوالم . قال لى : انه يقدر فى ، اننى اتجهت الى الريف ، وانه يتمنى لى التوفيق فى مستقبلى . أكد انه سيساعدنى كابن له ، او كأخ صغير ، قال الرجل ، وهو يلقى نظرة علىأسطح البيوت المتناثرة ، واجزاء الشوارع التى تبدو منها ، انه او عاد الى شبابه ، مع استحالة حدوث هذا ، وبدأ من جديد ، لما فعل غير ما فعلت ، همس ان الشيخوخة هى أسوأ ما فى حيـــــاة الانسان ، بل أسوأ من الموت نفسه ، وانه لا يخفى على حسده لى . قال الرجل بتأثر بالغ : ان ما سأقوم به ، تجربة عظيمة فى حد ذاتها ، واننى بعد عودتى بالفشل او بالنجاح ، سواء قدر لى أن أصنع شيئا بهذه البـلدة ، أو ان اكسر أمام الواقع ، فان التجربة رائعة وجميلة ، بل وهامة .

ـ شوف يا عصمت ، اللى يعيش ياما يشوف ..

ـ واللى يلف يشوف اكتر ..

قالوا لى قديما : من يسافر يعش الف حيـاة مرة واحدة ، وكانت أيامها هجرتى الاولى . ونحن فى الطريق ، تحت اقـدام القاهرة ، وكان الوقت ظهرا ، استدرت ، نظرت الى المنـــازل العالية ، المصانع ، المـآذن ، قباب الـكنائس ، القاهرة تدور حول نفسها فى حركة بطيئة ، استقرت الاشياء فى نفسى . بدا لى اننى أودع عهـدا كاملا من حيـاتى ، لا ادرى لم تذكرت أهلى، قريتنا الصغيرة فى اقصى الجنوب ، تذكرت ابى ، رحت أستحضر صورته

بعين خيالى ، امى ، اخوتى ، اخى الاكبر الذى لم يكمل تعليمه وتفلسف كثيرا ، قطع الارض التى بيعت فى السنة النهائية ، انتزعت من قوت وسمعة العائلة ، تحولت الارض ، التراب الاسمر الداكن ، الى حوالات بريدية . اسوان ، صادر فى ، مسجل تحت رقم .. حوالة بريدية رقم .. اذا لم يصل فى ظرف ثلاثة أيام يرد الى الثانى .. على العنوان الاتى .. ادركت اننى لم أر والدى ، منذ ثلاث سنوات . عشت مرة أخرى ، لذة السفر بالقطار ليلا ، النوم على المقاعد الخشبية ، فرحة لقاء الاهل والاحباب ، الحزن المعلق فى اماقى العيون عند الفراق . السيارة تمر بى على الضهرية الآن « هنا الضهرية وحصتها » . اقتربت من السوالم . ومن هناك ، سأرسل تقريرا الى الشركة ، بكل ما قمت به ، وبعد ذلك ، سأكتب خطابا الى الاهل .

ليلتى الاولى ، غيرت ملابسى ، تخففت من جلدى الخارجى ، أحسست بحريتى فى ملابس النوم ، تمددت على الفراش الخشن ، ارتطمت نظراتى بسقف الخيمة ، رحت أحصى الثقوب الموجودة به ، حاولت أن أرى نجوم الليل من خلالها . لفت نظرى الصمت ان الصمت لا يتحدد هنا بانعدام الاصوات ، والسكون الشامل ، انه احساس قريب من الصلاة ، النجوى الخافتة ، حديث النفس . هبت نسمة هواء ، دخلت الخيمة . كان الهواء مشبعا برطوبة الليل . وكان الليل فى الخارج ، جسما بلا صوت ، فتذكرت أن الليل ، فى الزمان القديم ، كان وقت اتخاذ القرارات التى لا تنفذ بعد ذلك أبدا . قررت أن ابدأ بتدوين مذكراتى ، كما كنت أفعل من قبل وأن ابدأ خطوات مشروعى من صباح الغد .

يقف الرجال على الجسر ، من تحتهم يصعد بخار أبيض اللون من الترعة . بداية الليل. من السوالم واشليمه تنبعث أنوار خافتة اذن المغرب ، وترك الجسر من يواظب على الصلاة فى ميعادها ، الفرض بفرضه ، بقى بعض الرجال يتحدثون ، الجسر من الاماكن المحببة الى الرجال ، الشبان منهم على وجه الخصوص . وعلى الجسر ، قد يتقابل شبان السوالم ، مع شبان من اشليمه وقت العصارى . أما الرجال الكبار ، فانهم يفضلون الجلوس أمام دكان المعلم يعقوب . يشربون الشـاى ، ويتكلمون عن الحياة والموت ، المرض والشفاء الذى يتحول فى حديثهم الى امل مستحيل التحقيق . شخص واحد ، كان يجلس هذا المساء على الجسر ، غير انه لم يتكلم ، انه ورداني . كان يجلس على سور الجسر وخلفه ، كانت مياه الترعة تلمع فى الظلام ، ان ورداني بعد أن اكتشف اكتشافه الخاص به ، لن يتراجع عنه ، خانه أهل السوالم ، تخلوا عنه ، تركوه ينكسر بمفرده ، ويسلم أرضه . ويعيش من الغد كما النساء . فتحى سالم يقف وسط الرجال ، يسأل عن المهندس ويقول للرجال بعبارات ممطوطة ، انه سيكتب ما حدث فى البلد ، فى تقريره الاسبوعى الذى يرفعه كل أسبوع للجنة المركز ، السكوت على ما يحدث جريمة ، السوالم بلدهم جميعا ، وكل منهم مسئول بشكل أو بآخر عما يحدث . قال انه سيثير هذا الموضوع فى اجتماع الاتحاد القادم مع الامين العام ، غير انه عاود السؤال عن المهندس ، تساءل بمرارة : كيف يقول العمدة ، ان المهندس هو الحكومة ذاتها ، فتحى سالم يقرر فى نهاية حديثه الغامض ، وهو يلوح بالجريدة فى تسليم مر ، بأن فى هذا الموضوع سرا ما ، غير انه لابد وأن يعرف هذا السر .

— ياعم ولا سر ولا حاجه .

يتضاءل فتحى سالم أمام الرجال . وكل ما يعرفه . وتضحى الجريدة ورقة لا قيمة لها . تذوب المسافة التى تفصل فتحى سالم عن الناس . يقرر بينه وبين نفسه ، انه فى الصباح الباكر

سيذهب الى المهندس ، يتعرف عليه ، يبحث معه الموضوع ، ومن يدريني ، فقد يكون في الموضوع مصلحة ما للبلد . منذ اكثر من سنه ، قلت للرجال ، على هذا الجسر ، وفى مثل هذا الوقت ، سأضع حياتي فى خدمتكم يا أهل البلد ، وكنت صادقا فيما قلته ولـكن أين أنا ، المستقبل العريض ، الرد على الشامتين، عضوية مجلس الامة ، المرتب ، المنزل ، الارض ، الزوجة ، الوظيفة التى أصبحت الآن حلما صدئا . فتحي سالم ، يهوم بعيدا عن الرجال، يسافر على اجنحة الخيال والآمال الـكاذبة .

ـ السلام عليكم .

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

كان الظلام قد حل ، انه المساء ، الرجال يحاولون أن يعرفوا القادم ، كان الصـوت غريبا عليهم ، أدركوا هـذا منذ البداية . الجسر ، ليس بنـاء من الاسـمنت والحديد والطوب ، انه جزء منهم ، من حبات القلوب وماء العيون ، ومن يدوس على هـذه السكة الحبيبة الى الرجال ، فهو معروف لهم ، انهم يشمون رائحة الغربة فى الصوت القادم .

ـ اتفضل .

يقف الرجال ، ينفضون ملابسهم ، يركبون مداساتهم ، يعتدل الذين كانوا يستندون الى السـور ، يقتربون ، زجاج نظارة يلمع فى الظلام ، أفندى طويل ، معه رجـل يلبس نفس ملابسهم ، المهنـدس ، ومعه حب الدين سرحان . يمد لهم يده ، تستريح الاكف فى بعضها ، يتولون كلمات موشاة بحب الاستطلاع .

ـ فتحى افندى سالم .

ـ المهندس عصمت فهمى النجعاوى .

يمد فتحى سـالم يده بتردد ظاهر ، يشعر ان يده مجذوذة الاصابع ، تلتقى اليدان ، وبين الـكفين والاصابع ، كانت تكمن آثار القهر .

ـ تشرفنا يا افندم .

يجلس عصمت على السور ، يجمع شمل الرجال حوله ، يأتى اليهم رجال آخرون ، كانوا متناثرين فى اماكن آخرى على الجسر، يكونون حلقة صغيرة حول المهندس ، يمسك فتحى سالم بجريدته بعصبية . اخيرا يأتي الامتحان قبل موعده . فى صمت اللقـاء الاول بين الرجال والمهندس ، انتزع وردانى نفسه ، وقف ، نفض

جلبابه بعناية من تراب الجسر ، شمل الجالسين بنظرة ميتة ، كان يود ان يقرأ نظرات الذين خانوه ، غير ان أعينهم كانت معلقة بالمهندس .

ـ ازيكو يارجالة .

ـ أهلا يا باشمهندس .

ـ والله وحشتونى ، بعوده الايام .

قال حب الدين :

ـ دا كان عيش وملح يا باشمهندس .

يبتعد وردانى عنهم ، يقول لهم ، وهو يسير مبتعدا عنهم :

ـ طيب .. السلامو عليكو انا بقى .

يرد عليه أكثر من رجل ، فيضيق صدره ، يكثر عدد الرجال حول المهندس ، يجلسون ، يجلس حب الدين بجوار المهندس ، يحميه بنظراته ، انه يلبد له تحت باطه ، كما يقول أهالى البلد. لكنه الصمت ثقيل على الجميع ، والليل الريفى حولهم ، مكعبات الظلام الثقيلة ، وللظلام ، الف الف عين ترى ، الف الف أذن تسمع ، والبترول ، مرفأ الامان ، قطرة الماء فى صحراء الظمأ . فى الايادى سجائر لف رفيعة ، تشتعل وتنطفىء ، يرميها الرجال على الجسر . وفى القاع تحتهم ، كان يتساوى كل شىء ، الصمت والظلام ، الحب والكراهية ، الفرح والاسى ، المهندس وفتحى سالم .

ـ اسمعوا يا جماعة ..

تخرج الكلمات من فم المهندس ، موشاة بالغامض والمجهول ، تسرع الكلمات ، تنزلق على اللسان ساخنة ، فيكثر البخار الخارج من فمه ، يستعمل يده ، يتوقف أحيانا ، تكون هناك صعوبة فى التعبير عما يريد قوله ، يخبط على سور الجسر بكلوة يده ، يجهد نفسه فى البحث عن التعابير ، لابد وأن تكون كلماته واضحة لهم . انه يريد أن يوصل اليهم الاحساس الراعش بداخله ، ان يهزهم ، أن يدرك الرجال على الجسر باختصار ، معنى ما يحدث الآن فى بلدهم ، يعرفونه بشكل واضح دونما اشاعات .

ـ شوفوا يا رجالة .

يقترب منه الرجال ، يضع بعضهم يده بجوار اذنه اليمنى ، تصل اليهم الكلمات ، تسقط العبارات فوق حبات القلوب .

ـ باختصار ، حا يحصل تحول كبير فى حياتكم .
الرجال يتذكرون الآن ان حياتهم عجفاء ، يتذوقون من جديد معنى الفقر ، يتذكر الرجال ، ان هناك احلاما كثيرة ، فى حياتهم . تخلوا عنها ، بعد أن أدركوا استحالة تحقيقها . وقال كل منهم لنفسه ، انه لم يعش حياته كما كان يريد ، وانه مظلوم ، وانه لو مات الليلة أو الغد ، لمات مظلوما ، والظلم مر المذاق . ان المواجع والجراح القديمة ، التى ما زالت طرية ، نبشت الآن بحديث المهندس ، واستيقظت الآلام فى نفوسهم . وفى قيعان عقولهم ، استقرت معانى كلمات المهندس ، مجردة ، غريبة عنهم . معزولة عن باقى مكونات حياتهم . انها تصل اليهم ككلمات الراديو ، والفاظ الافندية ، وتطفو على السطح ، تعوم ، تصطدم بالاحزان الدافئة ، وتترقرق فى نفوسهم رؤى مستقطره من الليل، والترعة والحقول الفسيحة .
ـ كل اللى باطلبه منكم ..
يقول المهندس :
ـ انكم تحطوا ايديكم فى ايديه ، واحنا حانفير كل حاجة فى البلد .
طرقعات شباشب النساء على بلاط الجسر ، غبار فضى يلف البلد والحقول ، خرير المياه يترقرق تحت الجسر هادئا ، يستقر الظلام الليلى فى قيعان الحارات والبيوت والحقول والترعة وقلوب الرجال . وفى الصدور ، الهمسات المرتجفة ، الكلمات المعلقة على الشفاة ، البسمات المترددة الخجول . الرجال ، يمرغون عقولهم البسيطة على أرض الجسر، يرتعشون ، يهيمون مع كلمات المهندس، فى العالم الكثير الذى لم يعرفونه بعد ، وسيقوم الرجال برحلتهم الاخيرة ، دون أن يعلموا الكثير ، ويدور شىء ما فى عقولهم ، يتكور ، تتحدد ملامحه ، ويرتفع من داخل النفوس صدأ ، غبار شفيف ، دخان أزرق ، رائحة احتراق . وتجوس فى قلوب الرجال ، يد المهندس ولسانه ، تدهمها ، تفتتها ، وتسح فى الاعماق من الرجال ، نقاط دم حمراء قانية .
ـ أنا أثق فيكم الى ابعد الحدود ، أرجوكم أن تبادلونى نفس الشعور .
الرجال يعيشون ، عواطف الناس وهى تتحول الى الشكل الآخر ، حيث يذوب الاسى مع مرور الايام ، وتبهت حلاوة الافراح

وشكلها ، ويتبخر الغضب فى الصدور . الرجال يشعرون ان هذا المهندس الشاب ، شيء جديد بالنسبة لبلدهم . الرجال يستمعون الى كلام المهندس ، والظلام قد حل ، وهم يواجهون انفسهم للمرة الاولى عارية من الفة الحياة اليومية . الارض ، العمدة ، بنك التسليف الزراعى ، الخفير ، المدرسة ، الشيخ محمود والجامع ، الحقول البعيدة ، المواشى ، أجهزة الراديو ، العالم الكبير . انهم يحاولون أن يفهموا ما يقوله المهندس ، والمهندس يقول لهم كلمات تسقط على جدار الاذن الخارجى ، حلوة شهية ، المجتمع الصناعى ، المرتب أول كل شهر ، المسكن النظيف ، التأمين الصحى ، الشوارع الواسعة ، المساكن الشعبية ، دور السينما ، الملاهى . كلمات المهندس أجنحة يطيرون بها فى الليل الهادىء فوق البلد ، يتذكر الرجال ، دونما سبب واضح ، اقرباءهم ، ابناء السوالم الذين ضاقت بهم الحياة فهاجروا ، حملوا متاعهم وسافروا . ويوم السفر ، ارتفعت الايادى تقول وداعا ، وعادوا بعد سنين ، يحشرون أجسادهم التى امتلأت فجأة ، فى حال نظيفة ، ويلفون حول سواعدهم الخشنة ساعات تضىء فى الليل، لقد حلق بعضهم شاربه ، ووضع البعض الآخر نظارة فوق عينيه ، مثل نظارة المهندس . وقال البعض ، بعد أن حلف بتربة من مات ومقام سيدنا الغريب ، أن ثمن النظارة خمسة عشر جنيها بالتمام والكمال .

حلم الرجال بحياة البنادر ، وانتشر فى صدورهم تصور لها . الشوارع المضاءة ، المقاهى المزدحمة بالرجال ، السيارات ، النساء الرائعة ، المجال المزدحمة ، العمارات العالية ، الاشجار المطلية بألوان زاهية ، النقود الكثيرة فى الايادى . يقول لهم المهندس كلاما عن العدل والانصاف ، والحاكم والمحكوم ، يقول لهم ، أن ما يطلبونه ممكن التحقيق ، وانه مطمئن الى مشروعه ، وان الايام القريبة القادمة ، التى تقع خلف الافق ، تحمل لهم الخير ، وان عليهم جميعا أن يستعدوا من الآن للحياة المقبلة ، وان يودعوا الحياة التى يعيشونها الآن .

بعد فترة صمت ، راح المهندس ، يصف شكل حياتهم ، بعد سنتين من هذه اللحظة ، ويعدد اسماء الوظائف ، ويقترح اسما جديدا لبلدهم ، ويحاول أن يحدد مكان المصنع والمساكن ومكان دار السينما والمسرح ونقابة العمال والميدان العام والحديقة

الواسعة . المهندس يتكلم . وهو مشتعل بحرارة داخليـة . انه يرتفع ، ويرتفع . يحاول ان يطل من جلسته ، رغم الظلام . على الايام القادمة .

— اللي حا يحصل هنا يا رجالة ، حايكون معجزة . فاهمين . انا باكرر كلامي للمرة العاشرة : معجزة ، واصر . على ان اللي حا يحصل معجزة نادرة .

ينظر الرجال ناحيـة فتحى سالم ؛ وبعضهم قد استراح فى جلسته ، ووضع يده على خده . ان نسمة هواء ليلية تهب على الرجال ، فتغســل الهواء من كل الاكاذيب ، وتستريح الـكلمات فى النفوس ، تستقر فى الاعماق، آخذة أشكالا مبهمة داخل الرجال.

— شوف يا باشمهندس ، كلامك دا احنا عارفينه كله ..

تخرج الـكلمات من فم فتحى سالم ؛ كلمات تعمد هو أن تكون غريبة ونادرة الاستعمال . قال كلاما كثيرا ، لم يدر السبب فى قوله ، كان يشعر ان فكيه يتحركان ، يتقابلان ، يبتعدان فى بطء وبحركة آلية ؛ يطحنان الـكلمات طحنا قبل أن تخرج من فمه . يقول فتحى سالم ؛ انه لا يتحدث عن نفســه ؛ ولـكنه يتحدث بلسان الرجال البسطاء أهــــل بلده ، وان تلك هى مسئوليته الخاصة ، وانه لن يتنازل عن هذه المسئولية . ويقول عن نفسه كلاما فى شكل الليل .

— دى بلدنا احنا ، ولازم نقول راينا فى كل حاجة هنا .

فتحى سالم يكمل حديثه ، والمهندس يوافقه على ما يقوله ، ان ما يفعله انما هو لمصلحة البلد ، وهو مســـــتعد فى نهاية الامر للحساب . وانه يطلب من الناس النصيحة والمشاركة ، فهو فى عمر أبنائهم .

يقف المهندس ، فيقف الرجال من حوله ، يصافحهم ، يطلب منهم الدعاء له بالتوفيق ، بعد كل صلاة .

— عن اذنكو يا جماعة ..

يذوب المهندس ومعه حب الدين فى الظلام . الرجال يفيقون من سكر الـكلمات ، لقد أصبحوا جزءا من الليل ، يبدون ثملين مثله ، وملامح وجوههم تسيل ليونة .

بعد ذهاب المهنـدس ، تكلم فتحى سالم كثيرا ، استمع اليه الرجال ، غير ان قلوبهم كانت مع المهندس . واسترخت الكلمات ،

واستطالت مساحات الصمت فى كلام الرجال ، وكان لهواء الليلى يحمل للرجال موالا حزينا . فى الموال ، حديث عن البسالة وعتاب على الايام والليالى ، يقوم الرجال ، فيكتشفون أن ملابسهم مبتلة بطل الليل .

ـ تصبحوا على خير ..

يتواعد الرجال على لقاء جديد على الجسر أو فى عشة سلسبيله

ـ وانتم من أهل الخير ..

يسير الرجال فى الحوارى ، يدركون ، خلال السير ، ان الجنون معناه الوحيد ، ان يديروا ظهورهم لهذه المعجزة . لم يكن هناك ما يستحق الابقاء عليه فى بلدهم . لقد تحولت شفقتهم على وردانى وارضه ، الى نوع من الحسد له ، لقد تمنى كل منهم ، ان يكون هذا النصف فدان من نصيبه هو . فتحى سالم يسير بمفرده متجها الى داره ، شابكا يديه خلف ظهره ، واضعا الجريدة بين أصابع يديه ، مفكرا فى كل ما يحدث . انه يقرر ، ان هناك أمرا ما لابد من ادراكه ، لابد من فهمه والامساك به ، يرفض أن يعترف بهزيمته ، انه يعيش من جديد ، أيامه فى مدرسة انصارى سمك الاعدادية بالضهرية ، ويقول لنفسه ، انه يكره هذا المهندس، وتتناثر الاحلام ، تتعرى ، وتبدو له الحياة بشكل كالح اتوجه . اخترق الحوارى ، صعد معها ، ثم بدأ فى النزول مرة أخرى . أسلمته الحارة الى الشارع الرئيسى للبلد . وفى الشارع الرئيسى، بدأ سيره متجها الى الناحية القبلية . فى حجرته الصغيرة ، خلع جلبابه ، علقه على مسمار فى حائط حجرة نومه ، ارتدى جلبابا قديما ، نام على جنبه الايمن ، فرد قدميه على آخرهما . تذكر كل ما تحمله له جريدة الصباح ، وكل ما سيحدث فى البلد ، فأدرك انه ضئيل . اغمض عينيه ، شبك يديه ، وضعهما فوق صدره . صفت الامور فى ذهنه ، تناهى اليه ، صوت حركة متأنيه يأتى من الشجرة العجوز ، الواقفة أمام باب منزلهم ، حركة تدل على الارتياح ، وتتناسب مع عمر الشجرة العجوز . فتحى سالم يشعر ان هناك نسمة هواء خفيفة ، تهب من ناحية الجنوب .

ووسط هذا الصفاء الليلى ، كان فتحى سالم يدرك ، أن أيامه مليئة بالجراح .

جميع المخاوف تتحقق فى نهاية الامر .

ورداني يشعر ان الحكاية قد سارت على غير ما يجب المهندس هو الحكومة . هكذا فهم ورداني ، ولا بد من تسليم الارض ، النصف فدان بكامله فى الصباح ، فخير له ان يستلمه بنفسه ، بدلا من أن يؤخذ غصبا عنه .

ـ انا كان قلبى حاسس من الاول .

يتذكر ورداني ، انه عند حضور المهندس للسوالم ، أول مرة ، رفت عيناه ، وانه من يومها ، وهو غير مستريح للموضوع كله . ورداني ، رغم ما حدث ، لم يقر بهزيمته ، لا يتصور انه سيترك أرضه للغرباء تواجه الرجال ، يفعلون بها ما يشاءون .

فى دوار العمدة جلس على المصطبة ينتظر حضوره . وعندما دخل عليه العمدة ، وقف ، سلم عليه ، سأله عن الحال ، طلب له طول العمر والصحة والعافية ، قال له : انت والد الجميع ، والدنا كلنا ، وليس لنا أحد غيرك . ومن لنا نذهب اليه ، اذا حدث لأى منا حادث . وقف العمدة ، طلب منه بحروف متآكلة ، أن يخلى أرضه ويسلمها للمهندس . قال له العمدة ، انه ليس فى مقدوره أن يفعل له اى شيء ، وان الامور اكبر مما يتصور أهالى البلد .

ـ حتى انت يابا الحاج ..

قال ورداني : مستحيل ، الارض ليست مؤجرة وهو يضع يده عليها . نزع الملكية ممنوع . العمدة لم يتركه يكمل حديثه ، أفهمه ان الحكومة تريد هذا ، لايوجد فى السوالم أو ، المركز ، من يستطيع الوقوف فى وجه المهندس ، خير لورداني أن يسلمها برضاه . والمصيبة قد حلت بالبلد كلها ، وليست بورداني بمفرده .

ـ بس ياحضرة العمدة ..

ـ ولا بس ولا حاجة ..

لم يكمل ، قال له العمدة : ارادة ربنا ، قضاء أخف من قضاء ، وانه يقدر ظروفه ، وسيحاول أن يستأجر له أرضا بدلا منها . قال له : الله الذى خلقه ، وخلق أولاده ، وفتح لهم فى منتصف

وجوههم افواها واسعة ، تأكل الزلط ، لا يمكن أن ينسى هـذه الافواه ، مهما قل الخير . العمدة يطلب من ورداني ، ومن أهالى البلد ، ومن امام المسجد ، أن يدعوا الله فى كل وقت من الاوقات ان تنتهى هذه المصيبة على خير .

ــ خلاص يا ورداني ، بكرة الصبح تسلم .

ــ حاضر ياحضرة العمدة ، امرك ..

ــ لنا رب اسمه الـكريم ..

يذكر ورداني ، انه عندما قال له حب الدين ، منذ يومين ، ان ارضه قد تؤجر منه للشركة ، انه سعل ، شـق صـدره سعال جاف ، واسرع ، احضر ورقة بيضاء وبصق عليها ، كان البصـاق أبيض اللون فاطمانت نفسه . انه الآن ، وهو يقف أمام العمدة ، يشعر برغبة فى السعال ، صدره يهبط ، والقفص الخارجى له يكاد ينكسر، وضلوعه يشقها ألم حاد، الرغبة فى السعال تعاوده ، كتمها فى نفسه ، رفع يده ، وضعها على فمه ، وراح يستمع الى حديث العمدة عن التسليم والاذعان والاعتماد على الله .

ورداني يخرج من دوار العمدة ، يقف أمام الدوار . الوقت هو المساء ، وأمام عينيه ، يتسلم الخفر البنادق الميزر الصدئة . هدوء ساعة الغسق المبتل بالنعاس يلف البلد بداخله . سار فى حوارى البلد ، كان يفكر ، ان كان فى باطن أرضه بئر بترول فعلا ، فهى ارض خائنة . انها أرضه ، يزرعها منذ سنوات لايعرف عددها ، ويدرك انه لا يوجد شيء ما فى باطنها . فى باطن الارض طين أسمر وخصوبة ، وجذور نباتات عالية ، وسر لاسرار الذى لن تبوح به لاحد فى يوم من الايام .

ورداني يسير ، يحمـل عناد الريف وقلقه وصبره فى أعماقه ، وهو يضع كرامته فوق جبهته مثل طاقيته التى يلبسها . ورداني يشعر ، لاول مرة فى حياته ، انه بمفرده . وان السوالم كلها قد تخلت عنه ، ورغم التصميم والعناد ، فهو يشعر بشعور غامض يضطرب فى نفسـه ، انه ذلك الشـعور الذى يضطرب فى نفوس المؤمنين بالقضاء ، والقدر المـكتوب ، القدر الذى لا حيلة لاحد فى رده ، والذى لا نستطيع منه فكاكا .

عليه بمفرده ، أن يفكر ، أن يحال الامور الهشة فى ذهنه ، ما يحدث له ، لم يسبق ان حدث من قبل ، عقله يدور ، فى أشياء قد تكون بعيدة عن الموضوع الرئيسى ، يتمهل فى سـيره ، يلف

يديه خلف ظهره ، يمسك بهما ذيل جلبابه ، يحني رأسه ، يتفرس في الارض من تحته ، لا يلقي السلام على الرجال ، يتفادى في سيره روث البهائم ، ونقر المياه وكميات التراب التي تملأ الحارات.
يصل منزله ، يقف على الباب ، تطالعه خدوة حمار قديمة ، بصلة جافة ، قطعة من شجرة صبار يابسة ، لا يذكر متى علقها .
يدخل منزله .

— فيه ايه يا ورداني ؟ ..

لا يرد ، يدخل على أولاده ، يجلس بينهم ، تضع زوجته الطبلية أمامه ، يجلس حوله أولاده الاربعة ، تحضر زوجته الطعام ، طعام كل ليلة . وفي بعض الليالي ، وما أقلها ، يكون هنا في البيت طبيخ ، شيء ما أرسله هو من الحقل . ملوخية أو بامية ، وفي أيام نادرة ، قد يكون هنا دجاج ، أو لحم اشتراه من الجزار ، وقد يحدث أحيانا ، أن يعود من الحقل ، فيجد زوجته قد ذبحت دجاجة أو أرانب ، وفي هذه المناسبات ، فان ورداني يدرك سبب الوليمة ، ان شوطة مرض ، فتك بالدجاج فقامت زوجته بسرعة وارسلت في طلب الشيخ محمود ، أو المعلم سيد الجزار ، كي يذبح لها ما أمكن انقاذه من الموت .

ورداني يجلس على الطبلية ، يمضغ خبز أيامه الجافة . وفي ئل مساء ، توضع الارغفة أمامه على الطبلية ، ارغفة سمراء صغيرة ، محروقة من المنتصف ، وخلال الاكل ، تختفي الارغفة بسرعة ، لدرجة ان ورداني اعتقد ، ان هناك أيادي غير أيادي أولاده ، تأكل معه ، وعندما سأل الشيخ محمود عن السر ، حوقل وبسمل ، وقرأ آيات من كتاب الله الكريم .

— أيوه ياسيدى ، هيه المسألة دى فيها قولان ؟ ..

قال له : انه جائز أن تكون هناك أرواح هائمة على وجهها ، مسافرة في الزمان أبدا ، باذن منه سبحانه وتعالى ، انهم أبناء الرياح ، زادها هو طعام الناس أينما وجدوه ، انها ترانا ، ولكننا لحكمة من الله لا نراها ، بل لقد أوصاه الشيخ محمود ، هامسا ، انه لو وقعت منه ، خلال الاكل ، على الارض ، لقمه وغموس ، فلا بد أن يتركه كما هو لاخواننا في الله ، سكان الارض .

ورداني لا يكلم أولاده ، ويقسم لزوجته ، بالطلاق ثلاثة ، شافعي ومالكي وأبي حنيفة ، انه يجري عليها وعلى نفسه وعلى أولاده الاربعة ، واناس آخرين لايعرفهم أحد ما ، وربنا يقدره على هذا

الحمل الثقيل . من بعدها ، حرص وردانى كل ليلة ، خاصة فى الليالى الكريمة ، أن يترك على الطبلية مكانا خاليا لهم ، أبناء وأولاد الارض ، كى يجلسوا فيه ، يأكلون معه ، ويباركون الحقل والمنزل والمواشى ومستقبل الاولاد الصغار . وردانى يحتوي زوجته وأولاده بنظرة حانية ، مسترخية ، ويواصل ببطء ، ودونما رغبة مضغ طعامه .

ـ ويمكن يكونوا زعلوا من حاجة ..

قالها وردانى لنفسه ، ثم قال على الفور :

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

كان الشيخ محمود قد أفهمه ، أن يرد السلام كاملا ، كلما تذكرهم ، انهم اخواننا فى محبة الله ، ومعنى أن يردوا على الخاطر ، انهم يمرون علينا فى نفس اللحظة ، وانهم القوا تحية الاسلام ، ولا بد من الرد عليهم . عند هذا الحد ، استراح وردانى ، قرر أن يسأل الشيخ محمود ما يراه ، بعد صلاة العشاء فى مسجد سيدى الفريب .

قال وردانى .

ـ مطلوب منى أسلم الارض ، ما اقدرش على الحكومة من ناحية ، وما اقدرش اعيش من غير الارض من ناحية ثانية ، البلد خانتنى ، الحكاية بقت مرة خالص يامولانا . فى الدار خمسة عايزين يأكلوا ويلبسوا . وبكره الصبح لازم ..

طرح المسألة على الشيخ محمود ، طلب منه أن يدله بما يراه صالحا . صمت الشيخ محمود ، وراح وردانى ينظر الى شفتيه المزمومتين ، ووجهه الذى لا ينطلق بأى شىء ، بعيون مشربة بالاسى والخوف المبهم من المجهول .

ـ ويخلق ما لا تعلمون .

ردد الشيخ محمود ، آيات من القرآن ، نطقها ببطء ، ويده تدور مع حبات المسبحة ، غير انه لم يقل أى شىء عن المهندس والارض . فجأة ، قام الشيخ محمود ، ترك وردانى فى صحن الجامع ، دخل مقام سيدى الفريب ، وغاب فيه . وقف وردانى محتارا فى صحن الجامع ، ثم ركب مداسه وخرج . فى الطريق ، فتح له الظلام صدره الرحيب ، فغاب فيه .

وردانى ممدد على ظهره ، ينظر الى سقف الحجرة الواطىء ، يفكر فى حقله ، الحديد المغروس فى الارض ، يحده من الجهات

الاربع ، اثنا عشر قيراطا من الارض ، فى الحوض البحرى، القناة الصغيرة التي ترويه ، تقسم الحقل نصفين ، بحريها ستة قراريط وقبليها ستة قراريط . الساقية التى بناها هناك ، مشتركا مع اصحاب الارض الآخرين ، والرى منها بالدور ، حسب نظام متفق عليه فيما بينهم ، شجرة التوت ، ظلالها المتآكلة الاطراف ساعة القيلولة ، ظلال القمر الراقدة تحت اقدام الشجر طول الليل ، رائحة الارض بعد اختمارها بالمياه ، الشقوق الواسعة فيها عندما تكون شراقى . فكر وردانى فى صورة حقله ساعة الغسق، عندما تذوب ملامحه وسط غبشة المساء الرمادية ، فتبهت معالمه ، وتتلاشى حدوده ، وتتحول خضرته الزاهية ، الى خضرة رصاصية داكنة اللون .

فى مستشفى المركز ، كتب له الطبيب روشتة العلاج ، قال له ان هذا الدواء ثمنه خمسة جنيهات ، وعليه ان يكرره ، لمدة سنة على الاقل ، مع الراحة التامة فى السرير ، ونظام معين فى الاكل ، صدر دجاجة فى الغداء ، شوربة خضار فى العشاء ، لبن حليب وبيض فى الفطار ، وسيأتيه الشفاء باذن الله ، أما الحجز فى المستشفى فلن يأتى بنتيجة . أخذ وردانى الروشتة من الطبيب شكره . قال : انه سيحضر العلاج ، وسينفذ تعليماته ، وخرج من المستشفى . دارت كلمات الطبيب فى ذهنه ، فضحك ، تذكر انه كان يسمع فى أيام الشباب الاولى، «مغنى قديم»، يتحدث عن رجل مريض ، يشكو طول الليل ، انه عليل ، دواؤه موجود فى كل مكان تحت رموش عين الحبيب ، فى بلاد قريبة ، غير ان الطبيب لم يأمر بصرفه له ، فتحسر على أيام زمان السخية فى كل شيء .

وردانى فى نومته يحاول ان يتصور ما سيحدث لارضه فى الصباح. المهندس نزع الارض منه ، الحفر، قلب باطن الارض علها تجود بالسر ، تسليم الارض ، الارض والعرض ، زوجته واولاده. استدار على جنبه الايمن ، شبك يديه ووضعهما تحت راسه ، وتنهد ، لقد شعر بضيق فى صدره .

ـ صدرى حاينقفل بابت ، وحاتبقى ليلة سودا .

وردانى يخاف أن تأتيه الازمة ، فيوقظ زوجته واولاده ، ويطلب منها حبة دواء ، فتقوم وفى عينيها بقايا نوم، وتحضر جلابيتها السوداء، من فوق المسمار ، ومن جيبها الداخلى تفك منديلها ، تخرج من داخله قروشا قليلة ، باعت بها بيضا فى سوق الخميس ، ثم

تخرج ، وهى تفرك عينيها ، وفوق راسـها لمبة جاز ، وفى يدها قروش تحرص عليها اكثر من حرصها على الحياة ، كى توقظ المعلم معقوب من نومه ، تشترى منه حبة دواء لا اسم لها ، حبه واحدة لا تعرف لها شكلا ، المهم انها تريح وردانى وتفتح صدره .

وردانى يفرد قدميه على آخرهما ، تصطدمان بعدة الشـاى فى آخر الحجرة ، ثنى أصابع قدميه ، قال لنفسـه :

ــ بكره يحلها من لا يغفل ولا ينام ..

وكانت عيناه تلمعان فى ظلام الحجرة ..

يجد الرجال فى الحقول والنباتات والبلد ، وفى انفسهم ، صراحه الاشياء الاولى ، ورغم ان الحياة بالنسبة لهم يوما واحدا ، يجترونه ويعيشونه بلا نهاية ، فان عيونهم المتعبة ، تعجن الاتساع الحقولى وزرقة السماء ، وخضرة النباتات بنظراتها ، وترصد التغييرات التى تطرأ على جلد الطبيعة ، ويبدو للعيون أحيانا ، ان التغييرات التى تحدث ، انما هى وعد غير مكتوب بسعادة جديدة ، فداء عن الصبر الطويل ، وتبقى العيون والآذان والقلوب ، تسجل ما يحدث . شهر أكتوبر من كل عام .

١ ـ انخفاض مستوى المياه فى ترعة ساحل مرقص ، ثم جفافها ويبدو القاع عاريا ، مليئا برمم الحيوانات الميتة ، والنباتات الصغيرة وقد تراكمت عليها القاذورات والسمك الميت . وعندما يشاهد أهل السوالم منظر الترعة بعد الجفاف ، يموت فى نفوسهم كل عام شكل الترعة الممتلئة بالمياه ، وجمالها فى الليل .

٢ ـ قصر النهار ، يتحول الى ومضة قصيرة ، فركة كعب ، تعبر الشمس السماء الواسعة فى لمح البصر ، وتطول مساحة الليل ، فيضحى وعدا بسهرات طويلة ، تحكى فيها الحكايا ؛ وتهمس النساء فى الصباح ، وهن يملأن الجرار من الحمام ، بما حدث فى الليلة السابقة ، وتتغنى امرأة منهن بجمال ليل الشتاء وطوله .

٣ ـ تساقط الاوراق من فوق الاشجار ، تاركة الفروع عارية مذكرة الانسان بدورالحياة ، الخصب والخضرة والنماء ثم الذبول . وعلى الارض ، تحت الاشجار ، تتناثر الاوراق الجافة ، فتغطى مساحات الظل .

٤ ـ هجرة الطيور . ان الطيور فى مثل هذه الايام ، من كل عام ، تهاجر الى مواطنها الشتوية . الانسان يبقى مرتبطا بالارض والبيوت ، مسجلا تحول الحياة والارض ، مع قدوم الشتاء ، وباحثا عن بوادر الربيع قبل الاوان .

انه الخريف ؛ خريف هذا العام يحمل معه شيئا لم يروه من قبل .

الخيام المنصوبة فى ارض الوقف . ما ان يمر احـد من اهالى البـلد على ارض الوقف ، حتى يتوقف أمام الخيام ، يحاول ان يقترب منهـا ، لا يعـاود السير فى طريقـه ، الا بعـد ان يرى أى شيء من داخـل الخيـام . أهالى البـلد ، يشـاهدون فى الخيـام دلائل وجود حيـاة ، غسيـل منشور على حبال ، مياه مدلوقة على الارض ، فوقها فقاعات صابون ، أعقاب سجائر وبقايا عيدان كبريت محترق ، أوراق ممزقة ، وفى لحظة الغسق ، كانوا يشمون رائحة السمن المحروق ، وكانوا يسمعون صـوت طشيش التقلية ، ومن خلال منـافذ الخيام ، كان يخرج دخان ازرق ، دائرة اهتمام الناس مركزة فى الخيام بمن فيها من الناس ، وما يحدث بداخلها ، يقسم الـكل على ان احـــدا من اهالى السوالم ، لم يدخل الخيام ، ويقول الناس ، ان حب الدين يوصل المهندس حتى باب الخيمة ، هو الآخر لم يدخلها . المهندس هو موضوع اهتمام النـاس ، مرتبطـا به البترول والحياة الجديدة والامانى والوعود . وقد يهمل الناس موضوع المهندس ، عند مرور بعضهم على الخيام ، يتذكر الموضوع كله ، وما سـمعه عنه ؛ وتطفو على سطح نفسه ، أحلامه الخاصة وأمانيه . ذهب الرجال ذات مساء الى الشيخ محمود ، كان فى صحن الجامع ، جالسـا كما تعودوا أن يروه منذ أن ولدوا ، ويعتقد الـكل انهم سيموتون ويتركونه كما هو ، فى نفس المـكان ، ونفس الجلسة ، والمسبحة فى يده . ان أحداثا هامة تحدث للسوالم تزلزل أركانها ، تؤثر على من فيها ، تهز أعتى الرجال ، انها تصـل الشيخ محمود . ذهبوا اليه ، حملوا حيرتهم وتساؤلاتهم ، جلسوا حوله ، نصف دائرة ، حكوا له ما حدث ، تكلم أبو السعود ، أوجز أحيـانا ، توقف أمام بعض الامور طويلا ، وكان الرجال يوافقونه على كل ما يحكيه .

ـ آدى الحكاية ياسيدنا ، من طقطق ، لسلامو عليكم .

اكمل بعضهم ، بكلمات بسيطة ، ما لم يقله أبو السـعود ، اعتذروا بأنه لا احد فيهم يستطيع الـكلام مثل ابو السـعود ، ولـكنهم أكملوا ما قاله . تكامل الموضوع أمام الشـيخ محمود ، صمت ، دارت حبـات المسبحة فى صعود وهبوط بين أصـابع الشيخ ، راح الـكل ينظر الى شفتيه .

ـ واطيعوا الله ، واطيعوا الرسول ، وأولى الامر منكم .

افهمه أحدهم ان ما يطلبونه هو مشورته .

ـ صدق الله العظيم .

انهم لايطلبون منه ، أن يقرأ الغيب ، أو يحاول معرفة ماسيحدث البلد ، قال أبو السعود ان حياة البلد كلها ، تتوقف على هـذا الموضوع ، ان هذا الرجل ، وأشار الى ورداني ، صاحب الارض والبئر ، انه صاحب أكبر أسهم فى الشركة . أما أنا ، وأشار الى نفسه ، أنا أبو السعود ، منادي البلد ، وقارىء الكف ، وحامل أخبار الرجال والنساء ، سأكون رئيس العنابر الداخلية فى الشركة . للوم هو المدير العام ، مدير شئون العاملين بالشركة . حب الدين ، نائب رئيس مجلس الادارة . الادارة العمومية ، التى لايعرف أحد أين سيكون مكانها ، مصر أو ايتاى البارود ، أو السوالم . فتحى سالم عضو مجلس الادارة المنتدب ، سأقدم تقريرا كل يوم ، عن سير الامور فى العنابر الداخلية ، قال أبو السعود ، انه ضمن مشروعاتهم ، أن يبنوا مسجدا كبيرا ، من دورين ، دور للرجال وهو الارضى ، والدور الثانى للنساء ، العمل فى هـذا المسجد سيكون بمرتب كبير ، وسيبطل انعمل بالمسائية ، وسيضاء المسجد بالنور بدلا من الفانوس القديم ، ستكون صلاة الفجر بلا متاعب الظلام . صمت الرجال ، فى العيون وهج رائع ، احساس طازج ، أعادوا السؤال على الشيخ محمود . وبعد فترة صمت ، قال لهم الشيخ محمود :

ـ لا يعلم الغيب الا الله .

شعر الرجال انهم عاجزون عن الفهم ، وبأنه تفصلهم عما يقولونه مسافات طويلة ، سنوات لا نهاية لها ، يبتلعون فيها الأميال الطوال ، بحثا عن أرض جديدة . قام الرجال . فى مقام سيدى الغريب ، مروا بأيديهم على سترة المقام الخضراء ، قبلوا اياديهم ، مسحوا بأنفهم على وجوههم ، كان على السترة الخضراء كلام مكتوب باللون الابيض ، الرجال لا يعرفون القراءة أو الكتابة ، غير انهم يعرفون ان المدون على هذه السترة ، هو : الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . وأمام المقام ، فى حضرة سيدنا الغريب ، تذكر كل منهم أمنياته ، عاشها من جديد ، أطل من خلالها على ايامه القادمة . وفى صحن الجامع ، كانت تصرخ فى وجوههم ، كتابات قديمة ، على الجدران ، حروف متآكلة ، تتحدث عن الذى لن يحضر ابدا والذى يأتى ولايأتى ، وعن البر والتقوى ، والخوف والشجاعة ، وماقاله الخضر لموسى ، من انه لن يطيق معه صبرا ،

وفى كثر من موضع . كان هناك كلام عن الصبر .

فى الشارع الرئيسى ، شعروا بالاستخفاف ، بأنهم يطيرون فى الافق البعيد . ومن خلال الصمت ، بدأوا يضحكون ، ضحكات موشاة بالسرور المفاجيء . انهم ينادون أنفسهم بوظائفهم الجديدة، واهالى البلد ينظرون اليهم ، ويقول البعض . انهم أصابهم مس وان المهندس ضحك عليهم .

ـ لا حول ولا قوة الا بالله .

قالوا : آخر زمن ، السوالم سترى ما هو أكثر ، طالما ان المهندس يعيش فيها . الرجال يسيرون فى الشوارع ، يقولون النكات ، يفرقع بعضهم بأصابعه فى الهواء تعبيرا عن السرور، تخرج من أفواههم ضحكات صافية ، مكتملة الخلقة . لقد اكتشفوا ان الامور أصبحت لا تطاق ، ودوام الحال من المحال ، استمرارهم يعنى أن يموت الكل ، المهندس أتى فى الوقت المناسب ، واكتشفوا انهم كانوا سذجا ، لقد رضوا بما قسم لهم فى الايام الماضية ، وتساءل كل منهم : كيف كانت تسير الأمور من قبل ، واستعدوا لتقبل التغيير الجديد فى حياتهم .

على الجسر ، فى المساء جلسوا ، لعبوا السيجة ، تكلموا ، أسكرتهم الكلمات . فتمايلت الرءوس ، وتحركت الالسن فى الافواه بصعوبة ، وارتفعت الايادى بتثاقل . قال حب الدين ، انه سيذهب الى دمنهور فى الاسبوع القادم ، ومن السوق العامة ، سيشترى قماش بدلة ، انه يفضل اللون الرمادى أو الازرق، على أن يكون القماش سادة ، فهو لن يرتدى الجلباب بعد اليوم ، الجلباب لا يصلح الا للنوم أو الجلوس فى المنزل فى الامسيات . حب الدين يقول لهم : انه لا يتصور كيف كان يرضى من قبل بلبس الجلباب . قال وردانى : لن أبيع الارض للشركة مهما حدث ، سأظل مالكها الوحيد ، وسيأخذ نسبة من ثمن البترول ، وبالنقود ، سيفعل كل ما يتمناه ، يبنى بيتا ، يفتح مشروعا كبيرا، يشترى سيارة ، فلا احد يضمن ما تأتى به الايام .

ـ الموضوع دا من اختصاص القضاء ، تؤجر أو تبيع ، فيه جهات مختصة .

المتحدث هو حب الدين ، ووردانى ثار ، هاج وماج ، وسخر من مسألة التخصصات (وأن لم يكن قد فهمها) . المسألة واضحة ، الارض أرضه وهو حر فيها ، توقف وردانى ، نبه الجميع الى

حقيقة ، يجب الا ينساها أحد، لقد سلم الارض بمزاجه للمهندس، وكان يملك الا يسلمها ، وبذلك يتوقف المشروع ، ولكنه تنازل عن أرضه فى سبيل مصلحة البلد . انه يذيع سرا فى هذه اللحظة ، لم يكن يحب أن يقوله ، الرجال ليسوا غرباء ، قال له العمدة يومها ، انه حر ، الارض أرضه ، وله أن يفعل ما يراه . قاطعه للوم ، طلب من حب الدين أن يبحث له عن شاب متعلم ، كى يعمل معه فى مكتبه الجديد ، ظروف العمل تغيرت ، سيفتح مكتبا فى منزله بصفة مؤقتة ، فالشركة ستبنى له مكتبا فخما ، يقول اللوم : انه شاهد مكان مكتبه بالامس على الخارطة مع المهندس .

انهم يجلسون ، قالوا لانفسهم ، ان شمل الحياة يجتمع من جديد فى السوالم ، سيعود الرجال الذين رحلوا لضيق ذات اليد، أو لعدم وجود عمل ، قال ابو السعود : انه لن يمر على البلد ، فى حواريها الصغيرة الملتوية ، وينادى بصوته الحيانى : « ياعباد الله ، الحاضر يعلن الغايب » لن يجتمع حوله الصبية والاطفال ، ويتكاثر الصغار حوله كلما مر بحارة جديدة ، سيكتب ما يريد ابلاغه للناس ، على ورق ابيض ، ينطلق به صبية ، أو يعلق على لوحة فى مكان عام ، كى يقرأه الناس .

— ما هى كل النـاس ، حتى النسوان ، لازم يعرفوا القراية والكتابة ، امال حا نفضل كدا على طول . مش ممكن ، المهندس قال كدا .

— امال ياعم ، والله وشفنا ايام حلوة .

ورداني يتصور ان ارضه قد باحت بسرها لرجل سواه ، انه المهندس عصمت ، يبتسم ورداني ، لا يصدق . سيذهب الى أرضه ، سينام هناك ، وفى الليـــل ، مستودع الاسرار والرؤى والاحلام ، سيعرف السر .

— والنبى دى الاشيا بقت معدن ..

همس لنفسه : انه يتذكر الايام الماضية ، كان يجلس فى عشة سلسبيلة ، الرجال من حوله يطلبون أدوار الشاى الثقيلة ، يدخنون المعسل ، غير ان ورداني كان يدور فى عقله شيء آخر : حساباته ، ما عليه ، ما معه ، النقود التى ينتظر الحصول عليها ، بعد شهر أو شهرين . فى اللحظة التى يأخذ فيها كوب الشاى ، أو يدس غابة الجوزة بين شفتيه ، يدرك معنى ذلك بالنسبة

لمصروفه ، قوت عيـاله ، ويدرك ان ذلك كثير ، ولـكن ما باليد حيله ..

الرجال يجلسون على الجسر، والليل قد حل ، انهم يرون مناظر لن يروها ويسمعون أمورا لن يسمعوها ، ويملـكون مكانا واسعا فى سماء الله العالية ، يفعلون فيه ما يشاءون ، دونما خوف. كان الليل مقبلا بالاشواق ، الليـل يطوى بداخله الحوارى والبيوت والناس ، زارعا فى النفوس الاحلام والامانى .

قال لهم فتحى سالم : ان هذه الحكاية ، قد حدثت من قبل . فى السوالم ، فى قديم الزمان ، منذ مائة سنة ، قراها فى الكتب ، أبدى الرجال دهشتهم ، أنصتوا اليه ، الحكاية لم تكن حكاية بئر بترول ، كانت حكاية أخرى عن السوالم . قاطعه أحدهم ، البئر والمهندس والبترول ليست حكاية ، انها حقيقة ، المهندس ليس حدوته تحكيها العجائز فى ليالى الشتاء المستطيلة الوجه الممطوطة اللحظات ، هو حياتهم ، وجودهم . قال فتحى سالم ، انه يطلب الفرصة فقط كى يتكلم ، ولا يجب أن يقاطعه احد . سكت الجميع فى السوالم ، غنوه حزينة ، تغنيها الصـبايا وقت الحصاد ، فى اتساع الحقول ، تحدى احداهن ، فتاة صغيرة وجميلة ، تسمى نفسها سلسبيله ، وترد عليها الباقيات ، يطلبون فيها من الشاطر حسن ، أن يركب حصانه ، ويجهز الزاد ، فهو على سـفر قد يطول ، وزاد المسافر ، خياله وعقله وقلبه المفعم جسارة ، ست الحسن والجمال ، محبوسة فى قصر ، فوق صـخرة ، الصخرة العالية ، بين مساحتين من الصحراء ، بحار لا نهائية من الرمال ، خرج الشاطر حسن ، سافر ، غير انه لم يعد ، انتظره الرجال والصغار والنسوة ، تعلقت خيـوط نظراتهم بخط الافق ، ولم يطالعهم وجهه الجميل أبدا ، دفنوا حكايته فى حبـات القلوب ، قال فتحى سالم ، ست الحسن والجمال هى السوالم نفسها ، الشاطر حسن ، كان أحلى أبنائها ، وانه كان مطلوب منه أن ينقذ بلده ، من خطر ما ، لا تذكره الاغنيـة القديمة ، وان الشـاطر حسن لم يعد من الصحراء الواسعة ، وقد يكون هناك حتى الآن، السوالم ما زالت حزينة عليه ، وهى تعيـش على أمل أن يعود اليها ، قال فتحى سالم ، انه لا يعرف لم ذكر هذه الحكاية ، وقال انه يفضل أن تنتظر ست الحسن والجمال عودة الشاطر حسن، انها ورجلها ، الفرح خيانة له حيث هو الآن ، الخيانة يا أهل

السوالم مرة المذاق على أطراف الالسن ، قال فتحى : ان كلمات الاغنية مكتوبة على الجدار الداخلى لبئر المياه المهجور ، خلف جامع سيدى الغريب ، وهي مكتوبة بدم الشاطر حسن ، وبخط كوفى جميل ، وانه قرأها فى صباه ، قال : اننا يجب أن ننتظر ، وأن ندون كل ما يحدث لنا ، على نفس الجدار الداخلى ، فنحن لا نعلم ما قد يحدث بعد ذلك . كبس على الرجال صمت غريب ، هل يعود الشاطر حسن ذات مساء . رجل كبير ، عملاق ، تساءل احدهم . هل ورد ذكر لهذه الحكاية فى الكتاب الذى الفه سيدنا الغريب ، لم يجب عليه احد ، قال فتحى سالم : ان الشاطر حسن الذى تنتظره السوالم كلها ، شاب كبير ، مفتول العضلات ، طول خطوته الف الف فدان ، تدوس قدمه على الارض فتهزها ، يرفع قامته فتنطح السماء ، رد حب الدين ، قال : ان الشاطر حسن ، هو النبى الذى تحدث عنه مولانا ، فى آخر صفحات كتابه ، وانه لابد وأن يحضر ، وانه لن يحزنه أن يعود فيجد بلده على أحسن حال ، الصمت يحوم فى الظلام ، وحب الدين يواصل كلامه ، الكلمات لا تقال بنفس الاندفاع الاول . الرجال فقدوا حماسهم ، وانشغلت الاذهان بما قاله فتحى سالم ، قال حب الدين لنفسه : ان عشته ستتحول الى كازينو ، مراهنات الرجال فى اللعب ، ستكون على أشياء كبيرة ، وقد يلعب الرجال الورق على الجسر ، وامامهم أكوام من النقود ذات الرائحة المحببة ، لن يطلب الرجل منهم كوب شاى واحد على الحساب شكك . قال حب الدين للرجال : انه يجب على كل أعزب أن يتزوج بعد عمل البئر ، وعلى كل رجل متزوج ، أن يتزوج مرة أخرى امرأة جديدة ، قال عن نفسه : انه سيتزوج بعد أسبوعين على الاكثر ، وانه لن يناسب الا أحد العمد ، وقد يتزوج مرة ثانية أو ثالثة على سنة الله ورسوله والمؤمنين .

— بس لما الباشمهندس يتجوز الاول ..

— بصحيح ..

قالوا : ان ليلة فرحه ، ستكون ليلة ولا كل الليالى . الرجال أيامها ، لن يعرفوا ، كيف ينفقون النقود . قال حب الدين ، انه سيزفه فى بيته الجديد ، سيخطب له أحلى بنات الناحية كلها ، وانه سيشعل السيجارة الاولى فى السهرة ، من ورقة بعشرة جنيهات كاملة . هبت عليهم نسمة هواء باردة ، وارتفع بخار

خريفى ابيض من الترعة تحتهم ، ذكرهم بأن الليل قد حل منذ وقت مضى ، قام الرجال ، وقبل أن يتركوا الجسر ، اشار لهم حب الدين ، أن يقتربوا منه ، كونوا دائرة صغيرة ، وهم وقوف لم يكن يبدو سوى بياض العيون يدور فى سرعة ، احسوا بدفء أنفاسهم ، ينزلق على الوجوه ، همس حب الدين لهم ، بصوت منخفض :

ــ كلام فى سركم ..

قال لهم : انه بعد افتتاح المشروع ، سيعاد انتخاب اعضاء لاتحاد الاشتراكى . وفى هذه الحالة ، سيتغير أكثر أعضائه ، انهم لن يخافوا احدا بعد ذلك . كل الامور ستتغير ، ان عمل العمدة وشيخ البلد وشيخ الخفر سيبطل . سيكون هنا ، مركز بوليس فيه ضابط كبير ورؤساء لقطاعات المدينة ، ستكون هنا مؤسسة للكهرباء ومرفق للمياه ومكتب للبريد وفروع لكل البنوك ومحطة خطوط اتوبيسات تصل السوالم بكل البلاد ، ومكتب تلغراف وتليفونات ، وستمتد خطوط القطارات حتى البلد . ونواد ومقاه نظيفة . قال لهم حب الدين : على كل منهم ، أن يشترى عفريته زرقاء جديدة ، بدله للشغل فى المصنع ، وأن يستخرج بطاقة شخصية أو عائلية ، مع استخراج شهادة ميلاد وتجهيز شهادة تأدية الخدمة العسكرية أو الاعفاء النهائى منها ، وبطاقة عضوية الاتحاد الاشتراكى وأن تكون الاشتراكات مسددة حتى آخر شهر ، والفيش والتشبيه . أحس الرجال ان وجودهم الذى لم يكن محددا من قبل ، سيتم حصره فى اوراق بيضاء ، مكتوب فيها معلومات غريبة ، من جهات بعيدة ، تحدد كل بيانات حياتهم . انهم يدركون ان كل شىء هنا ، كان محسوبا دون أن يدرى أحد ، قال لهم حب الدين : ان البلد بلدهم ، وانهم أولى الناس بالعمل فى هذا المشروع . قال لهم : ان عصمت أفندى ، سيساعدهم بنفسه ، وفى كل الجهات ، فى سبيل الحصول على الاوراق المطلوبة . هذا الكلام ، قال حب الدين ، لا يصح ان يعرفه أحد غيرهم ، حتى ولا زوجاتهم فى المنازل .

أحس الرجال بدوار فى رءوسهم ، طعم الحياة يتغير فى مذاق كل منهم ، والتغيير الذى يوشك أن يحدث لهم ، نادر الحدوث . تواعدوا على اللقاء ، بعد صلاة العشاء فى عشة سكر ، ثم تفرقوا . حب الدين يسير فى حوارى البلد ، طريقه الى خيام الغرباء ،

يفكر فى سيره البطىء فى سلسبيله ، يدرك أنها آخر ما تبقى له .
شعر بشوق جارف لها ، احس بالحنين الى بسمتها الصافية ،
فكر فى أن يغير طريقه ويعود اليها ، قال لنفسه : ان الله قد
جزاهم خيرا على صبرهم الطويل ، وقال ان وجه سلسبيله ، كان
خيرا على السوالم كلها . الهواء يداعب وجه حب الدين وهو يسير
فى حوارى السوالم ، انه يشعر برغبة فى الفناء ، ويجيش فى
وجدانه موال قديم ، يترنم به ، لكن لنفسه .

ـ محبكم داب ، وانتم لم دريتوا بيه ..
والنار بترعى فؤاده ، وانتم لم دريتوا بيه ..

ان قدمه تدوس على الارض ، وترتفع عنها ، بحركة آلية ، وهو
يسير ببطء فى حوارى السوالم . ان عينيه ، تكتسبان رؤية
جديدة ، لمشاهد بالغة القدم ، انه يملأ عينيه من كل شىء ، ومما
أدهشه ، انه عندما قابل المهندس ، سلم عليه بحرارة ، ورحب به
وقال له المهندس ، وهو يضع يده على كتفه فى ود وحنان :
ـ أهلا بنائب المدير العام ..

مفتنع : امرأة لينة العود ، مفرودة القوام ، مثل عود السرو ، الذى زرع ونبت فى أيام الرخاء ، فى حلاوة الشهد ، تنام رموشها الطويلة على العيون الواسعة ، تزدد العيون اتساعا فى الليل ، وتحضن الشفة السفلى ، أختها العليا فى وسن هامس ، مكونتين معا دائرة صغيرة ، فى حجم وحمرة حبات النبق . اليد والذراع فى بياض القشدة ، تتحرك انيدان خلف النصبة ، بخفة ومهارة ، نبتعد الرموش السوداء ، عن العيون المفنجلة ، فتنظر ناحية الرجال ، فتبذر فيهم جميعا ، وعودا مبهمة ، رؤى ضبابية غامضة ، حنينا وسهادا ورغبة .

سلسبيله امرأة بلا رجل ، وكل امرأة بلا رجل فى السوالم ، فهى امرأة متاحة . يقول الشبان : ان من له زند رجل ، وذراع ذكر مغطى بالشعر ، وفى جيب الصديرى لداخلى ، الذى ينام على صدره العريض مال ، فهو قادر على أن يتحسس بيده حلاوة الشهد ، ويفرس أصابعه فى ليونة الجسد الابيض ودفئه . وعندئذ قد يرى عن قرب اتساع العيون ، وقد يكحل عينيه بسواد الرموش التى تغطى فدان ارض ، وقد يرى بياض الجسد يضىء ويشع فى حجرة ضيقة ، مطعونة بمساحات الظلام الليلى .

يجلس الرجال فى عشة سلسبيله ، يتربع فى وسطهم حب الدن ، أمامه الطبلية المستديرة الواطئة ، التى يلعب عليها الرجال الورق احيانا . سكر من معالم المكان ، تتصدر العشة ، تصطدم عينا الداخل ، بحلاوتها خلال دخوله . فتحى سالم يجلس وسطهم ، وحضوره أمر نادر الحدوث ، ولعل السبب الوحيد فى حضوره ، حديث الامس وما قاله المهندس ، فتحى سالم قلق فى جلسته ، ويبدو انه غير مقتنع بحضوره الى العشة ، ورغم هذا ، فهو مكره على الجلوس ، ومن يدرى فقد تمتد الجلسة الى ما هو اكثر من هذا ، انه ينزلق ، والهاوية ممتدة أمامه الى ما لانهاية ، والتوقف أصعب من الاستمرار فى لانحدار . فتحى سالم صامت ، لايتكلم يتحسس جبهته وأذنيه وفتحتى منخاريه ، يحدق فى الرجال

ويتعمد الا ينظر ناحية سكر . ويقول لنفسه . ان لكل امر من امور الحياة جانبه الجميل ، ويكتشف الان . ان سلسبيله رائعة ، ويحسد حب الدين ، ويستريح فى جلسته . ويمنح الرجال اذنيه . الرجال يتكلمون فى كل الامور دفعة واحدة . ومع الحديث ، يستيقظ فى نفوس الرجال ، الآلام والخطأ والجراح . الحديث ينفض عن انقلوب الصدأ والغبار . انهم يغزلون من قحط امامهم وجدب الحياة من حولهم ، حكايا تبلغ حد الروعة ، ووسط الحديث كانت اعينهم مربوطة بمكان ما . فى الافق المعتم وسط الظلام . ان احدا منهم لا يستطيع احتواء شعوره الداخلى . او يتذوق مذاقه، وسيظل هذا الشعور سره الخاص به ، دون اكتشاف بالنسبة لاى منهم .

الرجال ، الجالسون فى عشة سلسبيله ، تبدو قدرتهم الوحيدة فى أن يحلموا ، ان يرسموا بعيون الخيال ، أشياء ، احبوها فى نفوسهم المهندس . تدور الجوزة بينهم . يخرج الدخان الازرق من افواههم وانوفهم ، يختلط ببخار اكواب الشاى الدافئة ، يكونان معا ، سحابات من الغبار الشفيف فى جو العشة . وفى الخارج يذوب وسط الليل الناعس .

ـ وحدوه ..

ـ لا اله الا الله ..

الرجال ينظرون الى بعضهم ، كأنهم يرون انفسهم للمرة الاولى، تنغرس كلماتهم فى جو العشة ، فترسم امام عيونهم اشكالا ، صورا ، بلادا ، تحيل احلامهم الى واقع محدد . لقد تباعدت المسافة بينهم وبين السوالم ، وشعر الرجال ان حبال الالفة والمودة بينهم وبين البلد قد تقطعت . لن تعود الحياة الى ما كانت عليه من قبل . كانت الامور قد ساءت ، واضحى كل رجل . فى الصباح ، يشعر بأن كل شيء قد غدا ثقيلا ، الحياة ، الحوارى ، البلد ، لقمة العيش ، نظرات الآخرين ، سماء الله العالية .

ـ اما يا اولاد لو طلع الكلام ده صح ..

تشتعل الكلمات ، تندفع فى سباق بينهم ، ولا تستطيع الاذن ان تميز شيئا وسط سيل الكلمات المتدفق . الرجال يحلمون بسوالم اخرى ، لايوجد فيها عمد ، وبرجال لا يقضون حاجاتهم فى الصباح ، على شاطيء الترعة ، وبليل لا يبدأ فى السادسة مساء ، ويستمر حتى السادسة من صباح اليوم التالى ، ولا يرتبط الليل

فى أذهانهم بالظلام والصمت ، انهم يحلمون بسماء مغســـــولة بالشهد والحنين ، تعبرها طائرات كثيرة . وقد يكون هناك مطار كبير. الطائرات لن تذكرهم بعد ذلك بالحرمان ، ولــكن لتربطهم بالدنيا الواسعة . وقد تختفى اختــامهم ، تلك القطع النحاســية الصفراء المربوطة بالدوبارة فى محافظهم الفارغة . وقد تبنى النقود، تلك القطع الفضـــية اللامعة ، والاوراق الخضراء ذات الرائحة المحببة ، فى الايادى فترة أطول ، حتى تدفئها ، وقد تعرق الايادى على النقود من الفرح ، وقد لا يخافون شيخ الخفر ، وشيخ البلد ومقاول الانفار ومعاون الزراعة .

سلسبيلة تهيم خلف النصبة ، وتقوم بعمل كل ليلة ، انها تغنى بصوت لا يسمعه سواها ، كلمات سمعتها فى الزمان القديم ، فى احدى القاعات الضيقة الحمراء ، الفاقعة الحمار ، فى شارع محمد على ، فى مصر أم الدنيا ، الـكلمات التى تترنم بها ، مربوطة حول القلب ، كحجاب لا يفارقه ، ترددها دون أن تفهم معناها :

ـ آه منك يا زمن السفر والترحال ..

حب الدين : قلت لنفسى ، يا مركب العمر ، ان جاكى العدل حلى ، واقعد على دفتك ، وآخد بايدين خلى ، وعدنى المهنــدس بالعمل . قال اننى خامة جيدة ، واننى سأجد نفسى فى العمل معه عندما سمعته ، لم أدرك معنى ما يقول . غير اننى فى الليــل ، والليل يخفى حقائق الاشياء ، بدأت ادرك معنى كلمات المهندس. اننى أحبه ، وفى كل ليلة ، بعد أن تخلو العشــة تماما ، أصبــح بمفردى فى مواجهة سلسبيلة ، نجلس معا فى مواجهــة بعضنا ، نتحاسب ، نضع نقودنا فى منتصف الطبلية ، اقيد الحسابات ، اقول لنفسى : يارب سترك ، والنبى يارب . اننى لا اخاف سوى شماتة الناس ، لم أكن أطلب الـكثير . قال لى المهندس : سأعمل معه ، ملاحظا لتشغيل الانفار ، على ان اراقبهم فى العمل ، صرف الاجور سيكون كل خمســة عشر يوما ، أو كل اســبوع . زى ما انتو عايزين . قال انه سيعطينى أعلى أجر فى الناحية . قال ان المعجزة ستحدث هنا ، سنرى بأنفسنا الـكثير . مال على المهندس همس بكلام حلو عن مستقبل السوالم ، اذكر انه قال ، كلمــات رائعة ، كانت فى عينيه غنوه مقيدة ، عبــارات حبيســة تريد ان تنطلق ، أن تعربد فى الهواء ، فركت يدى فى بعضــهما ، احمــر وجهى « احنا تحت أمرك يا باشمهندس » وكنت صادقا فيما قلت

اشعر اننى وجدت شيئا ما ، وقد اقضى بقية العمر مستريحا ، كنت افكر فى ترك السوالم من قبل ، كانت الحال قد ضاقت بى ، كان الفراغ وضيق ذات اليد وبيع الارض قد دفعنى الى حافة اليأس ، سرت مع المهندس حتى الخيام ، تركته هناك ، وما كنت أود ، أن إفارقه لحظة واحدة ، كنت حريصا عليه كما الحياة ، « تصبح على خير يا باشمهندس » عدت ، فى طريق عودتى ، كان فى نفسى شعور خبيث ، نوع من التشفى فى العمدة وشيخ الخفر والخفر والمعلم يعقوب ، كنت اتشفى فى كل من يقبض ماهية أول الشهر ، كل الذين لا يطلبون من الله سوى أن يدوم الحال ، رحت امنى نفسى بالايام القادمة ، أبى يرحمه الله ، تنبأ بما حدث من قبل ، الغجرية التى مرت بالسوالم فى الربيع الماضى ، جلست فى وسطنا ، كنت اجلس على الجسر ، أخـذت أثرى ، وشـوشت الدكر ، رميت بياضى ، قالت لى : يأتيك رزق كثير بعد عمر طويل ، أطلبه من الله ، سألتها عن العمر الطويل ، قالت سنه واحده أو أكثر ، رفعت يدى نحو السماء الربيعية الزرقاء ، قلت يارب . أوزع الشاى على الناس ، أتحرك بين الرجال ، وقـد بدأ جو العشية مثقلا بالانفاس والدخان ، أتخيل نفسى ، العفريتة الزرقاء . الحذاء اللامع ، اليد الناعمة ، حب الدين سرحان رئيس قسم . بشركة ، الزواج . العشيـقة ثم الزوجة ، يصـل ويسلم ليـد النسيد ، انعمل فى النهـــار ، استعادة الارض التى بيعت للمعلم يعقوب ، القيراط الخامس والعشرين ، لابد وأن أقول ، اننى لا أتصور كيف كانت الايام ستمر بدون المهندس ، النوم حتى العاشرة الاستيقاظ ، الافطار ، التدخين ، النوم مرة أخرى ، الصحو ثم النوم ، ولا شىء غير هذا ..

فتحى سالم : اخوانى ، أهالى السوالم الـكرام ، رشحت نفسى نيابة عنكم ، أملى فيكم ، انتخبوا الفلاح المثقف ، فتحى سالم ، رمزه المفتاح ، كانت ليلة جريحة ، لم أنم حتى الفجر ، بدأ لى الصباح متعبا ، قمت من نومى ، تناولت افطارى بفم غير فمى ، ذهبت الى دوار العمدة ، لا أدرى لم ذهبت الى العمدة بالذات ، تحدثنا فى كل الموضوعات ، سألنى عن اخبـار البلد ، واخبـار اعضاء الاتحاد ، واخبار الجمعية التعاونية ، والمدرسـة ، طلب منى ان اصبر ، بعد أيام، سيكون الامر فى لجنة الاتحاد ، درنا حول كل الموضوعات ، الا الموضوع الرئيسى ، المهندس والبترول ، لم

اسأنه . ولم يشأ الحديث عنه . كلانا يدرك ، اننا لم نلتق فى هذا الصباح المتعب . لا من أجل ذلك الموضوع ، راحت الدقائق تمتد بين الكلمات . لم نجد ما نقوله ، حضر الى العمدة ضيوف من بلاد بعيدة ، قمنا ، سلمنا ، رحبنا بهم . سألونا عن الصحة والحال ، احسست ان وجودى أصبح بلا جدوى ، قمت ، سلمت استأذنت من العمدة ..

ــ ما انت قاعد ياسى فتحى ..

ــ أصل ورانا شغل ..

ــ طيب ياخويا ، خطوة عزيزة .

فى الطريق . وكنت بمفردى ، رحت أفتش فى نفسى عن احساس واحد . أعرف به موقف العمدة مما يحدث ، كان وجهه فى هذا الصباح ، أخرس ، مسطحا لاينطق ، قال لى : ان الظروف صعبة . لقد فعل ما قدر عليه ، نحن عاجزون . مات والدى ، بعده تركت المدرسة . ورحبت بالفراغ والتسكع ، ونزهات الليل ، فى حوارى السوالم . وقلت لنفسى ، ذات مساء ، فليكن مايكون ، فلأحاول الحصول على شيء ما من معجزة المهندس ، لقد استطاع حب الدين أن يتسلل اليه ، ان حب الدين أكبر منى . كنت أقول له من قبل : ياعمى حب الدين ، الحال تغيرت ، دائما يسبقنى حب الدين . مكتوب على أن أكون تابعه ، أو بعده أو مقلدا له فى كل ما يقوم به . مجرد وجود حب الدين فى السوالم نار دائمة الوقيد . تكوى القلب والجنب والعين ، كان من المفروض على أن أكتب رأيى فيما يحدث فى التقرير الاسبوعى الذى أرفعه الى مكتب المركز . كل تأخيرة وفيها خيرة . دائما كنت أحافظ على المواعيد . وأخدم التعليمات ، عن خوف لا عن اقتناع ، غير انى فى نهاية الامر لم أحصل على شيء . عندما وصلت الى منزلى ، أدركت ان الحال فى السوالم أمر من أى وقت مضى ، واننى لم ادرك هذا الا بعد حضور المهندس . فى المساء ذهبت الى عشة سلسبيلة ، وضعت على الشفتين ابتسامة باهتة .

ــ مساء الخير يا رجالة ..

ــ مين ؟ سى فتحى ، يا نيلة بيضة ، أهلا وسهلا ..

كان المساء قد حل ، وطار طائر الشوق ، شق فضاء السماء الكاذب ، حاملا الحنين للأهل والاحباب . جلست بين الرجال ، فى يدى جريدة قديمة ، دائما قديمة ، حاولت أن أتصنع الاستماع

الى الراديو ، أحسست بالارتباك ، كنت مزهوا بهزيمتي ، أقول لحب الدين كلاما ، تنزلق عباراته من طرف اللسان ، دون أن تترك اثرا في النفس ، حب الدين يدرك معنى كلماتي ، كرهنا بعضنا لحد الموت ، وقلنا لبعضنا البعض ذات مساء ، دونما عذاب الكلمات ، ان بضاعتنا واحدة ، وأهل السوالم الطيبون ، اما ان يشتروا مني أو منك انت . وقلنا يومها ، هذا الكلام صحيح لم تكن لنا حيلة . قلت لنفسي : كل ما حولي يشير الى أسفل ، الى قيعان الاشياء ، لا أمل ، اجلس ، اتفرس في الوجوه ، تستقر نظراتي على وجنتي سلسبيلة ، تستريح عيناى لجمالها ، في الصدر والقلب هذيان ، شعور من فاته كل شيء ، من استيقظ ذات صباح فوجد ان الارباح قد تم توزيعها ، بالعدل أو بالظلم ، المهم ان الذين وزعوها ، نسوه ، ولا أمل في تصحيح الامور . أكره المهندس لحد الموت ، ولكني أدرك ، انه أتى ليوقظ الاحلام المؤجلة منذ سنوات . قالت لي أمي بعد الظهر : ان البيت في حاجة الى كيلتين حب ، فكرت طويلا ، قلت لها : حاضر ، كل الامور حتما تتصلح ان شاء الله . لبست عدة الشغل ، الساعة ، الجلباب المكوى ، الحذاء اللامع ، الشراب الكاوتشوك ، امسكت بالجريدة القديمة ، وخرجت . قال الرجال ، أحسن تشتغل شغلانه ، قلت : هي أيام التسكع ، ان زمن النزوح والترحال لم يحن بعد ، وقلت لسلسبيلة : يوم أن حضرت الى بلدنا ، وهي تخطو في الشارع الرئيسي ، فتوقظ الرؤى والاحلام ورعشة الليل ، وتنفض الغبار عن العيون والصدأ عن القلوب ، قلت لها : يا أرض احرسي ما عليكي ، فتوقفت ، استدارت ، نظرت الى ، انغرست نظراتها في لحمي ، ومضت في طريقها ، فكرهت الخديعة والفشل والآمال المؤجلة . وعندما حضر المهندس الى بلدتنا ، قلت لنفسي ، وكانت ديوك الفجر قد بدأت تؤذن : خيرا ، ليكن امتحاني الاخير ، وبعدها مرحى يا زمن النزوح .

أبو السعود : لم يرسل المهندس في طلبي ، يبدو انه لايعرف انه يوجد في السوالم شخص اسمه أبو السعود ، واسم ابيه أبو السعود ، واسم جده أبو السعود ، آباؤه وأجداده سموا العائلة باسم واحد ، قد يحتاجني المهندس ذات يوم ، يطلب مني أن أبلغ الناس ما يريد ابلاغه لهم ، وعندئذ سأدور في الحوارى ساعة الغروب : يا عباد الله ، يا أهالي البلد ، لن تكون المناداة عن

ماعز تاهت فى طريق العودة من الحقل ، او طفل صغير ، ضل الطريق الى بيته ، او عن موعد الترحيلة الى جناكليس ، ستكون المناداة ، بكلام حلو ، كلام المهندس ، لا أفهم لم يكره العمدة المهندس ، لم يقف ضده ، لو صح كلام المهندس ، لاصبحت الحال غير الحال ، ولودعنا أيام الجوع والعرى . الشيخ محمود يعطل على رزقى ، ولم يعد أمامى سوى أن أدور فى الحوارى وأنادى . ومن قبل ، فى الزمان القديم ، قبل ان والدى ، كان يغسل الموتى ويكفنهم ، ويقرأ القرآن فى المآتم وايام الخميس وذكرى الاربعين ومن صغرى وأنا أمنى نفسى بالكثير ، بعد وفاة والدى ، لم اجد لنفسى ، سوى أن أمر فى الحوارى . قلت : يوم أن يطلبنى المهندس ، سأطلب منه اغلى ثمن ، ان النقود فى يده ، مثل حبات الارز ، قيل لى : ان اسهل ما عنده ، أن يعطى نقودا ، لن أتنازل عن مليم ، ان فاصلنى ، وأعتقد أنه لا يعرف الفصال ، سأقول له : بين البائع والمشترى ، يفتح الله ، سأتركه وامشى ولن أعود اليه ، ولن أسكت عليه . فى صباح اليوم ، ذهبت الى الخيام ، سلمت ورحبت وعرضت خدماتى ، وقلت : أنا ابو السعود ، الذى يعرف كل ما خفى ، ضحكت أمام الغرباء ، انا ابو السعود ابو السعود ، ابو السعود ، أبو السعود ، أبو السعود . أمتلك مائة الف عين ومائة الف اذن ، لا شىء يحدث فى السوالم الا وعرفته ، أتحداكم ياضيوف بلدنا ، ان كان هناك ما لااعرفه ، ووددت ان اشتم فى الشيخ محمود ، اجلت ذلك الى ما بعد . أثناء وقوفى ، لمحنى ورداني أتحدث مع الغرباء ، اسرع فى سيره نحو دوار العمدة ، هذا لا يهم ، عند الغرباء سأجد الحماية ولقمة العيش والراحة والستر ، على استعداد لافعل ما يطلبه الغرباء ، فرح الغرباء بحديثى ، قالوا : دمى خفيف وروحى لطيفه ، وندموا على الايام التى مضت دون أن يعرفونى ، قلت لهم : خدامكم يا بهوات ، دا احنا أهل . توقفت ، رحت انظر الى الجالسين أمامى ، جلست على الارض ، تربعت ، رفعت يدى ، فانحسر كم جلبابى عن ذراعى المغطاة بالشعر ، بربشت عيناى فى الشمس ، رفعت كف يدى اليمنى ، صنعت منه شمسية ، تغطى عينى ، حتى أستطيع أن انظر الى الافندية الغرباء . تفحصتهم واحدا واحدا .

— أمال فين الباشمهندس عصمت ؟

— دا مش موجود ، وجاى بالليل ..

ـ كدا ، طيب عن اذنكو بقى ياجماعة ..

للوم : سمعت ، ان المهندس ، سيحتاج أنفار للعمـل معه ، موعد الترحيله قرب . بعد أيام قليلة ، يحضر المعلم من ابىالمطامير، ومندوب المحافظة من دمنهور ، الفصال ، الاتفاق ، قراءة الفاتحة دفع العربون ، تحديد موعد السفر ، تنـــاول طعام الغداء فى المندره ، ارسال من يشترى زجاجات البيرة من الضهرية ، لوح الثلج الذى يقطر برودة وسط الحر ، الدخان الخارج من النوافذ والابواب . سمعت ان المهندس سيدفع أعلى أجر فى الناحية ، المال معه كثير ، تلك نقطة اتفقنا عليها جميعا رغم كل خلافاتنا القديمة والجديدة ، رأيت المهندس من قبل ، غير اننـا لم نتبـادل كلمة واحدة . سأل المهندس عنك . يا معلم للوم ، قلت لمحدثى ، ذلك من مصلحته هو ، وقلت لنفسى فى غيظ : لو حدث وأجر له مقاول غيرى أنفارا ، لحرقت الخيمة ، وقتلت المهندس فى خبء الليالى وصمت الحقول ، والنقود قادرة على عمل المعجزات ، كل ما يعجز عنه القلب واللسـان . بعد لقائى الاول مع المهندس ، عرفت انه من السهل الضحك عليه ، انه من عيال البنـادر . قالت لى امى المريضة ، عندما شكوت لها سوء الحال : وحكيت لها ما حـدث اخيرا للسـوالم ، قالت : لماذا انظر الى الموضوع بخوف ، قد يكون الموضوع خيرا ، ذكرتنى بما سبق أن فعلناه مع الافندى القادم من المحافظة ، ومقاول أبى المطامير ، قلت لنفسى : ان المهندس فرصة لمزيد من الغنى ، وبعدها سأشترى السوالم بمن فيهـا ، وابنى لنفسىقصرا عاليا ، أطل منهعلىالسوالم. فى العمل، قد تخطف عين المهندس فتاة صغيرة ، يسأل عنها ، يتابعها ، يطلب منى أن تحضر كل يوم ، وفى يوم ما ، لا احضرها ، فيسألعنها المهندس ، لا أرد عليه ، غير انى سأقرأ فى عينيه اللهفة ، وأعرف كل شىء ، وذات مساء ، ونحن عائدون من مكان العمل الى البلد ، يقترب منى المهندس ، يمسك بى من ذراعى اليمنى : « باقول لك ايه يا حضرة المقاول . انت طبعا ابن بلد وسيد من يفهم » . أعرف هـــذه اللحظة جيدا ، وسيكون كل ما قبلها انتظارا لحدوثها ، الخجل فى العيون ، الشفاه المشققة ، التردد على ملامح الوجوه ، ابتسم له . اتكلم « احنا اخوات يابيه » يطلب منى أن تذهب البنت الى الخيام بالليل ، ويقسم لى ، مؤكدا القسم بيده ، وبرحمة أغلى ما له فى الحياة ، انها ستذهب للعمل فقط ، تزداد ابتسامتى اتساعا ،

وفع ، غمزت لسنارة ، أرفع يدى ، أربت على كتفه « بس كدا . غالى والطلب رخيص ، يا أمير يا ابن الامرا » . الباقى على أنا ، سأضع المهندس فى جيب الصديرى الداخلى ، وتكون الليالى مترعة بالسرور ، الدخان ، الجوزة ، أحلى البنات فى حجرتى الداخلية ، وفى الخارج ، دعوات أمى . فى المرات السابقة ، كانوا مقاولين صغارا ، هذه المرة ، لا أصدق نفسى . وجود المهندس ، وعد صادق بالامان ، وعد بأن أخرس الالسنة ، وأن يقف كل عند حده ، وأن تموت ذكرى الصراف واليمين الباطل وليالى المركز والتحقيق وطرحة أمى المرقعة والعمل فى الحقول الواسعة كل يوم ، عند الآخرين ، وأن تدفن الى الابد ، عبارة من أين لك كل هذا ، والشبهات ، وكلام الناس . ومن يدرينى ، قد أصبح أحد مالكى الارض ، وقد أناسب عائلة الحاج منصور أبو الليل من الضهرية ، أو عائلة المنيسى من دميسنا ، أو عائلة الدفراوى هنا فى السوالم .

سلسبيلة على الله ، والله لو سعدنى زمانى لأسكنك يا مصر ، وأزرع لى فيكى جنينه ووسط الجنينه قصر . انتم صابكم ايه يا أهل السوالم ، الله ، قال لى حب الدين ، وهو يهزنى : ان ربنا فرجها أخيرا على أهل السوالم ، لم أرد عليه ، قلت لنفسى : ليبق المهندس فى السوالم طويلا ، وجوده معناه ، أن تروج الحال فى العشة كل ليلة ، أن تخرج القروش الدافئة من كثرة حفظها فى الجيوب ، وتوضع على الأنصبة ، دون أن يدرى الرجال كيف يحدث هذا . ها هو فتحى سالم بنفسه ، جالس ، رغم كل ما كان يقوله علينا . كل ليله من الليالى ستحمل لنا وجوها جديدة . قال لى حب الدين : ان عشتنا ستتحول الى كازينو ، سأكون صاحبته . كلمات حب الدين توقظ الاحلام التى أماتها الانتظار والتردد « كازينو عمال شركة السوالم الكبرى » كوب الشاى قرشان ، كركديه : قرش ونصف ، المثلجات بكافة أنواعها : ثلاثة قروش ، يضاف الى الاسعار ١٠ ٪ خدمة ، لن يكون هناك شكك . شكك ايه ، قال حب الدين ، دى الفلوس حا تبقى أكثر من الهم على القلب ، الشوارع ستضاء حتى الصباح . والناس لن تنام قبل الثانية صباحا ، سينشغل كل بحاله ، لن ينظر أحد الى الآخر فى الشوارع ، محلات ، منى فاتورة ، بقالة ، سينما ، مقاه ، مطاعم ، مكاتب ، أتوبيسات ، العمارات العالية ، النزهة ساعة

العصارى ، التنزه فى الحدائق ، وقد التقى ذات مساء بعصمت ، عصمت دون سواه . الرجال أصابهم هوس ، كل هذا لم يحدث الا بعد حضور المهندس ، يتحدثون ، تعلو أصواتهم ، تخفت ، يصمتون ، يعودون الى المهندس ، دائما المهندس ، لم أره حتى الآن ، لايهمنى . عدم حضور المهندس الى العشة ، اهانة لى ، غضبت ، شتمته أكثر من مرة ، قلت : انه لابد وان به عاهة ، قد اكتشف ذلك . لم أهتم به . حاولت أن أتخيل صورته ، وأن كنت لا أعرف اسمه ، كل الناس لا تقول سوى المهندس. يقول لى حب الدين ، فى لحظات الصفاء : انت يابت وشك خير على السوالم كلها . لا أصدقه ، سوف يكون اسمى المعلمة ، معلمة المعلمات ، سلسبيلة ، سكر، سوسو ، عطيات ، سلسبيلة على الله مصر ، شارع محمد على ، السوالم بحيرة ، الترام القديم ، كركرة سيره فى الشـــــارع ، الاهتزاز الذى يصيب البيوت من مروره البطىء ، الشارع الصاعد الى القلعة ، هات خمسينة طافية . الحارات الضيقة ، البلاط المضلع القديم . انفص تحت الضرس ، والنبى احنا ما كنا عايشـين ، يتحدث الرجـل ، أجلس خلف النصبة . فى آخر الليل ، سلسبيلة ، أنا .. أنا .. بحبك . حب الدين يريد أن يضحك على، ما يهمنى هو المهندس، احببته ،لست ادرى لم . القلب فاض بما فيه ، منذ سنوات ، أريد أن أرى المهندس ، أن أمسحه بنظرة احتقار وتشف ، ســـيرتمى تحت القدمين ، سأعذبه ، بعدك يا عصمت لن أعرف رجالا آخرين ، زمن السفر قادم ، وما أنتظره وما أبحث عنه ، لن أجده هنا ، بل على أرض أخرى ، بلاد بعيدة ، مدينة لم توجد بعد . ويقول لى حب الدين ، فى آخر الليل ..

وردانى : بكره الصبح ، تسلم ارضك يا وردانى ، بس ياحضرة العمدة ، معلهش يا ابنى ، المهندس ، النصف فدان ، الحكومة ، التسليم ، الهزيمة ، الجاموسة تتلوى فى البيت . فى الصباح ، أحل المواشى ، أمشى بها فى وسط حقول الناس فلا حقل لى . قال لى جارى : ان بقاء المواشى فى الزريبة يصيب اقدامها بأمراض كثيرة ، أمشى على الجسر الطويل ، اتركها ترعى فى الحلفاء الشائكة أعود الى البيت ، يقول الناس بعد مرورى عليهم ساعة العصارى الحكاية ماجتش على دماغ حد الا هوه ، فى الليل ، تأتينى الازمة تركونى بمفردى أمام المهندس ، انتهى الامر ، ما فائدة كل ما يقال

ى المركز . دخلت المستشفى . رآنى وكشف على اكثر من طبيب خلعت ملابسى . ارتديت ملابس المستـــشفى . نمت على سرير طرتى . وقال لى الاطباء . بالحرف الواحد : عندك ربو ، حالة قديمة . اعود ، فى الصدر شك الابر ، أتفادى الزعل والعراك . يوم خروجى من المستشفى . قال الدكتور فى مرور الصباح : خروج ، دون نفس الكلمة بالاحمر . على ذيل أوراق العلاج المعلقة فى سريرى ، لم أكن شفيت بعد ، قالوا لى ان من يصاب بهذا المرض ، لا يشفى منه أبدا . بعد قليل ، كنت اقف خارج سور المستشفى ، سور حديدى مرتفع ، فى يدى بقجة فيها ملابس متسخة وبقايا اكل ، كان على ان أسلك اقرب الطرق الى السوالم ، سيرا على قدمى ، لم يكن معى ما أركب به حتى السوالم . بكره الصبح تسلم الارض يا وردانى . حاضر . فى يوم التسليم . قلت أننى مريض ، لم أقم من نومى . روحى انتى يابت . قالت زوجتى ان ابنى الصغير انفطر قلبه من العياط ، لم أرد . قالت : ربنا يهدهم ، هو ما فيش حد قدهم ، لن أسلم . الحكومة ، المهندس ، العمدة .

عندما قلبوا باطن الارض ، أخرجوا مصارينها ، شعرت ان هناك شيئا ما انتهك عورتها ، انكشف عليها الغرباء . قلت لزوجتى : أن تعد كيلة حب كى تبيعها فى السوق يوم الخميس ، كانت الارض جرحا ينزف فى القلب . العزاء اننى سأتسلم فى الاسبوع القادم ، ايجار النصف فدان لمدة سنة . طلبت من زوجتى أن تلم لسانها ، والا تذكر ذلك امام أى أحد من أهل الحارة . أبو السعود ، أتى لى بالامس ، وقت الغروب ، ومال على :

- اعمل حسابك فى اتنين جنيه سلف من الفلوس ..
فأولاده وزوجته يمشون بدون ملابس
- فلوس ايه ؟
- اللى حا تقبضهم من المهندس
- يسمع منى ومنك ربنا
- ايجار الارض ، من المهندس ، ربنا يوسع عليك ..

صحت فيه : لن أقبل مليما ، سأشكو للعمدة والمركز ، وسأرسل تلغرافا للرئيس ، وقلت لنفسى : ان الخير قد يكون مع المشروع ، وقررت أن أبيع النصف فدان بألف جنيــه ، لتتكلم النـاس : سأخاصم كل الناس ، لن ارمى السلام على أحد ، سأدير وجهى

ان قابلت أى رجل ، سأخاصم الجسر والعشة والجامع ودكان المعلم يعقوب ودوار العمدة . السوالم كلها . لا يطمر فيها العيش والملح وتهون عليهــــا العشرة . أحلف . بتربة أبى ، والمصحف الشريف ، ان أرضى لن تبوح بسرها لأحد ، ولولا خوفى من الازمة ، لذهبت اليها فى الليل . وهناك ، ساعرف الامر كله ..

السوالم ــ بحيرة ..

الخميس ٨ من اكتوبر سنة ١٩٦٤ م

فى الصباح ، قمت من نومى ، غسلت وجهى ، حلقت ذقنى . تناولت طعام الافطار ، وأثناء شرب الشاى ، رحت أفكر فيما سأقوم به خلال اليوم ، وأدركت ان ما على القيام به كثير. ارتديت ملابسى ، أمام الخيمة ، عرض على مساعدى ، بعض الخطوات التى تمت ، شرح لى احتمالات المستقبل ، نظرت الى الرسومات والخرائط والجداول والكتابات . كان ذهنى شاردا ، لم أعلق على ما قاله ، طلبت منه ارجاء الامور حتى أعود من رحلتى . ما يهمنى ليس البئر و البترول ، بقدر ما يهمنى الناس ، وجودهم حياتهم ، ما يحلمون به ، ما يرجونه من الايام القادمة ، كان على ان أذهب الى شثنت الانعام وتكلا العنب وايتاى البارود. سأقابل كثيرا من الناس ، سأحدد معهم ما سنعمله . كان من المفروض ، أن يقوم المساعدون ، بهذه الخطوات ، فضلت القيام بها بنفسى . فى البداية ، كنت أريد أن أكون مشرفا على المشروع ، وأمدتنى الشركة بعدد من الموظفين ، ووزعت بيننا الاعمال . بعد حضورى ، وجدت فى السوالم ما لم أسمع عنه من قبل . قررت القيام بكل خطوات المشروع ، لفت نظرى ، ان الرجال ، بحكم تعودهم على المسافات الواسعة ، فان المسافات لا تعنى عندهم شيئا . ان انبساط الارض والحياة عندهم ، وانفساح السماء فى وجوههم ، أفقدهم الاحساس بالمسافات . وكون الايام متشابهة الشكل والحوادث . جعل احساسهم بالزمن لا وجود له ، ما يحدث اليوم ، هو ما حدث بالامس ، وهو الذى كان يحدث منذ سنوات ، وفى مستقبل الايام لن يحدث سواه . وعندما يسافر أحدهم الى البنادر القريبة ، ويعمل هناك ، وتجرى النقود بين يديه ، فانه يشترى ساعة يلفها حول معصمه . انه لا يشترى سوى الساعة ، وهى رمز بالغ الاهمية ، انه دخل مرحلة يحسب فيها الوقت بالدقائق والساعات . ان البنادر مليئة بكل الاشياء ، غير انهم

جميعا لا يشترون سوى الساعات . وذلك اتفاق غريب بين كل الناس .

تسأل عن الضهرية ، الرجل الذى تسأله يقف مكانه . يضع يديه فى جيوبه ، يضيق عينيه ، يحسب ، ويقول لك : دى قريبة خالص ، فركة كعب يعنى . الضهرية : على بعد ستة كيلومترات بالتمام والكمال . أجمع ملاحظاتى عن السوالم ، لا ادرى لم اجمعها ، امام شكل الحياة أضعف ، اشعر انتى امام شيء عفوى وعظيم . قال لى أبى ، يوم أن تركت قريتنا النائية فى أقصى الجنوب : سافر ففى الاسفار سبع فوائد . لم أفهم معنى الكلمة. الآن ، وبعد سنوات ، أدركت ما تعنيه . ان حياة الناس فى السوالم خصبة وغنية ومليئة بالوعود الرائعة . لقد قررت أن يكون وقت فراغى كله لعمل دراسات عن المنطقة .

سيكون هـذا اليوم ، دراسات مبدئية ، عن المنطقة المحيطة السوالم ، لن ارجع الى كتب ، ولن اسمع من الناس ما يقولونه. سأذهب بنفسى ، سأقابل من يعنيهم الامر ، سأتعرف بهم . بالامس ، تأكد لى ، بما يشبه اليقين ، ان علاقتى بهذه البلده ، لن تقتصر على البئر والبترول ، أدركت أن هناك علاقة ما ، صلة تربطنى بهذه الارض ، وانه تم بيننا اتصال بشكل أو بآخر من قبل . سأبدأ عملى فى الحفر يوم السبت القادم . ما يهمنى اليوم، أن ادرس جملة أمور ، طريقة الوصول الى المنطقة ، وسائل المواصلات وتكاليفها ، الطرق الصالحة ، امكانية انشاء طرق جديدة ، أو ترميم الموجود منها ، التموين من اعاشة ومواد خام ، حالة العمالة ، عدد العمال ، مستوى الاجور ، مدى استعداد العمال للعمل فى المشروع ، مكان أقرب انتاج زيتى أو غازى . كل الدراسات والرسومات ، التى تمت ، كانت دراسات جيولوجية معملية ، توصلت فيها الى نوع الحفريات ، سمك الطبقات الرسوبية ، مدى وجود صخور خزانية وعمرها . كان التقرير يحتوى على البيانات الجيولوجية والاقتصادية التى امكن الحصول عليها . كان فيه تقييم للامكانيات البترولية فى المنطقة ، وتوصيات عن مناطق أخرى تستحق دراسات تفصيلية . كان على أن أكمل مع زملائى الدراسات النظرية ، على ان نقوم بعمل اللازم لحفر البئر الاختبارية .

فكرت قبل أن انام ، ليلة الامس ، وقلت لنفسى : حياة الناس

تتحول . قال مساعدى : انه من المناسب ان اؤلف كتابا عن الناس لم يبق امامنا سوى جمع مادة الكتاب خلال عملنا اليومى . عندما رايت انسياب الاحلام فى العيون ليلة أن كنا على الجسر ، ادركت انني قطعت منتصف الطريق . فى الليل ، بعد أن عدت من على الجسر ، همست للحوارى : من حق الناس أن يحلموا ، ذلك هو الامل الاخير لهم . وقبل ذلك ، أخذت حب الدين معى، سرت فى الحوارى ، زرنا جامع سيدى الغريب ، شاهدت المدرسة الإبتدائية ، الجمعية التعاونية ، مكتب البريد ، منزل شيخ البلد، الجرن الواسع ، المقابر ، وصلت الى أول الطريق الزراعى الآخر الموصل الى شنشت الانعام ، قال لى حب الدين : انه يخاف أن اسمع كلام الناس عنه .

ـ الناس هنا أصلها ، ما بتخليش حد فى حاله

حب الدين رجل أعزب ، وكل رجل أعزب فى هذه البيئات الضيقة . مكروه . ولا يطمئن اليه أحد ، انه يشكل أمام عيونهم وقوفا فى وجه الطبيعة ، وعدوانا مستمرا على حرمة بيوتهم ولو بالنظرات . قال حب الدين : يوجد فى السوالم عائلتان : فى السوالم قبلى عائلة الدفراوى ، ومنها عمدة السوالمين الآن ، وأمين الاتحاد الاشتراكى ، وعائلة الخولى ، وهى من السوالم بحرى . كان منها العمدة فى الزمان القديم ، وبعد أن مات ، لم تقم لهم قائمة بعده ، واكتفى المركز بأن عين عمدة واحدا له نائب فى السوالم بحرى . قال حب الدين : من أشهر العائلات فى الناحية ، عائلة أبو النيل فى الضهرية ، والمنيسى فى دميسنا ، هناك عائلات اخرى . أدركت من حديثه ، فهمه للعائلة الكبيرة ، لابد وأن تكون كثيرة العدد ، لا يقل أفرادها عن مائة شخص ، ملك الاراضى شرط أساسى . أحيانا يكون من العائلة فرع صغير ، وجل مال به الحال، وعن طريق هذا الفرع الصغير ، تناسب العائلة الكبيرة ، عائلات صغيرة متطلعة وطموح . لذلك ، قال لى حب الدين : ان السوالم ، قبلى وبحرى ، عائلة واحدة ، وذلك عن طريق النسب ، قصة الحياة ، هى قصة الخلافات بين العائلتين الكبيرتين ، والبلد مكون العائلتين بلا زيادة ولا نقصان . لا توجد عائلة صغيرة ، أو فرد لا تربطه علاقة مع عائلة الدفراوى أو الخولى ، ولا يوجد موقف ثالث . قلت : أن حفر البئر يجب أن يتحول الى تجربة حياة لكل الناس ، تعنى وجودهم . لا يجب أن يتصور أحد ، ان

ابترول هبط من السماء ، أو اتى من عند الجن والعفاريت ، يجب ان يدركوا . انه نبع من حبات قلوبهم . من تحت جفون لعين . سلمت على الرجال ، دخلت بيوتهم . شربت الشاى الاسود على المصاطب الصغيرة معهم ، استمعت اليهم . يقولون حكايات ، كلمات تنسجها الشفاه تبلغ حد الروعة . فى أثناء سيرى فى الحوارى ، مع حب الدين ، وكان ظلام المساء ، يمتص نور النهار ، الرجال يجلسون أمام ابواب بيوتهم . يتكلمون ، سلمت على شيخ الخفر ، ذهبت الى ارض ورداني بعد استلامها ، عاينتها آثار ورداني فى كل مكان ، اشجار صغيرة زرعها ، تكعيبة عنب ، ساقية ، حديد يحدها من الجهات الاربع . مربط المواشى ، كوم

انسباخ على راس الحقل . كان على أن اطلب المنادى . ان اكلفه أن يمر فى حوارى البلد ، ويطلب من الناس الحضور يوم السبت . التاسعة صباحا ، حيث سيتم افتتاح المشروع بشكل رسمى ، فى حفل سيحضره كل الناس ، قالوا لى ان المنادى اسمه ابوالسعود، وانه رجل فكه ، فى الخمسين من عمره ، كان يعمل لحادا من قبل ثم احترف المناداة . لابد من لقاء آخر بينى وبين الناس ، ما اريده هو أن اقترب منهم اكثر ، اشعر بهم ويشعرون بى . يوم لقاء الجسر ، جلسوا حولى ، صمتوا ، استمعوا الى ، هزوا رءوسهم ، لم يتكلم أحد منهم ، كان الصمت جرحا شوه طعم اللقاء فى الافواه أغلب الرجال فى هذه الايام من كل عام لا يعملون فى الضحى ، وتكون الشمس قد وضحت للعيون ، يجلسون على الجسر ، بعضهم ينام على الافريز الصغير ، بجانب سوره ، يغمض عينيه ويحلم ، وباقى الرجال ينظرون ناحية السماء الصافية ، يحركون

اياديهم ، يطردون بها الذباب من فوق الوجوه ، وتبدو عيونهم المبتلة بالنعاس ، كأنهم لم يصحون بعد من وسن الليلة السابقة ، أو انهم يستعدون لنوم الليلة القادمة . انهم يتثاءبون ، يفتحون أفواههم على آخرها ، فتبدو اسنانهم الصدئة المتآكلة . يرفعون اياديهم فى الهواء ، يمدون اقدامهم حتى آخرها ، انهم يستنشقون رائحة ملل الايام الفارغة . اجلس الآن فى خيمة صغيرة ، يجلس أمامى مساعدى فى الخيمة الاخرى ، السائقون والفنيون وباقى العمال ، انهم جميعا متذمرون من الحياة هنا ، يقولون سوء الحظ رمى بهم هنا ، ويتحسرون على كل ما فى البلاد الاخرى ، القاهرة الاسكندرية ، حيث النساء الجميلات ، السيارات ، الانوار ،

علامات الطريق ، الشوارع المغسولة بظلام الليل ، الاحمر والاخضر، ممنوع انتظار السيارات ، مدرسة ، ممنوع استعمال آلات التنبيه الاعلانات ، العشاق فى الشوارع المظلمة ، لم أحاول أن أناقشهم . فى لحظة الفسق من كل يوم ، يكتبون رسائل صغيرة ، يرسلونها الى الاهل و لاحباب ، مقربين يوم اللقاء ، ضاربين له موعدا ، الموعد سيتحول الى شيء مؤجل ، وسيظل مؤجلا الى غير ما حد. مشروعى يسير حتى الآن بشكل حسن . فى ليلة الامس حلمت بالدخان الازرق فى السماء ، المصابيح العالية ، الناس السعداء ، قرأت خبرا فى جريدة معلقة فى الفضاء عن تسريح جيوش العالم وتحويل الحدود بين الدول الى خطوط وهمية لا وجود لها الا على الخرائط وكان الذئب يداعب الحمل والاسد يجلس وسط الرجال وكانت الشوارع نظيفة لم يكن فى الاتوبيس محصل . صندوق صغير يضع فيه الراكب الاجرة ، الجرائد والمجلات على الارصفة الناس جميعا أمناء ، يقف الرجل ، يأخذ ما يريده ، يخرج ثمنه ويضعه على الارض ، لم أر أقسام بوليس ، ولا محاكم ، ولا قضاة ولا حاكم ولا محكوم ولا مسجون ، لم يكن هناك متسول أو محروم أو باك ، كل ما يطلبه الانسان فى متناول يده ، نظرات الرجال حالمة وادعة . لم تبق أية مشاكل، لا أحد فى السوالم ينتظر مجيء النبى الجديد ، وعلى الحيطان عبارات عن مصر المستقبل ، السعادة ، الاخوة ، المساواة . لا أحد يملك ، الغنى ، الزهد .

فى الصباح ، لم أحك ماشاهدته لاحد ، اعتبرت ان ما رايته سرى الخاص ، فى هداة الليل ، أكتب على ضوء مصباح. السوالم كلها تنام ، مكان واحد ينبعث منه نور، عشة سلسبيلة ، انها آخر ومضة نور تنطفىء فى ليل السوالم ، بعد انطفاء نور العشة ، أدرك ان كل شيء نام أخيرا ، الرجال يعودون الى بيوتهم بعد سهر كل ليلة . أشعر ، وارجوكم الا تضحكوا منى ، اننى قد تزوجت السوالم ، قبلى وبحري ، واننى قلت لها ذات مساء أحبك ، وكنت صادقا ، كان القلب ظامئا والطريق مجدبا ومكان اللقاء متاهة. الشوق بعيد ، بعيد. وقالت لى السوالم ، وشعرها يغطى الجسد الذى يبدو بياضه من خلف الظلام ، أنا ايضا احبك ، اقول الآن النعيم ليس شيئا فى العالم الآخر ، حيث جنات عدن والانهار والملائكة ، النعيم يجب ان يكون على الارض ، وأن لم يكن موجودا فمهمتنا ان نوجده ، نخلقه ، فى السوالم ، فى الارض

والبيوت ، فى قيعان نفوس الناس البسطاء ، يكمن الجواب على الحيرة والتساؤلات والاتهامات اليومية ومن يبتعد عن هذا البلد ، فلقد قام برحلة خرافية ، بلا نقطة ابتداء وبلا امل فى الوصول الى مكان ما .

قابلت رئيس مجلس القرية فى شبشت الانعام ، سلم على ، رحب بى ، جلست معه طويلا ، حدثنى عن متاعب منصبه ، شربت القهوة ، ان السوالم تتبع مجلس قرية شبشت الانعام ، عرضت عليه افكارى ومشروعى ، حاول ان يعترض ، لم يرجع الى رؤسائه فى مجلس المدينة ، قلت له اننى قمت بعمل اللازم قبل حضورى وعدنى بأنه سيكون معى . قال لى ان عدم الفهم هو اس البلايا فى هذه البلاد ، الرجال لا يفهمون حقيقة ما يحدث للبلد . التعامل مع الناس شديد الصعوبة . قال الرجل وهو يقف : اى محاولة للاصلاح لا قيمة لها ما لم يتعلم هؤلاء الناس القراءة والكتابة اولا . كرر . القراءة والكتابة قبل كل شىء . اكمل : الايام القادمة ستحمل للبلاد الخير . قال انه يتمنى لابنه الذى يتعلم فى مصر ، أن يكون مثلى . قمت معه ، شاهدت الوحدة المجمعة ، زرت المدرسة والمجموعة الصحية والمركز الاجتماعى . ذهبت الى مركز ايتاى البارود ، فى المركز قابلت اكثر من مسئول ، قال لى الشاويش وانا خارج من باب المركز : ان الحال امان . ابناء الليل اختفوا ، الرجال فى هذا الزمان نادرون ، طلب الى ان اطمئن لكل الناس ، لقمة العيش قهرتهم . الناس لاتريد الا ان تعيش فى سلام . قابلت مفتش صحة المركز ، طلبت منه أن يتعاون معى ، أبدى استعداده . فى طريق عودتى بالسيارة ، على الطريق الزراعى ، كانت سحب الغبار ترتفع ونثور حول السيارة وكنت افكر فى كل الذين قابلتهم ، أدركت حقيقة هامة ، قرأتها فى حياة السوالم ، وتأكدت لى بعد هذه المقابلات الحياة معمرة . القيم والتقاليد رسخت ، وفهم الناس من الصعب احداث تغيير فيه. مجرد تجاوب الناس معى معجزة . القدم اكسب اكثر الاشياء دمامة وقبحا والقة جعلتها تبدو رائعة فى العيون. الناس جميعا . مغروزون فى طين الارض حتى رقابهم ، وعيونهم المثبتة فى الارض تدور فى رهبة ، فى كل ناحية. الاختيار صعب ، فى صعوبة الموت نفسه . الحياة بشكلها الواحد ، والوجود بثباته ، يثير فى نفسى الفزع . نظرت الى الطريق والحقول والناس ، ادركت ان ما يجول

يفهمني بعد اكتشافا ، قلت ان تدوين كتاب عن الحيــاة هنا امر بالغ الاهمية .

منذ يومين ، قال لى حب الدين ، وهو يودعني ، عنــد باب الخيمة ، وكنت استعد للنوم : ان الفلاحين يقلبون الارض فى هذه الايام ، تمهيدا لزراعتها بعد ايام الجفاف وأن قلب الارض معناه أن يحلم الناس بالليل . قال لى : انني قد احلم . ولذا فانه من المستحسن ان ابقى فى الخيمة ، مصباحا مضاء اثناء النوم . قال حب الدين : اهل البلد يحلمون الآن أحلاما ســـعيدة . فشكرته . استدار حب الدين ، اشار بيده اليمنى الى البلد كلها :

ــ اهم كلهم بيحلموا

قلت له :

ــ تصبح على خير

وقلت لنفسي : كلنا نحلم فى نهاية الامر

آخر الليل ، فى عشة سلسبيلة

ينصرف الرجال ، يتمنى كل منهم للآخرين ليلة سعيدة « تصبحون على خير » يردون يقولون كلمات منطفئة ، ينهون بها سهرهم ، يذهب كل رجل الى منزله . لسوالم تكتسب معنى جديدا بالنسبة للرجال ، القمر فى السماء العالية ، يبدو مشطورا ، نصفه فقط ، يرسل ضياءه على البلد والرجال ، وفى الحوارى الواسعة ، يبدو أن الاضواء الشاحبة التى يلقيها القمر هى التى تملأ خيال الناس بحكايات عن العفاريت والجن . وفى الباحات ، أشجار عجوزة ، ترقد ظلالها تحت اقدامها فى سكون . وفى الليالى ، لا يبقى للسائرين فى الظلام ، سوى القشعريرة ملء الجسد والقلب والعقل ، صلوات الاستغفار والاستعاذة على طرف اللسان ، ان السكون الرمادى الموحش يصيب الرجال بخوف لايبعث الى قلوبهم بالبرودة والانكماش ، خوف من نوع آخر حار ملتهب ، مرتبط بحكايات سمعوها وهم صغار فى ليالى الشتاء الطويلة ، عن العفاريت وأبناء الجان ، وقد يحلو للرجل أن يذهب الى حقله ، وعندما يمر على آخر بيوت البلد ، تبدو له أشعة القمر الفضية ، تنساح على السهول الواسعة ، وتمتد المسافات ويبتعد خط الافق ، وفى البيوت النائمة ، التى اختلطت ببعضها ، فتاهت معالمها ، وتحولت البلدة كلها الى كتلة من السكون الموحش ديك كبير فى قفصه ، خدعه ضوء القمر ، ونسمة هواء باردة ، فانطلق يصيح ، معلنا ميلاد يوم جديد ، ناشرا الاضطراب والحركة والصياح بين باقى ديكة البلد الاخرى . آخر الليل فى عشة سلسبيلة ، معناه أن ينصرف آخر زبون ، أن يقول الرجال كل ما عندهم ، أن يلعبوا الورق ، ويدخنوا ويشربوا الشاى ، ثم يرين عليهم صمت شفيف ، ولا يبقى أمامهم سوى أن ينصرف كل لحاله .

حب الدين وسلسبيلة بمفردهما ، ستبقى هذه اللحظة الصامتة المشحونة سرا خاصا بهما . ينصرف الرجال، ويجد نفسه بمفرده

معها يجيش وجدانه بأشياء غريبة ، وهما فى العشة ، أثناء جمع أشيـــائهما ، البراد والاكواب ، الراديو ، الجوزة ، الطبليـــة ، الورق . يدلق مياه باردة على النـــار المشـــتعلة ، يلم الحصر . يتحاسب حب الدين مع سلسبيلة ، يحسبان ما عليهما ، ما لهما ، يدونان الشكك فى الدفتر ، تعطيه النقود التى معها ، تطلب منه أن يذهب فى الصباح الى ايتاى البارود لشراء المونة ، تعدد له ما تحتاجه ، وفى آخر حديثها : تطلب منه بحروف لينه ممطوطة . أن يشترى لها أشياء خاصة بها ، اشياء لا تبـــاع فى الموالم ، ولا تسمع عنها النساء .. أحمر شـــفاه ، بودرة ، قمصـــان نوم نايلون ، سوتيان ، وتوصـــيه ، وتحلفه برحمـــة من ماتوا ، أن يشترى لها هـــذه الطلبات بعناية ، وأن يختارها بذوقه ، وهى تثق به .

حب الدين يسير فى حوارى البلد ، سلسبيلة تحمل على رأسها قفصا صفيرا ، وضعت به العدة ، وفى سيرهما ، فى حواررى البلد ، تنبح الكلاب ، فى الباحات وعلى رءوس الحارات ، يسألهما الخفر . من هناك؟ يمران عليهم ، يرد : أنا حب الدين . الخفر جالسون ، بنادقهم بجوارهم مسنودة على الحائط ، انهم يتحدثون ويدخنون .

فى الليـــلة الاولى ، اصطدم ثدياها النـــافرين بعظام صـــدره ضغطت عليه ، احتوى ليونة صدرها ودفئه بين ساعديه ، تحولت الاشيـــاء القريبة من عينيه الى بياض فى لون الحليب ، يملأ كفه بغدائر الشعر الليلية ، يمسك يديها بين يديه ، يسيران فى الحجرة

ــ تتجوزنى ياحب ..

شىء ما ، يبدد بخار الرغبة فى يافوخه ، يفيق ، يحس بدفئها قريبا منه ، يتوقف ، تنزلق الـــكلمات من طرف اللسان ، تنام رموشها على العيون الواسعة .

ــ بينى وبينك لا ، انما قدام الناس دا لازم يحصل .

تتحسس ملامح وجهه المجهدة بأصابع يدها الناعمة ، يقف ، تمشى أمامه ، وحينما تمشى ، فانه يدرك ، أن قدميها تدب على رموش العين ، وتدوس فى حبات القلب فتدهسهما بما فيها ، ولا يوجد فيها سوى بقايا أفراح عجوز صدئة .

ــ تتجوزنى ياواد ياحب ..

تسكره الـــكلمات ، تقترب منه ، يزداد ارتفـــاع السقف ،

تبتعد الجدران ، ويشعر حب الدين باحساس ساخن يحتويه بداخله .

ـ ا .. ت .. ج .. و .. ز . ك

قالت له سلسبيلة وهما يسيران فى حوارى البلد :

ـ دا حرام ، احنا آخر ناس نروح

لم يرد عليها . جال بخاطره احساس بأن الله قد تاب عليهما ، عما قريب يعمل بالنهار مثل كل الناس . وقد يستطيع مواجهة نفسه . منذ سنوات خرج من السوالم شاب سغير خجول ، يهيم بعيداً عن الناس ، سافر الى دمنهور . كان يطلب العلم . الرجال والنساء الذين شاهدوا الشاب فى الصباح البعيد ، ما زالوا يذكرون . ان أرصفة الجسر . كانت مبتلة . وان احتمال مجيء سيارات كان ضعيفا . بسبب الشتاء . فى الاجازات . كان الصبى الصغير . يعود الى بلده . يصافح الرجال . يقبله الصبية . يجلس على الجسر طويلا . يقرأ ويفكر ونادراً ما كان يتكلم . بعد عامين عاد من دمنهور . عاش فى السوالم . كانت الحياة بالنسبة له ، نوعا من الانتظار المستمر . المعجزة قد تحدث . فى الصباح ينتظر لحظة العصارى ، ووقت الغسق يتمشى بمفرده على الجسر . يجلس على افريزه فى الليل . يدور فى حوارى البلد . ويقف أمام دكان المعلم يعقوب ، ثم يعود الى منزله . الليل بالنسبة له رحلة طويلة . يقظة حارقة . يتقلب . يدور حول نفسه ، ينقذه من رحلته صياح ديك فى منزلهم ، فيدرك انه عائد من رحلته ، القوافل ظمأى ، وينبوع الماء فى السماء التاسعة . الاهالى تدرك انه فشل فى تعليمه . قالوا عنه . ذات مساء . انه مثل التى رقصت على السلم ، بخته مايل ، من ظلم أبيه الناس . الله يمهل ولا يهمل . الفقراء أكدوا ان والده سيترك له أرضا . وفى هذا الكفاية ..

شاهدها لاول مرة فى ايتاى البارود ، اقترب منها ، اصطدمت نظراته برموش العين السوداء . ونسجت الشفاه كلمات عذبة غير مسموعة . سكر ، آه لو استطعنا ان نمسك النجوم بأيدينا المشوهة الاصابع ، أو نصنع بها من حبات العيون والقلوب أكثر العقود حلاوة ، أو تغسل بدموع القلب كل الاحزان . سلسبيلة لا أضع نظارة على العينين ، ولا ارتدى بدلة انيقة ، كما يفعل

اهل البندر ، غير اني استطيع أحيـانا ، أن أرص الـكلمات . ملساء ناعمة ، ويكون فى الاعماق عندئذ ، شيء هادر ، فى عنف حركة الاشجار المجوزة فى الحقول وقت هبوب الرياح .

فتحت سلسبيلة الباب ، دخلت ، أشعلت المصباح الصـغير ، وضعت « القوالح » فى المنقد ، دلقت عليها الجاز ، أشعلت النار. راحت ترتب المنزل ، خلعت شبشبها ، احضرت البخور، وضعته فى النار ، عبق البيت برائحة محببة الى نفس حب الدين ، تذكره بآخر الليل . أمسكت بذيل جلبابها ، رفعته ، خلعته ، اصبحت أمامه بقميص النوم ، ترك جسمه يتهاوى الى الارض ، جلس فى أحـد أركان الحجرة مستندا الى الحائط ، اغمض عينيه نصف اغماضة . وفى الخارج ، الف الف عين تحدق فى منزله ، جفت بها المضاجع ، تركت نومها ، لدى سماعها صوت بابه وهو يفتح ، ألف الف اذن تسمع أقل حركة ، حتى عيون السواقى ، واوراق الاشجار ، ونصف القمر المشطور ، خيمة الضوء الشفيف تغطى البـلد ، تعرف حكايتـه ، تحسده على سـلسبيلة ، تذهب الى دوار العمدة ، تشى به ، تقول ما تشاء قوله ، ترسل الى المركز الشكاوى ، تجلس بجوار الشيخ محمود بعد صلاة العشاء ، تطلب منه أن يقوم المعوج ، ويرشد الضال .

ــ واد ياحب ، مالك الليلة ؟

جالت بخاطره رغبة ، كان يريد أن يسمع اسـمها كاملا . سلسبيلة على الله ، سلسبيلة على الله . تذكر المـاء والظمـأ . والقوافل العطشى ، وكراهية اهل البلد له ، ونظرات حبها كأول وآخر أمل له فى الحياة .

ــ واد ياحب ، انا سلسبيلة ..

أطل عليه عصمت فهمى النجعاوى ، أصدق آمال العمر، الامان والعمل والخير ، ذات مساء . قال له المعلم يعقوب : ما من أحـد يضمن الدنيا ، يجب أن تتغدى بها قبل أن تتعشى بك . قال له : فى الارض قيود تربطه بالبلد . الدنيـا مليئة بالاشياء الجميلة ، اقاؤه بالمعلم يعقوب هو السبب ، لا يذكر متى تم ذلك . يذكر انه قال له : أن بيع الارض من أسـهل الامور ، وقال له المعلم يعقوب ، وهو يأخذ منه الارض قطعة ، قطعة : أحب كارهك . بارك لاعنيك ، اذا ضربك احد على خدك الايمن فأدر له الايسر . وفى حجرته الصـغيرة ، شرب لاول مرة ، وكان ما سمعه منه

يومها ، ما دامت اهدافنا شريفة ، فان كل ما تقوم به مشروع ، ولا أحد من حقه ان يتدخل فى شئوننا . قال له : ان المصريين لم يأخذوا من الارض سوى الشقاء . أكد له المعلم يعقوب : انه يحبه لحد الجنون ، وانه أرجل أهل السوالم . حب الدين يسمع كلاما جديدا . فشلت فى تعليمى يا معلم ، وطعم الفشل أمر من العلقم ، الشماتة تكوى القلب والمستقبل مظلم . رد عليه المعلم يعقوب : العظماء دائما يفشلون فى البداية ، وانه لا يجب عليه ان يهتم بمثل هذه الامور .

عندما وقف حب الدين يوم السوق ، على الجسر ، يبيع أول قطعة من أرضه للمعلم يعقوب . لم يقل له أحد ان فى باطن ارض السوالم يكمن السر والخلاص ومعنى الحياة ، استسهل بيع الارض ، وفى كل مرة ، كان يوقع عقد بيع ابتدائى ، كان يتذكر والده ، ويتذكر ان الناس قالت عنه ، انه ظالم ، وان هذه الارض أتت له بلا متاعب ، وبنفس الطريقة ، فان الارض تضيع ، وفى كل مرة ، كانت صورة أبيه فى ذهنه تزداد تباعدا ، ويحيط بملامحها ضباب جديد . أخوته الذين هاجروا الى البنادر ، يرسلون له الرسائل ، خطابات تحمل أختاما سوداء ، الارض التى تبيع فيها ، ليست ملكا لك وحدك . أوقف كل ما قمت به ، اى اجراء باطل ، سنقاضيك ، احترم ذكرى والدك ، ليس من حقك ولا من حقنا ان نتصرف فى شبر واحد من الارض .

ان سلسبيله تقف نصف عارية ، امام حب الدين ، بياض الجسد يبدو شديد الوضوح من تحت القميص الشفاف ، وعلى الكتف ، كتل الشعر الليلية ، وفى العيون وسن لذيذ . سلسبيله تمد يدها اليه ، وفى يدها الاخرى طبلة صغيرة .

ــ واحده ونص ياحب ..

ترقص ، تحيى جمهورا لايراه سواها ، تستعيد ليالى مضت ولن تعود ، وتحادث أناسا تراهم فى جو الغرفة ، تغنى كلمات عن النصيب وزمن السفر والترحال ، وتقول وقد أسكرها الليل ، رأيها فى أهل البلد .

ذات مساء ، استدعى العمدة حب الدين الى دواره ، طلب منه ان يطرد الخاطئة التى احضرها من البنادر . الناس عائلة واحدة أهل ، ووجود هذه المرأة خطر . الرجال اكلت وجهه والالسنة لا ترحم ، انه يحدثه الآن بالحسنى ، كذب ، أخبره انه تزوجها

على سنة الله ورسوله ، عقد القران فى طنطا ، فى مسجد السيد احمد البدوى ، وهو راض عنها ، أخرج العمدة من جيبه عريضة كبيرة ، عليها آلاف التوقيعات . لذا فنحن نفوض الامر لك ، فى هذه المصيبة التى ابتلانا الله بها ، فأنت ولى الامر فينا. ان مجرد وجود هذه الفاسقة فى بلدنا ، دلالة غضب الله علينا ، واقبلوا التحية . قال للعمدة يومها ، سلسبيله هى آخر ما يملكه ، الرسمال الباقى، وان من ينظر اليها ، سيفتح بطنه بمطواةحادة . لقد أدرك ان البيت لم يكن يمنحه الامان ، كان يذكره بأنه ضال. وعلى أجنحة الليل ، كانت تسبح المخاوف والاحزان ، وعندما يموت الليل ، يرسو الذبول والاحلام المحنطة والامانى المذبوحة ، تبقى معلقة فى عينيه وقلبه حياة لن يحياها أبداً .

تستدير عطيات ، تبدو ثنية الفخذ واضحة ، تسير بغنج ودلال . يشم رائحتها ، ويتذكر السهر الحارق فى لياليه الاولى معها . سكر ، عطيات ، جسدك ينبوع الحزن ومتاهة الشوق واخدود الرغبات المحمومة . انت يا سلسبيله الامل . تقبلعليه ، يعلن الجسد عن شكله وتفجره ، من خلال الملابس الشفافة .

حب الدين يأخذ الطبلة من سلسبيله ، وسلسبيله تقف أمامه ، وقد لفت حول وسطها لاسته البيضاء ، كى ترقص له وحده . انها تخفى فى صحارة ملابسها بدلة رقص قديمة ، لفتها بعناية داخل جريدة ، أقسمت بأنها لن تلبسها الا فى ليلة الدخلة ، يوم أن تتحقق الاحلام ، ليلة أن يتزوجها خب الدين ، يحبها لدرجة الجنون ، انها كل ما فى دنيـــاه . وبعد الحصول على الوظيفة الجديدة ، سيتزوج فورا . والا فمرحى يا ليالى الفرســان المسحورين ، حيث السفر والترحال . صدقته ، قالت انها تحبه، لم تكن صادقة فى كلامها ، كان القلب ثملا بذكرى عصمت وحارة باب الوداع والشاب المنتحر حب الدين يضع الطبلة بجواره ، يمد قدميه ، ويتذوق على مهل ، حزن السنين القديمة . سلسبيله تمشى الآن فى الحجرة ، ورائحة احتراق البخور تزحم انفه ، ورموش حب الدين تنام على عينيه . وفى أعماقه تنتشر أخاديد المرارة . فىالليلة الثانية ، اقتربت منه ، سكر، ووجدغابة الجوزة بين شفتيه .

ـــ شد ، شد ياواد ياحب . .

شد كما قالت له ، واستمر ، وطقطقت النار فى الحجرة ، فتح

فمه عن آخره ، وخرجت كتلة من الدخان الازرق الغامق ، احس ببخار دافىء يصعد الى يافوخه ؛ ونبتت بين أصابع قدميه حبات عرق دافئة ووهنت دقات القلب ، لم يعد يشعر بها ، وفقد السيطرة على أطراف جسمه . الغابة تندس بين الشفتين مرة اخرى ، أطبقت الشفتان على الغابة بعصبية ، خرج الدخان من فتحتى منخاريه ، صعد البخار الساخن ، انفكت عقدة اللسان ، زاغت النظرات ، واحس أن جسمه ينصهر ويعود الى اصوله الاولى ، شعر برغبة فى الضحك ، فاستلقى على ظهره وضحك ، اهتز الجسم كله من شدة الضحك . قامت سلسبيلة ، وقفت ، بدت له فى نومته ، مساحة هائلة من اللحم الابيض ، بدى له صدرها العريض ، يسد الحجرة ، سارت ، تحركت فى الحجرة . وقال لنفسه : يوجد هنا كنز الكنوز ، وبين طيات اللحم يكمن السر ، الدنيا لم تخلق الا للراحة والنوم والاسترخاء . العمل جنون وعبودية ، وقرر بينه وبين نفسه الا يقوم من هنا ابدا ، وأن يظل هكذا ، حتى آخر أيام العمر ، حتى آخر أيام العمر .

– تعالى جنبى ياسكر ..

لن ترد عليه ، لن تقترب منه . السكر والرقص والتوهان وتداخل الاشياء ، شواطىء أمان لن يصلا اليها الآن . انها تريد أن ترقص ، أن تطير ، أن تدور فى الحجرة ، تدوس على الارض ، وتحمل السماء فوق الراس ، وبعد أن تحيى الناس ، وتسمع كلمات الاعجاب ، تأتى اليه ، تمنحه كل مايطلبه . شعرت سلسبيله بالاهانة ونظرت اليه بدهشة ، كانت تريد أن تسمع غناءه ، كلماته الموشاة بالوجد ، المبللة بالوصال . وتنام فى آخر الليل على وسادة الصوت الحنون . حب الدين يشير اليها ، يطلب منها أن تجلس بجواره ، أن تنام ، أن يغوص رأسه الملتهب فى لحم فخذها الابيض ، أن تنام يدها البضة على جبهته الساخنة ، ويسمع منها حكايات آخر الليل .

– يا سلسبيله ..

سلسبيله كما هى ، وهو لا يجد فى نهاية الامر سوى نفسه ، انه يريدها بكل قطرة من دمه ، بكل نفحة هواء ساخنة فى أعماقه يشعر بضعف يسرى فى نفسه . ويوم أن عرض عليها أن تعيش معه فى البلد ، قبلت ، منحته كل ما قضى العمر يبحث عنه ، وقال لها : انت أحلى من على الارض ؛ الله لم يخلق الجمال الا ليكون

احدى صفاتك ، ردت عليه : وانتَ اعظم رجل قابلته فى حياتى .
– مالك ياحب
رشف بلسانه طعم الوفاء ، وشم رائحتها . الـكلاب تنبح فى الخارج نباحا متصلا . احتضنها .
– الـكلاب ماسكه الليلة ، لازم فيه حاجه حا تحصل
افهمها ان الكلاب ترى ما لانراه نحن وان الله قد اختار لها ذلك لانها لا تستطيع أن تبوح بالسر . قالت له سـلسبيله انها معه مهما حدث
– سلسبيلة .
– حب .
كان يود ان يسألها ، هل ملت معاشرته ، هل سيعود ذات يوم ليجدها قد ذهبت (وقد يحدث هذا) . كان يدرك ان نصف كلامها كذب ، ولـكنه كان يقنع نفسه انها الصدق نفسه . وهو معها ، كان يحس بخوف ، كان يود أن يدخل بداخلهـا ، حتى يحتمى بها . وكانت كفاها تدوران على ظهره ، تمســـــح عنه الاكاذيب والخوف والقهر، كفاها لا تغطيان ظهره كله ، هناك مساحة عارية، معرضة للضرب والطعنات وشك الابر وقرص الاصابع . كان أحيانا يغرق فى عرقه ، وكان يحاول أن يبتعد ، وهى اسفله ، ينظر الى الامر ، فيجد ان تحته فراغا عميقا ، وكان يخاف السقوط . فكل شىء ، حتى حبات العرق على الجسد العارى تشير الى اسفل .
وقال ان عدم وجود الرغبة فى شىء ما ، هى خير وسيلة لامتلاكه . وأن الخوف من الفقر ، هو تسليم أكيد بأننا نفقد العمر فى معارك صغيرة ، سمع ما يقوله الودع ، وقرأ بخته ، وقال لنفسه :
– ليرحمنا الله ، فليس لنا الآن سواه .

حب الدين يقف ، يفتح عينيه عن آخرهما ، يخلع بقايا ملابسه، ويتجه مع سلسبيله الى الحجرة الداخليـة ، واضـعا يده على ظهرها ، وهى تنظر اليه ، وأصابعها البيضاء الصـغيرة ، تجوس خلال شعر صدره الغزير .
– الا ابوكى كان اسمه ايه يابت .
لا ترد عليه ، تجلس ، تبتسم له ، تبدو البسمة كوعد بدنيا لم يعشها بعد ، وسكر بعيدة نائية ، وليطلق سهامه وينطلق ، فهى تبتعد عنه وهو يجرى ويجرى .
فى الايام الاخيرة ، كان يلتصق بها ، وعندما يكتشف جزءا من

جسمه بعيدا عنها ، كان يفزع ، ويقترب من أحضانها اكثر يمسح بلسانه يدها وصدرها ، ويمرغ عينيه فى جسمها . لم يكن يدرك ان الحب العنيف معناه أن العلاقة تعيش نوعا من التحول الى شكل آخر. كان يخاف من الكذب والقهر. انه يطلب نوعا جديدا من المياه يغسل به الحياة من حوله ، قالوا له ، هذا النوع من المياه ، غير موجود ، وقد يطلع من باطن الارض ، أو يهبط من السماء فجأة دون موعد .

كانت أيامه معفرة الجبين ، مشروخة ..

على الطريق ، نقاط العرق ؛ علامات القدم الحلو ترشده . وفى الخارج ، كل البلد تعرف ما يحدث ، أوراق الشجر ، مياه الترعة ، مناقير الجنادب ، عيون الحيوانات النائمة فى الحظائر ، فوهات بنادق الخفراء المسنودة على الخوائط يأكلها الصدأ . يتذكر وعد الزواج ، ويطلب منها بفم غير فمه ، أن تتعرى « كما ولدتك أمك بالتمام » نقوم ، تخلع قميصها ، تفك شعرها الاسود . حب الدين يقترب من سلسبيله ، وفى سيره البطىء اليها ، فان ظله يستطيل خلفه ، راسما على أرض الحجرة خطا متعرجا كطريق الثعبان .

ومهما فعل ، فانه لا يضاجع فى نهاية الأمر ، سوى نفسه .

قال المهندس : أما بخصوص الاخ الملوم ، نظرا لخبراته السابقة حانستعين به فى مشروعنا ، رئيس شئون العاملين ، بصفة مؤقتة ، يهمنا أساسا الكفاءات بصرف النظر عن أى اعتبارات ، عرف المهندس من الانفار ، انه لن يتعاون معه أحد الا عن طريق الملوم . الايام بلا عمل ، لايوجد فى البلد نفر واحد غير مدان للملوم ، ولا يستطيع العمل الا عن طريقه .

فى كل مساء ، يجلس الملوم ، على المصطبة ، امام منزله ، يحصى فى ذهنه الانفار الذين يتعامل معهم . يعرفهم فردا فردا ، يحصى من يتعامل معهم من أصحاب الاعمال والاراضى ، الملوم نادرا ما يدون أسماء فى أوراق معه ، عقله دفتر . ما رآه الملوم فى حياته علمه الكثير ، واهم ما تعلمه الا ينسى أبدا .

فى البداية ، كان عمله صغيرا ، نفرا أو نفرين ، يؤجرهم أصحاب الاراضى ، الذين لا يعملون بأيديهم فى حقولهم . سماه الناس ، الخولى الملوم . بالليل ، يمر على الانفار « الرجل بعشرة قروش ، والصبى بستة ، والقبض آخر الاسبوع » . أهالى السوالم يتذكرون منظره أيامها ، كان شابا خجولا ، لا يدخن ، فى يده خيزرانة ، يضع يده اليمنى فى فتحة جلبابه الزفير ، يسير فى الحوارى ، يقف أمام ابواب البيوت ، يقول : يا ساتر ، يخرج طفل صغير ، يسأله عن أبيه ، يخرج من الداخل صاحب البيت ، يقول : اسم صاحب الحقل الذى سيعمل فيه ، وميعاد العمل ، يطلب منه أن يأخذ معه طعام الغداء بدلا من الرجوع الى البلد وقت القيلولة . أحيانا يطلب منه الانفار ، جزءا من الاجرة ، فيعطيهم مايطلبونه ، اللقاء أمام مسجد سيدى الغريب فى الصباح ، البركة فى البكور . قبل ان تشرق الشمس ، يلتقى الملوم مع الانفار ، يتجهون الى مكان العمل . فى الحقل يستبدلون ملابسهم بملابس الشغل ، يلفون الاكل بالملابس ، ويضعونها فوق أفرع الاشجار ، ينتشرون فى الحقول الواسعة ، يقف الملوم وراءهم ، يلاحظ عملهم ، فى آخر النهار يعودون الى البلد .

الناس ما زالت تذكر نجاح للوم السريع ، يلفت نظرهم ، ملابسه النظيفة ، الساعة التي يلفها حول معصمه ، الجزمه أم أستك ، الشراب الاحمر ، الطاقيه الصوف التي اشتراها من المحلة الكبرى ، الصديري الشاهي المعتبر ، تهديده الدائم لكل من يختلف معه ، كلامه بالفم المليان ، يد للوم ضاعت منها الشقوق ، فالعز والغني له علامات يعرفها الناس . النساء تقول، تعليقا على غني للوم السريع : كل شيء قسمه ونصيب ، وانه لا أحد يعرف كيف تسير أمور الحياة .

قال ورداني : للوم لم يرث من والده شبر ارض ، كل ماكانت تملكه العائلة ، مساحة منزلهم الصغير ، ومتر فى متر مبنى فيها القبر الذي دفن فيه ابوه . مات أبوه ، وهو يتمنى أن يفتح الله عليهم ، بقطعة أرض ، فالذى يعيش فى السوالم ، دون أن يملك أرضا ، يعيش ويموت ، وهو مقطوع الجذور ، محروم من شيء يحصل عليه الآخرون . الزمان لم يجد عليهم بما يطلبونه ، وقالت أمه : لنا الله .

الحال تسير بلملوم ، وعندما يسأله أحد ، يقول ان الامور ماشيه والحمد لله ، الآتى مثل المنصرف ، وانه يعيش علىالكفاف ، ويقول انه راض بعمله ، وبكل ما تاتى به الايام والليالى ، حسده الناس ، ان المزارعين فى البلدان الاخرى يسمعون عن للوم ، فى مواسم العمل ، نقاوة الدودة ، او زراعة القطن ، جنى المحصول، تقليع البطاطس ، يهل على السوالم ، رجال عليهم القيمة ، يركبون الركائب المطهمة ، انهم من بلاد اخرى . على الجسر ، يسالون عن منزل للوم ، يقوم ابو السعود ، لا يتركهم ، يذهب بهم الى منزل للوم ، على المصطبة ، يجلس معهم للوم ، الناس تلاحظ انجسمه قد امتلأ قليلا ، انها أيام الخير . يرحب بالرجال ، يسألهم عن الصحة والحال ، يتمنى لهم محصولا وافرا ، يقول لهم : انخيرهم خير له ، يعقد معهم الصفقات ، يبدأ الفصال . تعلو الاصوات ، تخفت ، يقرأون الفاتحة . يرفض للوم أن يكتب معهم اى أوراق . يقول لهم : ان الانسان يربط من لسانه ، كلام الرجاله أهم من أي ورق مكتوب . يشربون الشاى ، يرص لهم ابو السعود العسل، يدور عليهم بالجوزة ، يحضر لهم المياه الباردة فى القلل المبلة من الخارج ، يقومون ، يعزم عليهم بالعشاء والمبيت عنده ، يعتذرون بأن وراءهم أعمالا كثيرة بسبب الحصاد . يقولون له : ان مقابلته

وصدقه فى العمل ، اهم من اى عزومة . ينتهى اللقـاء ، يسمع هالى السوالم من الرجال العائدين الى بلادهم ، كلاما عن الملوم ، يقولونه وهم راكبون فوق ركائبهم ، ان ما يميز الملوم هو دقته ، محافظته على كلامه ، رجل سابق لاوانه ، والرجال فى هذا الزمان قليلون . صيت الملوم يطير الى البلاد الاخرى ، والكل فى السوالم ، يراقب ما يحدث بعيون ميتة . ذات صباح ، يشاهد المارون ، امام منزل الملوم ، عمال بياض ، سلالم ، جير أبيض على الارض ، فتيات يملأن الميـاه من الترعة ، أكثر من رجل فى خلاء بيته ، انه يعيد ترميم الاجزاء المتهدمة فى بيته ، ويطلى باقى البيت ، تمهيدا لبناء بيت آخر ، عندما يفرجها الله . قال له : من يحبه ومن يكرهه « ألف مبروك » سألوه : لم لم يتزوج ؟ قال لهم : « لسه بدرى » لم يزل صغيرا . وتمنى الرجال ، وهم فى الطريق الى حقولهم ، فى ذلك الصباح البعيد ، أن يجدوا أبناءهم الصغار فى مثل نجاح الملوم ، ابنات الصغيرات ، الجميلات على وجه الخصوص ، منت أكثر من بنت نفسها ، بان تكون من نصيب الملوم . عندئذ ، تذكرت أكثر من فتاة ، ان الملوم سبق أن داعبها من قبل ، أو ابدى اعجابه بها ، فى الحقول الواسعة ، فى وقت القيالة ، هذا كله ، كان فى الايام الخوالى . تغيرت الحال الآن .

مشاريع الملوم تعددت ، وحسب له ابو السعود كل شيء ، وقال عنه الرجال ان مكسبه فى اليوم الواحد لا يقل عن خمسة جنيهات مصرية ، النقود سرعت الولد ، فأصبح كل وجوده من أجل الحصول على مزيد من النقود ، يصل الى السوالم ، مندوب من جناكليس ، مجموعة من الافندية ، يركبون سـيارة مكتوب عليها « محافظة البحيرة » . يسأل القادمون عن الملوم ، يتركون السيارة فى أرض الوقف ، يسيرون على أقدامهم ، أول مرة ، تحضر فيهـا سيـارة حكومية ، لا تسأل عن العمدة أو شيخ البلد ، تذهب من فيهـا الى الملوم .

فى منزل الملوم ، السلام والتحيات والتعارف ، كما يفعل كبار الموظفين فى البنادر ، والطريق من الحجرة الضيـقة ، المفروشـة بالظلام ، حتى المندرة البيضاء ، المزدانة بالرسـومات الرائعة ، حيث يجلس الملوم ، خيوط من نظرات الرجال المحيطين بمنزل الملوم الملوم فى سعادته ، ينسى انه عمل فى حقول الناس بأربعة قروش فى اليوم ، ايام بطولها ، قضاها محنى الظهر ، الخطوط بلا نهاية ،

يبتعد خط الافق كلما قترب منه . والشمس الحارة . تجلد ظهره بسياط لاذعة . سنوات عمره الاولى . الجراح فى الجسد والقلب . الامنيات المستحيلة التحقيق . رائحة التخديعة فى بيوت الفلاحين، تملأ خياشيمه فى ليالى الحرمان . شكل النقود الذى لم يكن يدركه جيدا . قلب الجلباب أربع مرات ، قال لملوم لأمه . ليلة الامس : ان أهل السوالم كلهم كلاب . نظر من نافذة حجرته . وكان الوقت مساء . نادى أشجعهم أن يخرج اليه . وسيقطعه الف قطعة . قال لأمه : انه كثيرا ما كان يسخر من حب الدين . عندما يتكىء على افريز الجسر . ناظرا الى كل شىء فى صمت . قال لأمه : انها لابد وأن تنعم بحياتها . لابد وأن ينتقم من أيام الجوع والعرى . كثيرا ما بكت امه . قالت انها لا تصــدق عينيها . ما تراه أمامها كثير . كثرة النقود تخيف مثل قلتهــا . قالت له . ذات ليــلة شتوية : النقود هى كل شىء . الانسان يستطيع أن يشترى بها البسمة على الشفاه . والدمعة فى المآقى . رجفة الحب فى حبات القلوب . النقود ثم النقود . ثم النقود .

— هود يعيب الراجل الا جيبه فى الزمان ده ..

قام لملوم . احتضن أمه . قبل يدها . قال لها : آمين . وقال لنفســه . ن كل شىء ممكن فى هذه الايام .

قال وردانى : دا الواد لقى لقيه .

قالت سلسبيله : راجل ولا كل الرجاله

قال حب الدين : الزمن دا زمن الـكلاب . زمن السرقة والغش والخداع .

قال العمدة : لازم اعرف دا حصل ازاى . الفلوس دى جت منين ؟

قال أبوالسعود : اسمعونى . كلـكم مجانين . الحكاية انا الوحيد اللى أعرفها . سأحكى لـكم الحكاية من أولها . أصلها وفصلها . الناس أسرار . والفضيحة مكروهة من جميع الناس . ما حدث مع هذا الولد . جعل القلب يفيض . السكوت حرام . يقول أبوالسعود كان من عادة أمه . بعد وفاة أبيه . أن تذهب الى منزل الصراف فى نكلا العنب . تكنس وتغسل وتمسح أرض المنزل . تروى الزرع فى الحديقة . تلاعب الاطفال الصغار . تشترى الخضار والفاكهة من السوق والجرائد اليومية من كفر عوانه . هاتى ميه يا ام لملوم، حاضر . اغسلى . حاضر . اطبخى . حاضر . اكوى . حاضر .

قشرى البامية ، حاضر ، خرطى الملوخية ، حاضر ، نشى الطير ، حاضر ، اقفلى الشبابيك ، حاضر ، سوى السرير ، حاضر ، هوى أوضة الجلوس ، حاضر ، امسحى الخشب ، حاضر ، اروى الزرع . حاضر . حاضر . حاضر .

الرجال يتحدثون ، الموضوع حكاية للوم . الغنى والفقر من اهم الامور فى حياتهم ، وحدوثها أمر لا يمكن أن يمر بسهولة على عيون وآذان الناس . وتجرح أصواتهم رداء الليل ، ويتنفسون مع الكلمات رائحة الايام الفارغة ، وجفاف الاراضى فى الحقول . لابد وأن يحضر النبى الذى تحدث عنه سيدنا الغريب فى كتابه الذى لم يعثر عليه أحد . يبدأ أبو السعود حكايته فى الظلام ، والرجال لا يملكون سوى الانصات . يقول ابو السعود ، وقد لمعت عيناه ببريق أبيض : كانت تذهب فى الصباح ، وفى المساء تجر قدميها على الطريق الخشنة ، فتتصور انها ربطت بمسامير، تحاول أن ترفعها ، فلا تقدر ، انها متعبة ، امرأة هدها العمل ، تريد بكل ما فيها من اعياء ، أن تنام فى أى مكان ، لابد وأن تعود الى السوالم . أحيانا كان الصراف يطلب منها أن تبيت عنده ، فى نكلا العنب ، بدلا من الذهاب والعودة كل يوم

– للوم لوحده يابيه ، دا عيل ويتيم .

كانت تعود .

معها بقايا أكل ، ملابس قديمة ، لقم مكسرة ، ذات مساء قبل أن تعود ، وجدت خزانة الصراف مفتوحة . أوراق النقود الخضراء والحمراء تملأ الارفف ، المفاتيح بجوار الخزينة ، رائحة النقود تعبق انفها ، رائحة تعرفها جيداً . وقفت مكانها ، شعرت بتنميل فى أطراف أصابعها ، سمعت دقات قلبها ، أحست بدقات القلب ، على جدار صدرها الداخلى ، مدت يدها ، لمت أصابعها ، استدارت ، كان الهدوء والصمت والسكون والجدران والنوافذ وباب الخزينة المفتوح ، يهيب بها أن تفعل ، تمد يدها ، بدلا من هذا الموقف البليد .

– يارب .

رفعت عينيها نحو السماء ، عبرت ذهنها ألف فكرة ، رفعت يدها ، امسكت رأسها المشتت ، تذكرت كلمات عن الامانة والمعصية والسرقة ، وسماء الله العالية ، والحساب ، رأت بعينيها مئذنة سيدى الغريب ، تطعن الفراغ مشيرة نحو السماء المغسولة

بالحنين والرحمة ، أوشكت أن تتراجع ، تغلق البــاب وتمضى ، الصراف يقول عنها انها امينة .. الامانة من أهم الفضائل فى بنى الانسان جميعا ، تذكرت المنزل الصغير ، ذهاب للوم ، حبة العين، الى حقول الناس ، العودة فى المساء ، الملابس المرقعة ، مساحات اللحم التى تبدو من تحت الخرق، أننوم بلا عشاء ، الاكل والشرب بحساب ، السطح الاجرد الذى لا يغطيه عود حطب . الفرن الذى لم تقدح فيه النار منذ ستة اشهر ، قبر زوجها الذى لم تذهب اليه منذ أن دفن فيه ، لعدم وجود ما تذهب به . فى لحظة خاطفة مدت يدها ، أخذت ما استطاعت أن تأخذه ، لفته فى ملابسها ، خرجت ، أصابتها رعشة ، سألتها زوجة الصراف عما أصابها ، جسمها مازال يرتعش، وعيناها تدوران ببطء ، قالت انها متعبة. فى المساء ، عادت الى البلد . وفى اليوم التالى ، اتى من فتش دار ام للوم ، بعد التفتيش ، اخذوا ام للوم وللوم معهم الى المركز . احتجزا هناك . وبعد أسبوع ، عادا الى البلد .

أظهر التحقيق ، انه من المحتمل ، ان تكون أم للوم اخــذت النقود ، كل الشواهد تشير الى ذلك ، عدم وجود ادلة ، وعدم العثور على شىء عند تفتيش المنزل ، أقوال الشهود لا تعد شاهد اثبات أو نفى ، ما قاله الشهود ، نوع من التخمين . اخذت ام للوم ـــ يقول أبو السعود للرجال ـــ النقود كلها ، الله وحده سبحانه وتعالى ، يعلم كم مقدارها ، من حقنا ان نتصور ، ماذا سيكون فى خزينة الصراف ، وقت الحصاد ، وتكلا العنب ليست بلدا صغيرا أم للوم ، يوم أن حضرت من تكلا العنب ، لآخر مرة ، وهى معها النقود ، كانت تسير ببطء ، تقدم قدما وتؤخر اخرى ، تستغفر، تطلب الرحمة من غفــار الذنوب ، تذكره بما آلت اليه الحال . جلست بمفردها فى منزلها ، وبعد أن نام الجميع فى الســوالم ، وانطفأت نجوم الليل ، وهبت نسمات الهواء الليلية ، ذهبت ام للوم ، ومعها ابنها ، الى المعلم يعقوب فى منزله ، كانت قد أرسلت للوم سرا اليه ، قال له : ان امى تطلبك فى أمر هام . وعندما ابدى استعداده ، قال له : ان أمه ستحضر بعد انتصاف الليل. على باب منزل المعلم يعقوب ، نقرت أم للوم ثلاث نقرات ، فتح الباب ببطء ودونما صوت ، دخلت بجانبها ، مرقت بسرعة ، وعلى ضوء شمعة خابية ، فى الحجرة الداخلية ، تم الاتفاق ، افهمها ماذا تقول ، ماذا تفعل ، وطلب منها ان تنفذ كل شىء بدقة .

يقول أبو السعود : الصراف دخل السجن ، كان المبلغ كبيرا ، زوجته قررت الرحيل الى بلدها عند أهلها ، وقبل السفر، كان لها مطلب واحد ، حضرت الى السوالم ، زهرة وذبلت ، ولكن رائحتها ما زالت بها ، أنها لا تطلب سوى يمين الله من أم الملوم ، بعد المنازعات والاخذ والعطاء والخوف من اليمين ، وسؤال الشيخ محمود ، قامت أم الملوم ، استحمت ، وضعت ابنها تحت يمينها ، ثم حلفت اليمين فى الباحة الواسعة ، أمام دوار العمدة .

الرجال يمصمصون بشفاههم ، أبو السعود يقول لهم : انها بعد أن حلفت اليمين ، ذهبت الى منزلها ، دخلته ، ولم تخرج منه بعد ذلك أبدا ، نزلت عليها النقطة ، وانها الآن لاتستطيع الحراك. المال والمنزل الجديد والجاه ، كل ذلك لا قيمة له أمام المرض الذى اقعدها فى الحجرة الداخلية ، يشير أبو السعود إلى السماء ، التى لا يبدو منها ، فى هذا الوقت سوى النجوم « الله موجود » .
الرجال فى حيرة ، وسيظل ثراء الملوم أمرا محيرا ، الرجال يقولون انه الحظ والشطارة ، البعض الآخر يقول انها نقود الصراف ، والبعض الثالث يؤكد انها لقية ، نقود من الذهب كانت مدفونة تحت منزلهم القديم ، وجدوها بالصدفة . يتفق الرجال على أمر واحد ، المعلم يعقوب هو الذى دبر الامر كله ، يده هى التى صنعت كل ما حدث . المعلم يعقوب لا يفعل هذا من أجل سواد عيون أم الملوم ، ولا من أجل الملوم ، ولكل شيء ثمنه .
يقول فتحى سالم ، تعليقا على ما حدث : أبدا ، الكتاب الذى كتبه سيدنا الغريب عن السوالم ، فى الصفحة الاخيرة منه ، أن الايام القادمة هى زمن العجائب ، سيحدث فيها للسوالم ، عجائب سبع ، وبعدها تقوم القيامة . العجيبة الاولى ، ثراء الملوم المفاجىء ، والعجيبة الثانية ، عشة سلسبيله وحب الدين .
— اللفندى الباشمهندس ، العجيبة الثالثة ..
يشير الى خيام المهندس النائمة فى أرض الوقف ، والرجال الجالسون حوله يحسبون فى عقولهم عدد العجائب ، ويصيح أحدهم : باقى أربع عجائب أخرى ، كى تقوم القيامة .

الملوم يجلس أمام داره ، على دكة من الخشب ، واضعا ساقا فوق ساق ، وقد قرر أن يتعاون مع المهندس . وعده المهندس بالكثير ، مرتب ، منصب ، مكتب ، سيارة ، مستقبل عريض .
قال الملوم للذين أرسلهم له العمدة ، كى يمنعه من التعاون مع

المهندس ، انه حر فيما يراه ؛ هددهم باجبار المهندس ، مصلحة البلد تفرض عليه أن يتعاون مع المهندس ، وانه ان امتنع سيقوم أى فرد آخر بذلك ، ولن يتعطل المشروع . فى الايام الاخيرة ، أصر الملوم على أن يناديه الكل ، بسيادة المدير العام ، دون ذلك تنى أوراقه ، وعلى باب منزله ، وأرجأ كل مشروعات عمـــال التراحيل التى كان يستعد للقيام بها ، وراح يقضى أيامه البطيئة المرور فى انتظار المشروع الجديد ، قال : انه لا أحد يعرف أين يكون الخير . ان عيوننا لا ترى ، ولذلك فمن الصعب معرفة النافع من الضار .

يتصور الرجال هنا ، أن سلسبيله هى أسعد خلق الله . شخص واحد ، فى السوالم كلها ، يعرف ان سلسبيله كثيرا ما تبكي فى الليل . تقول له : انها ليس وراءها ما يخيفها ، لم يكن هناك رجل يجرى وراءها ، يسأل عنها ، يطلب رقبتها ، يدور فى بلاد الله الواسعة ، يمسك سكينا يتربص بها ، بين المزروعات وخلف الابواب وعلى نواصى الحوارى ، كى يمسح الخطأ والالم والجراح . تقول لحب الدين ، وهى تبكى : ليس هناك مايستحق اللوم ، وانها تنتظر مشروع المهندس ولولاه لتركت السوالم ، وانها لا تطلب منه سوى أن يترك البلد معها ، فهو خسارة ، الدنيا واسعة ، يدها على كتفه ، ستضعه تحت رمش العين . وفى بلاد الله الواسعة سيجدان الكثير . قالت له : انه لم يجرب أن يكون وحيدا ، لا اهل ولا أصحاب له . قالت انها لم تشاهد أولادها منذ سنوات . تختم حديثها بالبكاء ، تحمر العيون ، وتبدو الخدود متورمة ، وفى الصباح ، تغسل بندى الفجر دموع ليلة الامس ، وتحاول أن تغنى .

ولدت فى حارة قديمة ، متفرعة من شارع محمد على ، بجوار باب الخلق ، اسمها فى شهادة الميلاد ، عطيات . والدها طبال ، يقول عن نفسه : ضابط ايقاع ، أما أمها التى لم نرها أبدا ، فكانت تعمل راقصة .

احبها ابن الجيران ، كانت صغيرة . أيام البراءة المفقودة ، فى كل مكان ، فى الحارة ، على الناصية ، أمام دكان البقالة ، عند بائع الفول ، داخل محل الكشرى ، كانت هناك عينان فى خضرة البرسيم ، تحدقان فيها . تبعثان لها الوعد والامان ، عيناه ينبوع حزن ، متاهة . قرأت فيهما اشياء رائعة ، الزواج ، الراحة ، الاستقرار . كان صبيا صغيرا ، أقرب الى الطفولة منه الى الرجولة ، قالت لنفسها ، وهى تبتسم له : ضل راجل ولا ضل حيطه . كانت تعيش بمفردها مع أبيها . كرهت الحياة ، والحجرة الضيقة والسطوح والشمس التى ترهقها كل يوم ، غير انها أحبت اباها .

فى المساء ، حملت صورة والدها ، وقفت بها فوق أعلى مكان فى سطح المنزل ، صورة قديمة ، تكسر زجاجها ، لا يبدو منها سوى شارب كث ، يقف عليه الصقر . يقول لها والدها : ان هذا الشارب ، من أيام الريف ، أيام الصلابة والعناد ، ذابت فى شارع محمد على أشياء كثيرة . تحول ابن ستيته الى رجل يرقص بالطبلة كالالعبان ، وتتلوى زوجته أمام عينيه طوال الليل بين الرجال . قال لابنته ان امر ما فى الدنيا هو لقمة العيش. قال : وكان لسانه ثقيلا من شدة السكر : لماذا لا يخلق الناس بلا بطون ، وهل من الضرورى أن نأكل ونشرب ونلبس ؟ لم كل هذا ؟ حملت سكر صورة والدها ، اشارت الى وجه أبيها ، ان كان يريدها ، فعليه الحضور الى منزلها ، لا تعرف اللف والدوران ، عليه أن يكلم والدها ، ومن ناحيتها هي مستوافق . كان خشب الصورة القديمة ،يضغط على حلمتي ثدييها النافرتين . أحست بأن شيئا ما ، قد نبت بداخلها ، اكتشفت ان مساحة صدرها عريضة ، وان الامور قد تغيرت ، فرح عصمت ، اشار الى سماء الله العالية ، وقال ان نجوم الليل شهود على ذلك .

تقول سلسبيله لحب الدين ، وهى حزينة : كان هناك رجل كهل يتابعها ، لم تكن تعرف عمله ، كان فى الجسد رعشة ، وفى القلب خدر ، وفى الصدر وحشة . لم تجد من تخبره ، سألت الجارات عن عمل الرجل الكهل ، ابتسمن ولم ترد واحدة منهن عليها بما يفيدها ، فأدركت ان فى الامر سرا ما . وعندما كان يسير وراءها ، كان يلذ لها أن تسرع فى سيرها . الرجل يجرى خلفها ، وصوت تنفسه يصل الى اذنيها شديد الوضوح ، أحيانا كان الرجل لا يستطيع السير ، فيجلس على أقرب مقهى ، ينتظرها حتى تعود .

سلسبيله بنت جميلة ، قالوا لها : انها يوم مولدها ، كانت طفلة رائعة ، اختلف أبوها وأمها على اسمها ، كاد الامر يصل الى الطلاق ، تدخل أهل الخير ، اقترحوا اقتراحا ، أن يدون فى شهادة الميلاد ، اسم غير الاسمين ، ثم تنادى بالاسمين معا . قال والدها : انه سيسميها باسم امه فى البلد ، ورفضت الام مرة اخرى . واصبحت لها ثلاثة اسماء . تعيش مع والدها ، فوق سطح احدى العمارات القديمة . سلسبيله تعود ذات مساء ، لتجد حجرتهم الصغيرة مرتبة ، السرير السفرى فرشت عليه ملاءة

نظيفة ، وعلى الارض حصيرة يجلس عليها والدها ، ومعه الرجل الكهل الذى تابعها كثيرا من قبل .
– سلمى على عمك علوانى يا سكر .
– بس لو ماكنتش تكبرني يا أبو سكر ، عمها ايه .
يمد الرجل لها يده ، تسبقه بسمة خربة . يسلم عليها ، يحتوى كفها البضة بين يديه . يجلسون ، الليالى . بعد ذلك ، هى ليالى الرجل الغريب ، الرجل ينفق بسخاء ، ووالدها يشعر ان طاقة القدر فتحت له ، وأن الدنيا استجابت لدعائه اخيرا .
– يا سكر وافقى بقى .
احست بالهوان ، قالت ان ذلك لايمكن أن يحدث ، تذكرت الشاب الصغير ، عينيه ، شبابه ، مستقبله . وذات مساء ، وهي فى طريق عودتها الى المنزل ، شمت رائحة اللحم والسمن المحروق تملأ الحارة ، فقررت أن توافق . لا تدرى الآن سببا واحدا لذلك عادت بسرعة ، صعدت درجات السلم المتآكلة ، امسكت بالدرابزين الخشبى عندما اوشكت أن تقع ، كان والدها ينام فى السرير على ظهره ، السرير منخفض من المنتصف ، ولم يكن يبدو اى شىء منه ، عيناه تحدقان فى سقف الحجرة . اقتربت منه ، جلست بجواره على السرير ، راحت تنظر اليه ، ادركت ، الى اى حد ساءت الحال .
– خلاص يا بابا امرك ، اتجوز عمى علوانى .

علم عصمت بالخبر ، جرى خلفها ، وضع فى يدها ، فى غفلة من العيون ، ورقة زرقاء مغموسة فى دموع العين . لم يتكلم ، لم تر وجهه « أهلى لم يوافقوا ، ما زلت تلميذا فى المدرسة ، عندما كلمت والدى ، لم يستمع الى باقى كلامى ، وامى فى ترب الغفير ، والايام صعبة ، سأهيم وحدى كثيرا فى حوارى الحلمية الجديدة ، ليس امامنا سوى التسليم ، سأهواك حتى تجف الدموع فى العين» .

تزوجت ، فى ليلة الفرح ، كانت البيرة تسد عين البحر ، الاكل والشرب ، الرقص حتى الصباح ، الرءوس الدائخة ، يقدم لها والدها حجر الجوزة ، به المعسل فقط .
– امضى ياست المعلمات .
تضع ما فى يدها فى منتصف الحجر ، وهى مغمضة العينين ، يضحك الرجال .
– ابن الول عوام .

ـ ولعى ياست سوسو .

تتمايل الرءوس ، وترقص الاجساد ، وتدور الغابة بين الافواه ، تمتد الاصابع دون وعى ، تمسك آخر الغابة ، تدسها بين الشفتين

ـ كانت ليلة ولا كل الليالى .

تقول سكر : ان عمها علوانى ، انفق كثيرا فى هذه الليلة ، وان الذين كانوا حولها ، منوها بالميراث ، واستعجلوا موته. قضت معه ليالى مترعة بالاسى ؛ سبحت معه فى بحار العرق ، لا تذكر سوى النهاية ، تحملته ، منحته كل مايمكنها منحه ، انجبت منه بطنين ، ولدا وبنتا . البنت فى حلاوة الشهد ، لاتعرف اين هى ؟ طلقت من علوانى . فى حياة سلسبيله أشياء كثيرة ، لا تحب أن تذكرها ، وعندما تحكى قصة حياتها لحب الدين ، فانها تمر عليها سريعا ، يتوقف حب الدين امامها ، ويعاود السؤال عنها . تقول له : انها لا يعجبها هذا التدقيق فى امور عادية . تكمل ، ما اهمية السؤال والجواب ما دام الامر قد مضى ؟ يرد عليها ، بصوت هامس : ما فائدة السؤال والجواب ، ما دام الموت هو نهاية كل النهايات .

الطـــلاق ، شارع محمد على مرة اخرى ، الليل ، الحجرة الصغيرة فوق السطوح ، ذكرى ليالى علوانى ، لهفة الجســد ، والحنين الى صدر رجل حقيقى ، تذوق مرارة خيبة الامل كل ليلة الحوارى ، الشوارع ، الحارس المتعب المكدود ، النوم يرف فى العيون كطائر حبيس يود أن ينطلق ، نساء شـارع محمد على ، الاصباغ والالوان والبسمات المترنحة على الشــــفاه والخدود والحواجب . السكارى ، محاولة تصيد كلماتهم المتناثرة مع هبات الرياح آخر الليل . نظرات الرجال . والدها لا يحضر الى الحجرة كثيرا . وقال لها زملاؤه انه يعيش مع راقصة فى شارع كلوت بك ، لم تهتم بالامر . قالت لهم : انه لابد وان يعود الى هذه الحجرة قالت : انها لا تحب هذه الحجرة ، وانها لا تقدر على البعاد عنها ، وان امرها غريب ، فهى المكان الوحيــد ، الذى يدوم لهم فى النهاية . سكر لا تذكر كيف كانت تقضى الايام والليالى . تجلس وسط الحجرات المتناثرة ، فوق السطوح طوال النهار ، تتحسس جسدها ، فتشعر بسخونة وفوران ينبعثان من الداخـــل ، تحن الى شىء ما ، لا تعرفه ، تحادث نفسها ، شكت سوء الحال لاحدى الجارات . قالت لها الجارة ؛ ان الحال عنـدها أسوا . ووعدتها بعمل ما يمكن عمله من اجلها .

ذات مساء ، طرق باب حجرتها شاب صغير خجول ، مربك ، لا ينطق الكلمات كاملة الاحرف . احست انه ما زالت به رائحة الطفولة ، لم يكن قد حلق ذقنه بعد ، ذكرها برائحة ابنها الذى لا تعرف مكانه . قالت لنفسها : الشاب غريب ، أمه ليست هنا حتى تغسل عنه غبار الايام ، بعد انتصاف الليل ، وضع بجوار سريرها كل ما كان معه ، النقود والاوراق والعواطف والاحزان.

تذهب الى الاسكندرية ، تغنى ، ترقص ، تشهد نجوم الليل على العهد والاحلام ، تبحث عيناها عن عصمت ، تتحسس الورقة الزرقاء التى تحمل رائحته ، والتى ما زالت تحملها معها . تقول لنفسها ، فى ليل الاسكندرية : انها فى أيام شبابها الاولى ، أحبها شاب صغير ، لا تذكر حتى اسمه .

— اسمه ايه يا سكر ، اسمه ايه يا سكر .

رفضت الخروج معه ، قال لها : انه سيقتل نفسه ، ضحكت عليه ، وذهبت الى منزلها . ضرب نفسه بالنار ، أنهى الامر بيده . سكر، انت قضائى وقدرى . كانت الورقة ملوثة بالدماء ، ملقاة بجوار جثته .

عاشت سلسبيله فى الاسكندرية ، تقول لحب الدين : كان امام منزلها مسجد صغير ، الاذان هو كل ما يربطها بالناس ، يذكرها بمرور الايام والليالى . يومها يبدأ فى منتصف الليل . وينتهى فى الثانية بعد الظهر . الحياة كالحلم الثقيـــل ، والنوم كالاغماء ، اليقظة الحارقة استعدادا للنوم . يأتى الرجال سكارى ، مهزومين تقذفهم السفن والبحار والبلاد البعيدة ، يشربون الدفء المعطر ، تذوب كلماتهم مع صمت الليل ، تقتات عيونهم بالجسد الابيض ، يذهبون ، وعندما كانت تنام ، فان صورة الشاب المنتحر، تأتى، تملأ عليها الحيـــاة ، تصحو مفزوعة ، كرسى ياسوسو ، امضى يا معلمة ، تضع يدها على الحجر ، وكل النـــاس غرباء ، تسمع أسماءهم ، تعرف القابهم ، تسأل عن بلادهم البعيدة التى قدموا منها ، الامر لايعنيها . ترص المعسل فى الحجر ، تسوى كل شىء بأصابع يدها .

— ولعى الحجر دا يا أحسن سكر فى العالم .

يخرج الدخان ، ومع لحظة خروجـــه ، تدرك أن كل ما فى الحياة ، يتساوى . سلسبيله تقول لحب الدين : لم يكن معها ما يستحق المحافظة عليه وأضاعته ، لم تنـــدم لحظة على شىء

رطت فيه . اصبحت فى الايام الاخيرة ، لا تذكر حتى وجه أبيها أو شكل امها . وحلمت ذات ليلة ، بوفاة والدها ، واحتراق امها ، بسبب لاتدريه . وبأن أولادها يخوضون معركة الاستسلام الاخيرة ، فى مكان ما ، من الدنيا . تقول سلسبيله : انها لفت ودارت فى بلاد الله الواسعة ، كى تقابل حب الدين فى النهاية : كل ما يحدث لنا مقدر ومكتوب حتى قبل أن نولد ، ومهما جرينا ورهنا بعضنا ، فلن نحصل على أكثر من نصيبنا . ان الايام تقضيها بالطول وبالعرض ، وبأى شكل كان .

فى دمنهور ، التقت بحب الدين ، لا تذكر سبب وجودها فى دمنهور ، كانت تلبس بدلة الرقص ساعتها . اقترب منها ، لف وراءها البلد ، قال بصوت عال : انه ابن عمدة ، وانه بلا عمل ، وسيلف وراءها القطر المصري كله . كان يرتدى جلبابا من الصوف الغامق . على الكتف عباءة ثمينة . وفى اليد جريدة . وعندما وجد نفسه معها بمفردهما ، قال لها دون لف أو دوران :

ــ اسمعى يابت ، ما تيجى معايا البلد .

ــ بلد ايه يا ادلعدى .

ــ السوالم ، قبلى وبحرى .

ــ واسم الكريم ايه ان شاء الله .

ــ حب .

ــ ايه ؟.

ــ حب الدين سرحان .

استراحت له ، قالت لنفسها : قد يكون بر الامان ، حضرت معه الى السوالم ، سلسبيله تقف على باب العشة ، وهى تدرك ان الليل موحش لحد الموت ، تتحسس الظلام بيدها ، تضحك تغرق فى الضحك . السوالم تشرب ليلها الاسود على مهل ، وسلسبيله تضحك ، تقول لنفسها ، وهى تجمع أشياءها :

ــ الضحك على الشفاتير .

والقلب يصبغ مناديل .

انها تدرك ان كل رجل فى السوالم ، يتمنى أن تمنحه نظرة ، ترمى عليه السلام ، تطلب منه خدمة . خيوط النظرات التى تربط بينها وبين عيون الرجال ، ليست سياطا من الرغبة ، بل هى نوع من الآمال يلفها بداخله . كان ذلك يسعدها بالليل ،

وكانت تقول : ان كل شيء هنا تحت امرها ، وما عليها الا ان تشير بأصابعها فقط .

سلسبيله تجمع أشياءها من العشة ، وفى نفسها خاطر محدد، بأن أيامها انتهت ، الحياة فى السوالم انقطع عيشها . كانت الايام ، اياما ميتة . وفى السوالم ، جدلت من الانتظار حبلا طويلة ، علقتها فى السماء السابعة ، وصعدت عليها ، وهناك لم تجد شيئا

العشة خالية ، وآذان العشاء لم يصلها بعد من فوق مئذنة سيدى الغريب ، الرجال الذين ذهبوا الى المهندس لم يعودوا الى العشة . اطفأت الكلوب ، حملت القفص . الشارع الرئيسي والحارات . قالت لنفسها : ان تغيير نظام الحياة ، آذن بانتهاء كل شيء .

فى البيت ، الوحدة والصمت والضوء الخافت . سلسبيلة تتحرك فى الحجرة الصغيرة ، ومن يشاهدها يكتشف ، ان سكر الفاتنة ، التى ملأت قلوب الرجال بالوعود ، تسير الآن فى حجرتها الصغيرة ، كامرأة كهلة ، تقدمت بها الايام ، تشعر انها لابد وان تفعل أى شيء ، الايام لم تعد تطاق فى السوالم . فى البداية ، تحملت الفراغ ، الحوارى الجرداء ، البيوت الطينية ، الناموس بالليل ، النوم على الارض ، وقالت من أجل عيون حب الدين ، يهون العمر كله ، لكل شيء حدود . الرجال يمرون فى الحارة أمام البيت ، يشاهدون البيت مضاء على غير العادة ، وفى الداخل ، كانت سكر تنام ، تتحرك ، تحرك يديها ، تعانى هما غريبا . قامت غيرت ملابسها ، تزينت ، وقفت طويلا أمام المرآة ، أطفأت المصباح وجلست فى الظلام . حب الدين لم يعد ، انه مع المهندس فى الخيام ، وهى تنتظر عودته . قالت لنفسها : كان لها عصمت. أحبته فى الزمان القديم ، ومن بعده ، فان انقلب قدمات ، كل ما يحدث لها من حلاوة الروح ، وحب الدين ، هو الذى ايقظ الاشياء بداخلها ، كانت تقول : أن الموتى لا يطلبون سوى الكفن واللحد والرحمة ، غير انها اقتنعت بعد ذلك بحب الدين .

وبعد حضورها الى السوالم ، قال لها حب الدين : انها هنا زوجته ، ويجب أن تعامله على هذا الاساس . قالت : ان الكذب هو أحلى ما فى الحياة ، نعمت بالوهم . أحست ان الحجرة خانقة صعدت الى سطح الدار ، انها نادرا ما تصعد اليه . وفوق السطح كانت السماء والنجوم ، قالت لنفسها : فلنحلب نجوم السماء ؛

ومن حليبها نعجن تراب الارض ، نضع فيه حصوات ملح قليلة ، ونصنع منه لقيمات مكسورة ، مغموسة بالاهانات ، نأكلها معا . فزمن النزوح قد حل أخيرا .

هبت عليها نسمة هواء ، حملت اليها رائحة الارض الشراقى ، والاشجار الخالية من الاوراق والزهور ، لقد ادركت ، معنى ما يقوله الرجال فى العشة أحيانا ، ان الايام التى نمر بها السوالم ، هي أيام الجفاف . يكمل الرجـال ، ان أيام الجفاف قد طالت هذا العام .

يحكى انه حدث فى قديم الزمان ، وسالف العصر والاوان ، ان كان فى بر مصر ، أم الدنيا ، ملك من ملوك الزمان ، له هيبة وصولجان ، وجند وأعوان ، وان هذا الملك قد دان له كل شيء ، الارض والناس والبلاد والزمان ، وان الناس قد تفننوا به ، وقالوا هو المخلص ، الذى حلموا به منذ آلاف السنين ، ثم انهم عبدوه . وحدث أن أتى رجل من قاع البلاد ، رجل طيب القلب ، جميل المحيا ، سمح الخلقة . كانت الشعيرات البيضاء ، تجلل راسه . قال الناس عنه ، انه حكيم الزمان ، له معجزات عظام ، يقرأ الغيب ، يتنبأ بما سيكون ، يعرف ما يدور فى الخاطر ، يطل على الايام القادمة ، اتجه الحكيم الى قصر الملك ، وكان القصر مبنيا على مكان مرتفع ، وهناك ، فرش حصيرا صغيرا ، وجلس عليه . سأله الحراس عن سبب جلوسه أمام قصر الملك . قال : ان الملك سيرسل فى طلبه ، متى آن الاوان ، وهو هنا جالس حتى يطلبه الملك ، سيجلس حتى آخر أيام العمر . فى اليوم السابع ، أرسل الملك فى طلبه فتعجب الناس من أمره ، ثم ان الحكيم ، الذى كان يعمل فلاحا ، فى أول أيامه ، تقدم نحو الملك ، وقبل الارض بين يديه : « يا ملك العصر والاوان ، انت الذى سجل الناس فى كل مكان احسانك ، الك عندى نصيحة ، ان أخفيتها عنك ، أكون ابن زنا ، وان أمرتنى ان ابديها لك ، لا اطلب منك سوى منديل الامان » . رمى الملك له منديل الامان . قال له : وما نصيحتك؟ قال : أيها الملك الجليل ، لقد قال لنا القدماء ، ان من لم ينظر فى العواقب ، فما الدهر له بصاحب ، الملك على غير صواب . الملك انزعج ، واصل الاستماع . ان قوانين قاعة العدل ، قد ألقى بها ، تدوسها الناس بالاقدام فى المحال العامة ، الرجل يضرب أخاه ، فما العمل . انظر ، الرجل يذبح وهو بجانب أخيه ، أتحدث اليك ، فهل تسمعنى . اقول ان التحلى بالفضائل يسير وهو محزون لما يحدث ، انهم يقولون : ان العدالة موجودة باسمها اعلم ياسيدى ، ان الملك اذا جعل الناس يخافونه ، دل ذلك على ضعف . يقول أبو السعود : الحكيم قال للملك : أى حال نجد

عليها البلاد الآن ، أوصيك بأمر واحد ، لا تغلق قلبك او عينك أو اذنك ، وفى مصر الآن، يزداد الاغنياء غنى والفقراء فقرا . ومن جديد سنسمع عن الذين يقضون ليلهم بغير عشاء . فهل يرضيك هذا .

سمع الملك ماقاله الحكيم، أمر بتأجيل الموضوع، فى الصباح ، صاح الملك بالسياف ، اضرب رقبة هذا انغدار ، أرحنا منه ، ومن سره ، أمرك يامولاى ، يقول أبو السعود : ان اهل المدينة شاهدوا فى العصر ، رأس الحكيم ، معلقة على باب القصر ، فتعجبوا من أحوال زمانهم .

أبو السعود ، رجل طيب ، بعد الاربعين بقليل ، حرم نعمة الحياة الهادئة . لم يتزوج الا منذ سنوات قليلة ، ينتسب الى اباء كلهم من أولياء الله الصالحين . يقول ان عائلته فرع من عائلة سيدى الغريب . وان سيدنا الغريب ، قد زاره فى المنام وهو شاب صغير ، قال له : اصبر على الظلم ، فلن يدوم اى شيء ، قال له : انه سيقف بجواره فى نهاية الامر . ابو السعود متزوج من امراة غريبة ، اب لاربعة أطفال . يوم ولدته أمه ، سموه مسعد ، قيل للناس فى البلد ، انه بنت ، خوفا من الحسد ، ولم يكتشف أمره الا بعد ذلك . لا يعرف احد ، من أين يعيش أبو السعود ، يكاد يستدين المال من كل من يلقاه ، حتى من المعلم يعقوب ، رغم انه لايرد ما عليه ابدا . يستعذب الحرمان ، ونادرا ما يشكو حاله للناس . اسمر اللون ، حلو التقاطيع ، فى أصابع يده خواتم بفصوص زرقاء وحمراء ، يضع فى قدميه «بلغة سوقى» ، يقول عنها رخيصة وخفيفة . يحمل فى صدره كلمات الله ، لاينكره احد ، يحبه كل الناس ، محفظته فارغة دائما . كل دور البلد داره . وكل حقول البلد أرضه ، انظف من الصينى بعد غسيله ، غير انه يعود ومعه من خيرات الله الشيء الكثير ، لا يكره فى البلد سوى الشيخ محمود .

الرجال يجلسون فى حلقة واسعة حول ابو السعود ، اول مرة يجلسون فيها بعد حضور المهندس ، شغلهم موضوع البئر . شاهدوا ابو السعود ، امسكوا به ، جلسوا حوله . لم يشأ ان يحدثهم عن البترول والبئر والمهندس ، اختار ان يعيد الى اذهانهم هذه الحكاية القديمة . حكايات ابو السعود لا تنقطع ، وفى كل مرة ، يتساءل الرجال : من اين يأتى بهذه الحكايات . الكل

يعرف ان أبو السعود عنده فى منزله صحارة قديمة ، فيها كتب صفراء ، ورثها عن أبيه ، ويقول الناس سرا : ان الكتاب الذى الفه سيدنا الغريب ، عن السوالم ، موجود فى الصحارة ، أبو السعود يحتفظ به لنفسه ، لانه يعيش منه ، ولا بد وانه ينوى ان يعطيه لابنه من بعده ، هو سر الاسرار بالنسبة له ، ولعائلته كلها . قد يخافون من لسانه ، يعملون له ألف حساب ، ولكن أحدا لايستطيع الاستغناء عنه .

أبو السعود ليس شيخا ، وان كان يلف رأسه بعمامة ، وينسق ذقنه بعناية ، انه حليق الشارب ، وذقنه تبدو كخط دائرى شديد السواد ، جلبابه أزرق غامق ، لم يغير لونه . أبوالسعود، هو مستودع الاسرار فى السوالم . الناس تقول : ان أبوالسعود وجد فى أكثر من مكان فى وقت واحد . يقسم الرجال : انهم ساهدوه ذات مرة على الجسر ، وأمام دكان المعلم يعقوب ، وعند دوار العمدة ، فى وقت واحد . ومن يومها ، وهم يقولون فى السوالم ، أكثر من « أبوالسعود» . أبوالسعود لايذهب الى المسجد رغم ان الناس تناديه : يا فضيلة الشيخ ، انه يقول : انه أولى بالمسجد من الشيخ محمود ، فهو الوريث الوحيد للامامة فى البلد، العدل والظلم مسألة تحيره . زمن عجيب ، وهو يثق أن سيدنا الغريب ، هو الذى سيفصل فى المسألة ، سيقوم من نومه ذات صباح ، ويتولى الامر بنفسه .

فى كل مساء ، يجلس أبو السعود على الجسر ، أو فى أرض الوقف ، أو فى عشة سلسبيله . يحكى الحكايا ، يقص أخبار البلد ، ويوم يذهب الى المركز ، أو تكلا العنب ، فانه يعود ، ومعه حكايا غريبة ، أشياء يقول انها ستحدث ، فى الايام القادمة ، وتأتى الايام ، كى تصدق ما قاله أبو السعود للرجال . وعندما يبدأ أبو السعود فى حكايته ، فان الرجال يقولون : ان فى فمه ألف لسان ، وان فى رأسه أشياء كثيرة ، وقد يضحك الرجال من كلامه غير انهم يعجبون به ، يطلبون منه أن يستمر فى حديثه . يقولون له : ان خير ما فى هذه الايام هى الحكايا .

فى الصباح ، يخرج أبو السعود من منزله مبكرا ، لاينام قبل منتصف الليل ،ولاينام قبل ساعة القيلولة ، لم يمرض أبدا ، ولم يشاهده أحد من الناس فى منزله بالنهار ، يقولون : « فيه شىء لله » ، وان عنده سرا ما من أسرار الحياة . وعندما تحدث فى

السوالم حادثة ما . ويصل الامر للحكومه . وترسل من يحقق فى الموضوع ، ويكون الحادث قتلا أو سرقة اوحريق بيوت أو عراكا بسبب الميـاه . فان القادمين من البنادر ، لايباشرون عملهم ، الا بعد سماع أبو السعود . لا يقاطعونه اثناء حديثه . ينصتون له . يسألونه رايه . ويقولون ان رايه هام . يقول عنه بعض الناس : انه خباص العمدة . ينقل له كل ما يحدث فى السوالم .

أبو السـعود . يتحرك طوال النهار ، فى الحوارى والبيوت . يفسر الاحلام للنساء . يسمع منهن ما يقلنه له . يكتب الوصفات البلدية ، يدخل كل البيوت فى البلد . يدفع الباب بقدمه اليمنى . وبدون أن يأذن له أحد ، فانه يدخل . يذهب الى دكان المعلم يعقوب . يشرب الشاى والمعسل ، يذهب الى دوار العمدة ، يدخل حجرة التليفون . يلقى السلام ، يسألهم عن الحال . يجلس على الارض بجوار الكنبة . يسمع كل ما يقال ، ولا يعترض احد فى السوالم على وجوده . يقول لهم : ان خير ما فى الدنيـا . ان تضحك .

أبو السعود جالس على افريز الجسر . ساهم وحزين ، يضع يده اليمنى على خده ، ينظر الى الذين يعبرون الجسر ، ولا يتكلم ونظراته تدور فى الاركان بسرعة ، يقترب منه اكثر من رجـل .

- مالك يا أبو السعود .
- مافيش .
- مالك ياولد .
- قلت مافيش . خبر ايه يا ناس .

يحلف لهم بالطلاق ، الاشيا معدن ، الحال عال . حزين لسبب ما . لا يتكلم ، يقول لنفسه : مهما حدث ، فكرامة الانسان اهم ما فى حياته . أبو السعود ، فى حكاياه عن السوالم ، لايبالى . لا يقف أمام الكلمات طويلا ، الموضوع عندما يتصل بحياته . يتوقف ، وتطفر من عينيه الدموع ، حب الدين يقول للرجال : أن أولاد أبو السعود فى المنزل بدون اكل منذ يومين . وابنه الصغير مريض ، أوشك على الموت . يتعجب الرجال ، أبو السـعود رغم الضحك والسخرية ، وتناقله الحكايا عن الناس ، فان له قلبا .

وفى الدنيا الواسـعة ما يبكيه هو الاخر . القلوب تفيض بحنان دافىء معطر ، وتسكرها لحظات الحب والوفاء النـادر . تذهب النسـاء الى بيت أبو السـعود ، ومعهن الذرة والقمح والدقيق

والسمن واللبن والجبن . أبو السعود يضحك من جديد .
ــ الشحات له نص الدنيا .
الليلة ، بعد أن حكى أبو السعود للرجال ، حكاية الحجيم ، ورأسه المعلقة على باب القصر . يقول لهم : انه يحزن كثيراً على هذا الحكيم ، ويطلب له الرحمة .
ــ الادي حصلت والا من عندك يا أبو السعود .
ــ الا من عندى .
فى الكتب كل شيء ، خاصة الكتب الصفراء ، الحكايةحدثت وكل ما يفعله أبوالسعود ، أنه يحكيها لهم . يقول الرجال لأبى السعود : لم لم يرشح نفسه فى انتخابات الاتحاد الاشتراكى ، يبدون جميعا استعدادهم كى يعطوه ما هو أكثر من أصواتهم . يقولون له : انه يعرف كل شيء ، وخير من يمثل الرجال ، قال لهم أكثر من مرة : ليست له فى هذه الامور ، السياسة لها ناسها، وهو رجل على قد حاله .

الرجال ، بعد عودتهم الى منازلهم المتناثرة فى قيعان الحارات الضيقة ، يحاولون أن يستعيدوا ما قاله ابو السعود الليلة . الكلمات تتوه ، فيدركون ان ابو السعود رجل غريب . ابوالسعود يكحل عينيه ، وعندما يسأله بعضهم عن السبب فى ذلك ، يقول . أن عينيه موجوعتان ، والده اصابه العمى فى آخر أيامه . من المفروض ان يذهب الى حكيم العيون فى دمنهور ، الحال لا تسمح بذلك . يحرك أصابعه ، كمن يعد النقود المطلوبة لذلك ، يخاف العمى ، وعندما يرين على الرجال صمت ، يتذكرون خلاله ، أن عيونهم جميعا مريضة ، أبو السعود يضحك .
ــ الله جميل ، يحب الجمال ، والكحل جمال .

زوجته ، الست أصيله ، ليست من أهل السوالم . ذهب فى أحد الايام الى دسوق ، مولد سيدنا ابراهيم الدسوقى ، أبو العينين . مكث هناك سبعة أيام بلياليها ، شعر الناس بالشوق اليه ، والى حكاياه وكلماته . عاد وهى معه ، امرأة ناعمة ، تغطى وجهها بطرحة سوداء ، وتسير خلفه . اول مرة ، يعود بيها أبو السعود من أحد الموالد ، وهو لا يحمل قفصه الصغير ، كان ينادى زوجته ضاحكا :
ــ من هنا ، يا أم أبو السعود .
سأله الناس عنها ، قال انها من أبناء الطريق ، نسل صالح .

عاشت أصيله معه على الخير والشر . الرجال في الحقول، والنساء في البيوت ، يحسدون اصيلة ، فأبوالسعود في نظرهم ، رجل طيب القلب ، خفيف الدم ، اصيلة صابرة على ماتلاقيه معه ، تاكل يوما ، وتجوع باقي ايام الاسبوع وتقول : كل شيء يهون من اجل سواد عيون أبو السعود .

اصيله تخلع الملابس التي كانت تلبسها ، والحناء التي كانت تصبغ يديها وقدميها بدات تختفي ، ولهجة البنادر بدات تتلاشى من كلامها . انها تذهب الى الترعة ، وتعود ، وتشاهد في الحوارى . قال ابو السعود ، عن التغيير الذى طرا على زوجته ، ضاحكا : الدنيا قطار قشاش ، لا يترك الراكب راكبا ولا ينسى الماشي ، الحال لابد وان تتغير .

أبو السعود لحاد البلد . يحيى الليالي في البيوت . ويرد النساء بينهن ، بعد اللطم على الخدود وشق الملابس وحلف اليمين الباطل وقول الكذب الابيض . يمسك الذكر ، يحضر الوفاء بالنذور ، يذهب الى ايتاى البارود ، ودمنهور بالشكاوى المجهولة سرا ، يتصرف فيها ويعود . أحيانا يرسله العمدة او المعلم يعقوب الى البنادر ، في مهام خاصة ، يذهب الى منزل المأمور . ابوالسعود يداوم على الذهاب الى الموالد في الناحية ، وفي أيام زواجه الاولى ، كانت اصيله تذهب معه ، وبعد أن انجب اولاده ، واستقرت زوجته ، فانه يذهب بمفرده .

أهل السوالم ، يشاهدون ابو السعود ، ساعة العصارى ، مارا على الجسر ، في يده قفص صغير ، معه ما يحتاجه في سفره ، عدة الشاى ، بعض الطعام القليل ، غيارات ، ومعه بعض الكتب القليلة ، نذور طلب منه أصحابها ان يضعها في صندوق النذور يقطع الطريق على قدميه ، ينام اينما اقبل عليه الليل . يذهب الى سيدى ابراهيم الدسوقي في دسوق ، سيدى الاربعين في الضهرية سيدى مسعود في دميسنا ، سيدى احمد البدوى في طنطا . يعود بعد سبعة أيام ، لحظة الغروب . يضع قدمه على الجسر ، يتسنع الحد ، يدوس على ارض الجسر بحكمة كما يفعل الغرباء ، يشاهد واحدا من اهالي السوالم ، يبتسم ، يضع القفص على ارض الجسر ، يعانقه ، يمسح الغربة في احضانه ، يملأ عينيه بمنظر السوالم والناس ، طفح الشوق بالقلب وفاضت الدموع في المآقي . ولا بد من السوالم ، واصيله واولاده واهله ، وذكرياته وحكاياه .

فى القفص حمص وحب العزيز وخبز ابيض وطعمية . أبو السعود رغم فقره ، غير بخيل ، يفتح القفص على الجسر ، يخرج مابداخله يعزم على الناس بما معه . يأخذ الناس منه ، يسألون أنفسهم ، عن مصدر ما معه . يذهب الى منزله ، يوزع ما بقى على اولاده وزوجته وابناء الجيران . يقول لزوجته : كل يوم يشرق على النـــاس ، يخرج معه أرزاقهم ، من يموت ينقطع رزقه . أبو السعود يقول لزوجته : اننا ما دمنا أحياء ، عند شروق شمس اليوم ، فسنجد ما نأكله ، بشكل أو بآخر ، يكمل : ليت مشاكل الناس كانت هى الاكل والشرب فقط ، اذن لهانت الامور .

أبو السعود ، يجلس بعد عودته فى وسط داره ، يلبس أكبر أبنائه طرطورا ملونا ، أحضره معه من المولد . زوجته تضع الشاى على النار . يقول لها كوب الشاى من يدها يســاوى الدنيا بما فيها . يقول لزوجته أيضا : ان الناس يلبسون العرى، ولسانهم قد أصابه عوج ثقيل ، أن الدنيا انقلب حالها ، الرجل فى غير داره لايســاوى بصــلة قديمة ، انه لايستريح الا فى هـــذا المكان البسيط . ودون أن تسأله زوجته ، فهو يحكى لها ما حدث ، ما سمعه ، مارآه أثناء سفرته . انه متعب من الســفر ، ولذا فان أصيله هى التى تحكى له أولا ، كل ما حدث وهو فى المولد ، أبو الســعود ، هو المتحدث فى كل مكان فى المولد . فى بيتــه يكون مستمعا فقط . انه يجلس ولا يتكلم . يسأل زوجته عن الأمور التى ســافر وتركها معلقة فى جو البلد . أصيلة بارعة فى حكاية الحكايا ، تتكلم باللســان واليد والحاجب ، ورغم انه شيخ ، وهى من نسل الصالحين ، فهى فى منزلها امرأة ، تــايه ، تسـعده بالليل ، وفى النهار ، فهى لا تلبس سوى قميص على اللحم رمش عين الجميل .

أبو السعود يخرج من داره بعد شرب الشــــاى ، يسأل من يقابلهم ، يسمع منهم ، يقول لهم أخبار المولد ، يعرف منهم أخبار البلد ، يمر على النساء اللاتى أعطينه نذورا ، يطمئن الخواطر على وصول النذور ، وانها الآن نائمة تأكل ارزا مع الملائكة فى صندوق النذور . فى المولد ، يلتقى أبو السعود ببعض الناس لهم أقارب فى السوالم ، يحملونه السلام والعتاب والسؤال عن السبب فى الانقطاع أبو السعود يذهب لهم ، يبلغهم السلام ، ويعاتبهم ، ويعظهم ، ويقول لهم : العمر قصير .

يدهش أهل السوالم ، فأبو السعود ، بعد رجوعه من المولد ، بساعة أو ساعتين يكون قد ألم بكل ما حدث خلال غيابه . أهل السوالم يتراهنون ، ان كان هناك ما يخفى عليه . الرجال يقسمون انه يذهب الى المولد ، تاركا عينه ، وأذنه فى السوالم ، حتى يعود

فى العشة ، يجلس أبو السعود ، يصل ما انقطع ، يحكى أخبار الدنيا الواسعة . الرجال تنصت اليه ، الدهشة والاعجاب والانبهار من جديد ، الناس تقول : الليالى بدون أبو السعود ، لا طعم لها ، يؤكدون ، انه ملح الحياة فى السوالم .

الرجال يجلسون صامتين ، بعد أن استمعوا الى حكاية الحكيم مع الملك سألوه عن المهندس ، لم تكن عنده رغبة فى الكلام ، قال : ان حكاية المهندس لم تتضح بعد ، فى الامر سر . قال : اهل السوالم ، يجرون خلف المهندس ، وانه هو أيضا جرى فيمن جرى . يؤكد لهم ؛ ان سنوات عمره التى مضت ، والصفحات التى قراها ؛ وكلام الله الذى يحمله فى صدره ، يؤكد حقيقة واحدة أن الدنيا بكل ما فيها . وكرر : الدنيا بكل ما فيها . لا تساوى عندنا كل ما نفعله فيها .

يقف الرجال حول دكان المعلم يعقوب ؛ وبعضهم يجلس. أمام الدكان ، دكتان من الخشب القديم ، مستندتان الى الحائط ، وفى مواجهتهما مصطبة ، فرشت عليها حصيرة متآكلة الجوانب. ضلفتا باب الدكان مفتوحتان ، ربطت كل منهما بحبل صغير الى الحائط. على واجهة الدكان ، فوق اطار الباب ، فروع شجرة لبلاب ، مشدودة الى اعلى ، تساقطت من فوقها الاوراق ، فبدت عارية . فى داخل الدكان ، لافتة صغيرة ، بهت لونها الاصلى ، تطلب فى ود ناعم من الزبائن الكرام ، الا يحرجوا المعلم يعقوب « فالشكك ممنوع ، والزعل مرفوع ، والرزق على الله مضمون » .

المعلم يعقوب يتحرك بين البضائع فى خفة ومهارة ، يلبى طلبات زبائنه من أهالى السوالم . الساعة من أهم الساعات فى اليوم ، فيها تكثر الطلبات ، يقبل الرجال ، عادوا منذ قليل من حقولهم ، ومعهم مواشيهم ، بعد يوم من العمل . فى منازلهم ، غيروا ملابس العمل ، وركبوا مداساتهم ، وخرجوا ، بعـــد أن اطمأنوا الى عشائهم . عند الدكان ، يقفون أو يجلسون ، وبين الحين والآخر ، تخرج الكلمات من أفواههم ، يشـــتد بهم الحماس ، فترتفع أصواتهم ، وتعلو أياديهم . وفى أثناء جلوسهم ، يدخنون ، يلفون سجائر رفيعة من علب دخان صدئة ، وقد يكون مع بعضهم قروش قليلة ، فى جيب حافظته الجلدية ، فيشترى بضائع ، غير السجائر والشاى والسكر ، رطل حلاوة لاولاده ، روح النعناع لزوجته . عبر الشارع ، يمر الاطفال الصغار ، والنسوة والرجال . المعلم يعقوب لا ينصرف الى جلسائه كلية ، بمجرد أن يحضر احد زبائنه ، فانه يصمت ، يترك الجالسين ، يحضر للزبون طلبــه ، فالمعلم يعقوب يعرف كل أهالى البلد ، ويعرف طلباتهم . الشيخ محمود ، علب النشوق ، أبو السعود ، يسأل عن اللبان الذكر . وعندما يجده عنده ، فانه يهرش بيده فى قفاه ويضحك .

— أول ما يفرجها ربنا ، جهز لى ورقة منه .

ورداني لا يطلب سوى باكو الدخان ، ان ورداني يأخذ الباكو

بيده ، يضغط على منتصفه ، يقربه من عينيه :
ـ ما توزن الباكو يا معلم يعقوب ، دا احنا بندفع فلوس .

يحضر المعلم يعقوب باكو آخر ، يضعهما فى كفتى الميزان ، ينظران. عينا ورداني ترسمان وتنخفضان مع حركة الميزان البطيئة . يأخذ ورداني الباكو الاكثر ثقلا . حب الدين يحضر الى الدكان ، ويسلم ويسأل عن الحال ، يسأل المعلم يعقوب عن جريدة ونادرا ما تكون عند المعلم يعقوب جريدة ، فالجرائد تحضر بالصدفة . المعلم يعقوب يعرف ان فى البلد رجالا لا يتعاملون معه أو مع أى بقال آخر ، يذهبون الى البنادر ، يحضرون مايحتاجونه. فى منتصف الدكان عمود ، معلق فيه الكلوب ، على العمود والحيطان والكلوب واللافتات والدواليب ، طبقة لزجة سوداء ، فى لحظة الغروب ، الذباب يغطى كل ما فى الدكان . من يمر على الدكان يشاهد المعلم يعقوب ، بيده فوطة كبيرة ، وقد اكتسب نشاطا غريبا على سنه ، المعلم يعقوب يقف فوق كرسى فى منتصف الدكان ، ينش الذباب . وفى منتصف السقف ، سلك مدلى ، فى آخر السلك ، صليب أبيض على لوحة سوداء ، تحت الصليب لافتة سوداء ، مكتوب عليها بحروف بيضاء « الرب معين لى » .

الرجال يجلسون ، يتحدثون عن المهندس والبئر وارض ورداني ينتظرون ان يحضر حب الدين ، والمعلم يعقوب ، لم يعلن رأيه فى الموضوع ، رغم انه يمنى نفسه ، بأن يبيع الكثير ، بل يمنى نفسه بأن يفتح للمحل فرعا عند البئر . حتى فى أيام الخريف الجافة ، ثمة مساحات فى النفس للأحلام والمنى ، ورغم جهامة الحياة وتجردها من كل بهاء ، فان الناس يحلمون . المعلم يعقوب يعترف بأن معلوماته عن الموضوع بسيطة . المهندس لم يحضر اليه وهو لم ير أى فرد من العاملين فى المشروع . احيانا يطول الصمت ، وتدور عيون الرجال الصغيرة ، المكتحلة الصبر والحرمان فى محاجرهم التى بلا رموش ، ويحدقون داخل الدكان وسط العتمة ، فى أجولة العدس والارز والفول ، وصناديق الصابون وعلب الشاى والسكر . نظراتهم تستقر على المعلم يعقوب وهو يتحرك بين البضائع ، رغم الزحام ، وامتلاء الدكان عن آخره ، فثمة طريق يسلكه المعلم يعقوب ، يعرفه جيدا ، حتى وهو مغمض العينين ، نظرات الرجال تستريح عليه ، يفكرون فى انه رجل ناجح ، وانه يملك الكثير ، ويدرك الرجال انهم يحسدونه

الحسد حرام ، انهم يتوبون ، ويستغفرون ، ولا يبقى فى الاذهان سوى صورة ملامح وجهه المجهدة ، ابتسامته الدائمة ، سرعة حركته ، ضعف بصره ، النظارة لسميكة التى يرتديها بالنهار فقط . انهم يعجبون به ، ويتساءل كل منهم : لحظة تركه الدكان : لماذا لم يكن من حظه ان يفتح دكانا ، العمل قليل والربح كثير . الرجال يقرون ان الدنيا حظوظ ، يقولون لانفسهم : شاعر البلد لا يسليها . الدكان لو كان لاحد من أهل البلد ، لما نجح ومهما فكر الرجال فسيظل النجاح والفشل ، الفقر والغنى ، اسرار لايفهمها أحد . الرجال عقب تفكيرهم فى هذه الامور ، يرفعون عيونهم نحو السماء ، تتبع عيونهم مئذنة سيدى الغريب ، ترتفع النظرات على قوالب الطوب فيها ، وتصعد معها حتى الهلال الفضى ، وهو اعلى مكان فيها ، منه تنسحب النظرات الى الخيمة الزرقاء وعند هذا الحد ، فانهم يكفون عن التفكير . العبد فى التفكير والرب فى التدبير ، وفى هذا الكفاية .

ذات صباح ، حضر الى السوالم رجل غريب ، استأجر دارا خالية ، سكن فيها . كان رجلا وحيدا ، يخرج فى الصباح ، يدور فى حوارى البلد ، حارة ، حارة ، يجلس على شاطىء ترعة ساحل مرقص ، او افريز الجسر القديم (لم يكن الجسر قد بنى بعد) . يرمى قطع الطوب الصغيرة فى الماء ، يتسلى برؤية تموجات المياه بعد رمى الطوب ، وهى تبدا كنقطة صغيرة ، ثم تتسع مع تموجات المياه ، وتتسع ، حتى تصل الى شاطىء الترعة الآخر . فى المساء كان يعود الى داره ، يتذكر الناس ، انه كان دائما بمفرده .

« الساعة الخامسة ، لقد حان الموعد . القاهرة ، والساعة فيها الآن الخامسة ، الآن تبدا برامج السهرة ، أيها السادة : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، القاهرة تحييكم وتقدم لكم نشرة الاخبار الثالثة » . ينصت الرجال ، الكلمات الغريبة ، تسقط على الآذان والقلوب فتحدث فيها آثارا جديدة . فترة قصيرة ، ملؤها هدوء مؤثر ، تستأنف بعدها المناقشات الحامية . وقد يطلب رجل ما من الباقين ، أن يصمتوا لدى سماعه خبرا يعتقد انه هام . يعاودون الصمت ، ولا تطول فترته ، اذ سرعان ما يكتشف الرجال ان الخبر لا يعنى شيئا ، وبصوت منخفض ، يخدش احدهم ستار الصمت . كلمة صغيرة ، ويبدأ الحوار . ان ما يشغل وردانى ، هو الاسماء التى يسمعها ، بلدان ورجال وأحداث ،

اجزاء بعيدة من العالم ، يقول ورداني : انه كان يعرف ، منذ أن ولد ، ان آخر الدنيا من الناحيـــة البحرية هى الاسكندرية ، وبعدها البحر المالح ، الذى يقول عنه الرجال انه بحر بلا شاطىء آخر ، وان آخر الدنيا من الناحية القبلية ، هى مصر ، أم الدنيا فوقها الصعيد البرانى والجوانى . اما هذه البلاد ، التى لا أول لها ولا آخر . البلاد تزداد عددا يوما بعد يوم ، وتزداد أسماؤها غرابة ، مع كل نشرة أخبار جديدة .

ـ همه بيجيبوا البلاد دى منين يا اولاد ؟

ـ دى حاجه تحير والله ..

ـ « شوف ياسيدى ـ قال ابوالسعود ـ فى العالم مائة دولة ، كل دولة منهم قد مصر اربع مرات . أمريكا لوحدها فيها خمسين دولة ، روسيا كمان خمسين دولة ، والا الصين والهند والسند واليابان ، الناس هناك زى النمل ، تقول يا رحمن يا رحيم » .

عيون الرجال تتسع دهشة ، وأنفاسهم المبهورة تملأ الصدور . شىء ما ، مدهش وغير عادى ، يثقل الصدور ، الرجال يدركون ان ما يسمعونه فى نشرات الاخبار ، كل وقت ، اسماء لها معناها . العالم كبير ، واسع الارجاء . قال المعلم يعقوب ، من خلف البنك وهو يعطى البضاعة لاحد الزبائن : ان الحياة فى كل هذه البلاد ليست سهلة بالمرة . ادرك وردانى انه حتى آخر أيام العمر ، ثمة أشياء كثيرة لا يعرفها الانسان . وصمم بينه وبين نفسه ، أن يعلم ابنه ، ولو وصل به الامر أن يبيع نصف الفدان الذى لايملك سواه

فى بعض الاحيان ، يخلو الدكان من الزبائن ، يقف المعلم يعقوب متكئا على البنك ، يبدو متعبا ، وعيناه تدوران فى محتويات محله وقد ينقل شيئا ما من مكانه الى مكان آخر ، يفرغ من عمله ، يقف فى احدى زوايا الدكان ، يثنى جسمه ، يعاود النظر فى محتويات دكانه . يتجه ناحية الرجال ، يفتح فمه ، يتهيأ للكلام ، الرجال ينصتون له ، يقول نصائح غالية للرجال . أهل السوالم كلهم أمامه رجال صغار بلا تجارب ، وهو مسئول عن اسداء النصح لهم . ومن المؤكد ، ان أحدا منهم لا يناقشه فيما يقوله . الرجال يهزون رءوسهم ، مصدقين كل ما يقوله لهم . وفى كل مرة ، يكتشفون ان الرجل عاش حيـاته كلها ، كل لحظة وكل ثانية ، رجل واع وعقر ، لف بر مصر من أوله الى آخره . المعلم يعقوب يسترسل فى سرد ذكرياته ، مغامرات ، سفريات . خرج من بلده

وجيبه خال الا من الهواء ، لف ودار . الرجال يكتشفون ، انهم ينفصلون عن الحياة ، أغلقوا العمر عليهم ، على المكاسب الصماء ، واصبحوا معزولين ، ومع مرور الايام ، ضمرت مشاعرهم ، وضاع من ماء وجوههم سر التجدد الابدى ، جذورهم قطعت ، واصبحت الارض التى ينبتون فيها بلا ماء . والعزاء ، انه فى الاعماق منهم ، بقية من حياة ، موجودة فى قاع وجودهم ، يحسون بومضاتها فى بعض الانفعالات النادرة .

ختـــاما لهذه النشرة ، نعيد على حضراتكم موجزها . انعقاد الاجتماع الاول للمؤتمر الثانى لرؤساء دول عدم الانحياز بالقاهرة ، ٤٨ دولة تشارك فى الاجتماع ، ١٠ دول تشترك كمراقبين .

يذكر أهالى السوالم ، ان مصباح حجرة سيدى الغريب ، كان آخر ضوء ينطفىء فى البلد ، وقبـــل أن ينطفىء ، كان الرجل يجلس ، أمامه طبلية صغيرة ، عليها كتاب كبير ، جلده أســود متين . يقرأ بصوت مرتفع . شبــاب البلد تسمع ما يقرؤه بتأثر عميق ، وبصوت بطىء .

« فى الليل، على فراشي، طلبت من تحبه نفسي، فما وجدته ، انى أقوم وأطوف فى المدينة ، فى الاسواق ، وفى الشوارع ، أطلب من تحبه نفسى ، طلبته فما وجدته ، وجدنى الحرس الطائف فى المدينة ، فقلت أرأيتم من تحبه نفسى ، فما جاوزتهم قليلا ، حتى وجدت من تحبه نفسى » .

قال الرجال : الغريب به مس ، خلفه حكاية ، يطول شرحها ، وقال الصبية الذين خانتهم عيونهم ، وسرقت نظرة أو نظرتين من داخل البيت الذى يعيش فيه ، لايوجد فى البيت سوى حصيرة ومخدة من القش وصندوق خشبى قديم ، وطبلية ، وكتاب أسود، وصليب معلق على الحائط .

السوالم مهتمة بالرجل الغريب ، اسمه يعقوب ، مسيحى طيب وهو هارب من بلده البعيد فى الصعيد الجوانى ، من ظلم وقع عليه ، وقيل أن الحال هناك لا تسر ، له عائلة وزوجة وأولاد ، وقد يحضرهم الى البلد ، ان استقر به الحال .

ــ الرئيس عبد الناصر يقدم فى خطابه فى افتتاح المؤتمر الثانى ، لدول عدم الانحياز بالقاهرة ، مشروعا باعلان بيـان عن تحقيـق السلام بالتعاون الدولى .

شباب البلد يحادثون يعقوب ، وهو أثنـاء سـيره فى حوارى

السوالم ، يلقى التحايا على الرجال ، يقول لهم بصوت رفيع . « سعيدة » ولا يرد على السلام الا بعبارة « سعيدة مبارك » .
يعقوب يعبر حوارى السوالم الآن ببطء ، وخطواته المتسرعة ، المتعجلة تغيرت ، وعيونه التى كانت تنظر الى الارض ، أصبحت تحدقان فى كل شيء ، وانحناءة ظهره اعتدلت ، والرجال يتحدثون عنه بحب . والنساء فى السوالم . يتألمن لمعيشته بمفرده فى دار واسعة عليه . ويتحول بيت يعقوب الى مكان يسهر فيه الشبان . أهل السوالم يعرفون شرب الخمر ولعب الورق ، زجاجات صغيرة . رقيقة الصنع ، مرسوم عليها صورة حلوة . فى البداية ، لعب الشبان الورق ، للتسلية وقضاء الوقت . والليل بحار بلا نهاية ، الليل متاهات الرجال . والرجال فى السوالم ، يصنعون مراكب من ورق الاحلام ، يبحرون بها فى الليل ، على أمل الا يعودوا بعد ذلك أبدا ، سفرة طويلة المدى . ولحظة سقوط الليل، هى لحظة طرح التساؤلات المرة ، يبدأ الحوار من طرف واحد ، مع النفس والظلام والبيوت . ان المتزوجين يخافون من العودة الى الفراش . والشبان . تمثل لهم لحظة المساء ، ضيقا ، فيخرجون من البيوت الى اى مكان . يقترح يعقوب ذات مساء ، أن يلعبوا بالنقود ، نقود قليلة ، يشترون بها اكلا وشربا لزوم السهرة . كان يعقوب يعزم على الرجال بالشرب . تمنع الرجال ، وكانوا راغبين ، لم يدم التمنع . كويت حلوقهم ، تحشأوا . أحسوا بلذة الاكتشاف . تذوقوا شرابا فى طعم المر . انبعثت فى أبدانهم نشوة رائعة ، تحرروا ، تقطع الشيء الذى يربط اقدامهم بأرض السوالم ، فأحسوا انهم يطيرون ، يشربون الليل ويضاجعون النجوم . فقد الواقع أشكاله المألوفة ، وتحطمت قواعد الحياة الرتيبة ، دارت الرءوس .

— خمسينه والنبى ياسى يعقوب .
— عشرة صاغ لو سمحت .
— ع الحساب ، بكره تفرج .
— شكلك لا . ومافيش زعل .

تتحول الحجرة الصغيرة ، الى ساحة حرب ، المكسب والخسارة المهارة فى اللعب ، حركة الايادى فى خفة ، العيون المتعبة من متابعة الورق والنقود وحسابات اللعب والضوء الشاحب . يقول الرجال يعقوب يخسر كثيرا ، لا يغضب من الخسارة ، تسالى وقت . وفى

آخر الليل ، ينصرف الرجال ، يعقوب يوصلهم حتى باب منزله ، يصافحهم ، يأتى الى اسماعهم ، نباح الكلاب ، منتشرا خلال وشوشات النخيل الليلية . يعقوب يقول لهم ، بصوت منخفض فى رحابة الليل : « الرب أعطى ، الرب اخذ ، فليبارك اسم الرب فى العالمين » .

تطورت الامور ، الرجال يتراهنون على أموال كثيرة ، ويربح يعقوب كل ما مع الرجال . يعقوب يجمع بهدوء حديدى من فوق الطبلية كل النقود ، يضعها فى حجر جلبابه . عقله مركز وثابت فى الورق ، ويده التى تجمع النقود ، وتزحزحها حتى حافة الطبلية وتدفعها دفعة بسيطة ، فتسقط فى حجر جلبابه . محدثة رنينا غريبا ، انه يدرك ، ان كل العيون المحيطة به ، تجلده بنظرات الطمع والدهشة والاستغراب ، يعقوب يرفع عينيه ناحية الرجال ، تمسح نظراته غضبهم ، وتوقف كلا عند حده . وتساءل الملوم ، مقاول الانفار ، وكان احد ضحايا اللعب مع يعقوب : الا يخاف يعقوب اهالى البلد ، وحاول أن يلمح له بذلك ، يعقوب طمأنه ، الرجال هنا طيبون ، وقد يثور فى النفوس شىء ما ، ولكنه لايصل الى ضرره أو ايقاع الاذى به . فى آخر الليل ، نظرات الرجال ، تتحول حوله الى ينبوع حزن ، والكلمات مذبوحة على الشفاه.

— تلعب يا الملوم .

لايرد الملوم ، يخرج الورق من جيبه ، يضعه على الطبلية ، ويعقوب جالس كما هو ، لايبدى فرحا أو حزنا ، ولا يستطيع أحد من الرجال ، أن يقرأ انفعالاته ، يجلس امامهم ، وجه بليد ، لا يظهر عليه تعبير ، ويشعر الرجال ، رغم الصمت الموحش ، انهم متفاهمون ، فى النهار ، يتفقون على ان وجود يعقوب ، خطر عليهم ، البيوت اقتربت من الخراب ، نقود الملوم التى أتت من لا شىء ، ها هى تضيع : ان ضياع جزء من نقود المعلم فى اللعب ، يدفع الرجال أن يتطلعوا الى السماء ، وعيونهم مغسولة بالشكر . تعلم حب الدين من المعلم يعقوب أشياء كثيرة ، اهمها ان يبيع أرضه ، لا يلعب الورق كثيرا ، غير انه ينفق النقود فى اوجه اخرى . لاول مرة ، يقف رجل فى السوالم ، كى يقول عن الارض انها لا تترك للناس سوى الخراب ، وانها سر الضيق والمصائب وكل البلاء ، حب الدين ، تتكلم بلسان غير لسانه ، كلمات يعقوب يقولها حب الدين دون خجل ، وسط الناس . الرجال يحلفون

الإيمان ، بانهم لن يذهبوا الى منزل يعقوب أبداً ، وبعد العشاء ، بعد أن تستقر مربعات الظلام فى قيعان الحارات ، فان الرجال يرتدون ملابسهم ، يقولون لاولادهم : انهم ذاهبون الى الجامع للصلاة ، وهم يعلمون انهم يكذبون ، وبمجرد أن يسلموا انفسهم للحارة ، فانهم يتجهون الى منزل يعقوب .

ـ يامرحب بالبلديات .

حبهم لمنزل يعقوب كالقدر ، لا فكاك لهم منه ، يكرهونه ، غير انهم يذهبون اليه كل مساء ، الناس تقف ضده ، كلهم ضده ، احد منهم لم يستطع مواجهته ، تواعد النـــــاس على حرق منزله ، نسوا الوعد . الملوم ، حلفت عليه أمه الا يذهب الى منزل يعقوب ، حدثته عن المستقبل والنقود وتحويشة العمر ، اغلقت عليه الباب وجلست خلفه ، قالت له : ان كان يريد الذهاب ، فليقتلها ، فهى لا تحب ان ترى ايام زمان ، وخير لها أن تموت . الملوم يجلس فى المندرة بالقميص والصديرى يدخن ، يعمل الشـــاى لنفسه ، يشرب الجوزة ، يحدق فى حائط منزله ، يعد أكواب شاى فى سواد ومرارة ايامه ، ينظف اسنانه بعود كبريت ، ينتفض فجأة :

ـ يعقوب بينادينى يا أمه ..

يلبس جلبابه ، يركب مداسه ، يأخذ عصاه فى يده ، يخرج ، لا يكون هناك يعقوب ولا غيره ، وحتى أمه لا تعرف السر فى تركه يخرج . يقسم ان يكون اللعب هذه المرة للتسلية . فى حمى اللعب ينسى . نفدت نقود حب الدين والملوم ، وكان يعقوب يعد نقوده فى هدوء .

ـ العب يا يعقوب .

ـ علق .

صمت حب الدين ، هرش شعر رأسه .

ـ العب على نص قيراط ارض .

ـ لا ياحبيبى ، فلوس وبس .

ينهــار حب الدين ، يقول لهم يعقوب : انه لا يلعب الا على النقود ، يضحك ، يضع الورق على الحصيرة ، يمر بيده على وجهه المجهد من اثر السهر كل ليلة ، يريح ظهره على الحائط ، ويســـتأذن الرجال فى أدب أن يمد قدميه على آخرهما . يقول للرجال حوله ، انه حدث مرة ، ان راهن عامل فى محطة السكة

الحديد ، بعد منتصف الليل ، أثناء اللعب . لم يكن هناك سوى انوار البلوك فى المنطقة ، ثم الظلام والصمت . كان الرهان ، ان يحلق المهزوم نصف شاربه بموسى على الفور ، لم يكن معه نقود ، أحضر الموسى ، وقطعة من الصابون وقليلا من الميـاه ، أيادى لرجال ترتفع الى شواربهم الـكثة فجأة ، يتحسسونها ، يتأكدون من وجودها .

ــ وبعدين ، حصل ايه ؟

ــ حلقت نص شنبى .

من الامور المـألوفة الآن ، أن يشاهد الشيخ محمود ، أثنـاء ذهابه الى الجامع ، لصلاة الفجر ، منزل يعقوب مضاء ، من ينظر من النافذة ، تطالعه ، وجوه مسهدة ، وعيون ذبلت من السهر. لقد تعود الخفراء ، أثناء سهرهم فى الليل ، أن يشاهدوا يعقوب ، يسير بعد منتصف الليل ، مع أحد الرجال ، يذهب معه الى منزله ، يعودان بعد قليل ، يسيران متلازمين ، يفهم الرحال ، ان الرجل نفدت نقوده ، فطلب تأجيل اللعب حتى الصباح ، يعقوب يأمره أن يذهب الى منزله ، كى يحضر نقودا ، ان كانت هنـاك نقود ، وعند ما يدعى الرجل الـكسل ، فانه يقوم معه على الفور

ــ حصل منك حاجات كثيرة يا يعقوب .

ــ غير صحيح ياعمدة .

ــ تسببت فى بيع ارض حب الدين سرحان .

ــ دا راجل ومسئول عن نفسه .

ــ الرجاله بتشرب الخمره عندك .

ــ اللى يعمل غلط يتحاسب عليه .

ــ بتفتح بيتك لغاية الصبح .

ــ طول عمرى متعود على السهر ، انا باحب الليـل اكثر من النهار ياحضرة العمدة .

ــ بتقرى الولد حب الدين فى كتابكم طول الليل .

ــ هوه اللى بيقرا .

ــ يا يعقوب امش كويس ، احسن لك .

ــ شوف يا عمدة ، أنا عمرى مارحت لحد بيته ، ولا عمرى مابعت لحد فيهم علشان ييجى عندى .

ــ مويس تشومبى يصل الى القاهرة فجأة ، فى محاولة لحضور

المؤتمر الثاني لدول عدم الانحياز ، المؤتمر يتخذ قرارا بعدم حضور تشومبي الى المؤتمر .

يسأل الرجال عن تشومبي : يتحدث فتحي سالم . كلمات قليلة هي التي فهموا معناها : باقي كلمات فتحي سالم سماء ؛ لايفهمها احد ، تصل الى الآذان ، ولـكنها لا تعني أي شيء بالنسبة لهم . يقول فتحي سالم ، تشومبي هو الذي تسبب في قتـل الزعيم الافريقي باتريس لومومبا ، وانه يعادي الثورة . من المفروض أن يذبح في القاهرة ، بعد أن يدوروا به في الشوارع امام الناس . يقول ابو السعود : انه يتكلم بألف لسان ، انجليزي . فرنساوي . وشكله اسود فطيس ، وانفه مثل قرن الفلفل الـكبير الافطس .

ان يعقوب يتذكر انه بعد أن حضر الى السوالم ، سـأل عن المسيحيين في البلد ، وذهب اليهم ، اكثرهم علما ، سأله من أي طائفة هو ؟ اجابه يعقوب مازحا ، انه من الانجيليين ، عرف باقي المسيحيين ذلك ، تجنبوه ، وخافوا منه ، رفعوا اياديهم الى صدورهم وجباههم ، راسمة علامة الصليب . حاول يعقوب أن ينفي ذلك ، لم يصـدقوه . قرروا أن يبلغوا قسيس كنيسة الضهرية ، خبر وصول يعقوب الى السوالم ، أهالي السوالم لم يفهموا السبب في الخلاف ، يعقوب وحده ، وباقي المسيحيين ، كانوا يفهمون . وبعد ذلك ، فان يعقوب ، الذي لم يعرف الغضب ابدا ، كان يسأل عنهم .

ــ الجمهورية العربية المتحدة ، تحدد اقامة مويس تشومبي ، في قصر العروبة .

ذات مساء ، حرق بيت يعقوب ، شب فيه حريق ، اندلعت ألسنة النيران كعيدان القصب في قلب الليـل . قالوا ان احـد الرجال الذين كويت قلوبهم من خسائر كل ليلة ، حرقه . أحضر الرجل ، ولا احد يعرف من هو ، جوربا قديما ، حشـاه بقطع قماش ، نقعه في الجاز يومين ، أشعل فيه النار ورماه على سطح المنزل ، ظن الناس ان يعقوب تحول الى فحمة سوداء ، اكتشفوا بعد اطفاء النار ، ان يعقوب غير موجود في المنزل . في الصباح ، عرفوا الامر ، سافر يعقوب بالامس ، سـاعة الفجر الرمادية الموحشة ، بعد اللعب وحسابات الربح والخسارة الى بلاده . عاد بعد عشرة أيام معه زوجتـه وأولاده ، لم يسهر من بعدها ، لم تعتب قدم غريبة باب منزله . بنى لنفسه منزلا ، وفتح دكانه ،

وملأه بالبضاعة من النقود التى كسبها من اللعب ، اما هو فيقول انها ثمن قطعة أرض ، كان يمتلكها فى البلد ، باعها ، ثم احضر اولاده .

لاحظ الرجال ؛ ان جسم يعقوب ؛ اصبح اكثر امتلاء ، وملابسه اصبحت نظيفة على الدوام ؛ الرجال ينادونه بالمعلم يعقوب . وفى صباح الاحد ؛ لم يكن يفتح دكانه ، كان يرتدى أفخر ملابســه ؛ يخرج من الصبــاح البــاكر هو وزوجتــه وأولاده يذهبون الى الضهرية ، لحضور الصلاة . لم يكن فى السوالم قبلى أو بحرى شليمه أو ششت لانعام أو دميسنا كنيسة . الكنيسة الوحيدة فى المنطقة كلها ؛ هى كنيسة الضهرية .

المعلم يعقوب من احب اهالى السوالم . وتربطه بباقى المسيحيين علاقات ود ، يلتقون أمام دكانه مســـــاء السبت ، يتحدثون عن المسيح والصليب ؛ الابن والاب والروح القدس . العذراء مريم ، تهيم النفوس مع كلماته ؛ تملأ المآقى بالدموع ؛ وتشهق الصدور ، ويهيم الرجال مع الــكلمات ، ان العواطف تشتعل من بعضها مع الــكلمات . والمعلم يعقوب ابن نكتة ، حتى الذين كرهوه ، لم يملكوا الا أن يعجبوا به .

الصمت يرين على الرجال ، والليل احتواهم بداخله . العيون والقلوب والايادى غمست فى سواده وصمته ورهبته . استمعوا الى نشرة الاخبار ، وتحدثوا حتى تعبوا ؛ شربوا الشاى . انهم فى جلستهم لا يبدو منهم سوى انصافهم . ومستطيل الضوء الخارج من دكان المعلم يعقوب ؛ يفضح المارين فى الشــارع ، والمــارون يسرعون بمجرد دخولهم فى منطقة الضوء ، وفى نفوسهم الحسد ، حسد الجالسين على الدكك والمصاطب ، فالجالسون فى الظلام ؛ يرون المــارين ؛ المغســولين بالضــوء . المعلم يعقوب يقف خلف البنك ؛ يرفع يده الى جبهته . حاجبا النور عن عينيه ، حتى نستطيع ان يرى الرجال .

ــ ايه أخبار البئر والمهندس والبترول ياسى حب ..

تتجه انظار الرجال الى حب الدين ، يلمع فى العيون ، رغم الظلام ؛ بريق ابيض. حب الدين كان يريد أن يتكلم منذ ان حضر ، هذا هو سبب حضوره . بعد أن ســأله المعلم يعقوب احتــار اذا سيقول ؛ وجاش فى وجدانه احساس بأن الامور ستكون على ما يرام ؛ وبعد ان يتدفق البترول . ذلك أصبح قريبا منهم . انه

غلى وشـــك الحدوث . فتح حب الدين فمه على آخره . بدا للرجال ، قاع الفم والاسـنان واللسان وحمرة الفم . لم تخرج الـكلمات ، فوجيء حب الدين . بأن كل شيء مختلط بداخله ، وبأنه سعيد ، وان الرجال يجب أن يغنوا للبير والبترول والمهندس

ـ ما تتكلم ياسى حب .

ـ ما تقولشي الواد ملك البسيطة .

ـ حاقول ايه يا رجاله . الحكايه عال والحمد لله .

ـ تستاهل ـ قال اكتر من واحد ـ الحمد ياسيدى ..

بدأ الحديث ، وكانه يحدث نفسه ، الرجال سكارى بكلمات حب الدين وظلام الليـــل الريفى الدافيء الممطر . بدا لهم البئر وعصمت والبترول . مكافأة بسعادة أتت بعد صبر طويل. ايصال مجدد . حصلوا عليه منذ أن ولدوا . بأيام هنيئة ، قد يعيشـــونها أرتفعت الايادى ، وكان حب الدين يتكلم . صمت . حاول الرجال ان يكملوا الحديث . وفى مثل هذه اللحظات ، عندما ينظر الرجل بداخل نفسه . فيجد سديما كاملا ، عالما ضبابيا مهوشا من الحزن والغبطة والفرح والحبور والجنون ، الـكلمات تخون الرجال .

ضحك المعلم يعقوب .

ـ يعنى خلاص . أيام الفقر ولت .

الرجال يملأون صـدوررهم بحديث حب الدين . ويغمســون عيونهم فى الامانى والاحلام . قال كل منهم لنفســه : خلاص . وتنحنح فتحى سالم ، وضع ساقا على ساق ، قال موجها كلامه الى حب الدين . ان العائد من المشروع ، يجب أن يكون لمصلحة البـلد . الارض أرض وردانى ، حب الدين له دور فى خطوات المشروع . رد عليه حب الدين ، كان قد أفاق من سكر حديثه عباراته الموشاة برائحة الاصيل المعطرة بماء الكافور الملونة بزرقة لحظـة ولادة الفجـر على صـفحة السـماء ، قال ان الموضـو سيدرسه المهندس ، سى عصمت . قال حب : المهنـدس نـكلا معه وعلى الرجال أن يطمئنوا . قال المعلم يعقوب ، بعد نجا المشروع ، وتدفق البترول ، قد يأخذ احد الرجال أكثر من غيره لابد وأن يكون هناك مظلومون ، وبعدد المظلومين ، فهنـاك ظالمو فى نفس الوقت ، تلك طبيعة الحياة ، المعلم يعقوب ، يعتقد ا اقل نصيب ، سيكون خيرا من الحال الآن .

ـ الحال سيىء يا جماعه ، حد عارف الدنيا ماشيه ازاى

قال حب الدين : ان المهندس أفهمه ان الشركة ستتولى كل شيء : الضرائب ، المبانى وكافة الانشاءات المطلوبة لتحويل السوالم الى مدينة تسبح فى النور بالليل ، لابد من تحسين حال الناس ، وبناء المستشفيات والمدارس والمصحات والمرافق العامة بكافة أنواعها ، ودور العبادة واللهو وقضاء الوقت والحدائق والمكتبات . كل هذا خير للبلد . فتحى سالم يقاطع حب الدين ، يطلب من المتحدثين السكوت .

ـ انا باعترض ، على جملة أمور فى الكلام .

يصف كلام حب الدين بالخيانة لمصلحة البلد ، مسألة نظام المظلوم لايمكن أن تقبل ، العدل بكل صوره ، حق مبدئى لكل الناس .

انا أحذر ـ قال فتحى سالم ـ باسم الناس ، الاتحاد الاشتراكى حايصفى المشروع ، لو حصل فيه أى انحراف ، استطيع نى أنفذ كلامى د كويس ، فاهم ياسى حب ، ولازم تفهم المهندس بتاعك الكلام ده .

لم يرد حب الدين ، قال المعلم يعقوب . ان فتحى سالم متهور وعنده ظروف خاصة مؤلمة ، وغير واقعى فى تفكيره ، العدل والظلم والانحرافات مسألة وجهات نظر .

شوف يا فتحى ، ياسى فتحى ، ياسيد فتحى ، يا أستاذ فتحى ، يا فتحى بيه ، ياجناب العضو المحترم ـ حب الدين هو المتحدث ـ اللى عنده أكثر من خمسين فدان ، معناه وجود تسعة واربعين غيره محرومين من شبر أرض ، ودا حقهم ، اللى معاه اكثر من عشرين جنيه فى محفظته ، معناه حرمان أكثر من واحد من وجود مليم فى محفظته .

ـ لازم أبلغ عنك ، انت علشان سقطت فى الانتخابات اللى قالت الناس عارفاك .

لم يعلق المعلم يعقوب على كلام فتحى سالم ، الرجال ينصتون بدهشة ، وحب الدين لايرد على فتحى سالم الذى يشعر بشيء يهدر فى داخله ، انه الفراغ المتوتر بعد أن قال كل ما عنده وعاد الى جلسته ، قال فى ترفع ، وبصوت عال تعمد أن يسمعه الجميع

ـ عموما ياجماعة ، أنا ملتزم بتعليمات اللجنة ، والا كنت قلت كل حاجه ، أنا مش حا أعلن عن الاجراءات اللى حا اتخذها . انما الميه تكدب الغطاس .

اكمل حديثه :

ــ ثم ان ياسى حب ، كلامك دا معناه ايه ، الناس تهجم على بعضــها ، هجوم الـكل على الـكل . الغنى غنى والفقير فقير . اتولدنا كدا ، دى حكمة ربنا ، عايز تغير الـكون ، تعيــد تنظيم الدنيا ، انا نجحت فى الانتخابات وانت سقطت . فيه فى السما رب ، وفى مصر حكام ، أولو الامر . اللى الدولة شايفاه بتعمله . الواحد منا ينام ويحط فى بطنه بطيخة صيفى ، اللى يعملوه فى مصر صح ، لازم يكون صح ، هوه كدا صح من غير مناقشة ، واحنا نفهم ايه ، وانت تفهم ايه . اللى هناك حكام ودا شغلهم . وعموما الكلام اللى قلته دا مش كلامك ، وانا حا اربى اصحابه واربيك .

صمت الرجال مشحون ، ملىء بالتوتر ، وفى نفوســـــهم تثور الاحلام المحنطة والامانى المؤجلة .

ــ اختلفوا ، واتعاركوا ، واتناقشوا ، المهم كل دا حا يحصل امتى ، احنا بنتفرج لغاية النهاردة .

الـكلمات تخرج من فم أبو السعود ، منحوتة من حبة القلب ، هل سيجد الرجال ما يطلبونه ، ومتى سيأتى اليوم . قال حب الدين ، انهم رغم كل ما يحدث ، فان تدفق البترول فى ارض وردانى ، سيفعل لهم ما هو اكثر من اى تصور . وطار فى العيون طائر الاحلام حاملا معه كل شىء فى حياتهم ، وسقط فى منتصف الطريق ، ولـكن الرجال ، ندبوا حظهم ، تباكوا احوال العالم ، ولسوا ، انه كان طائرا مكسور الجناح .

حيـــاة الرجال ، بكل ما فيها ، بلدهم وأولادهم ، ارضهم ، احلامهم الخريفية المعتمة ، حرمانهم ، تقف الآن ، وتتحول الحياه بكل ما مضى ، بكل ما هو آت ، الى هذه اللحظة . فتحى سالم يحاسب نفسه ، ويقدر انه لابد من ابلاغ المسئولين ، حتى يقف حب الدين عند حده . لقد ارتاح الى انه لم يسكت ، وتكلم بكل شرف ونزاهة ، وكان ملتزما بالتعليمات . وتوعد الناس ، قال انهم كلاب يميلون الى حب الدين ، وتمنى أن يأتى يوم يخنق فيه كل النـاس ، ويكون كل شىء بيــده ، الاكل والشرب والتدخين وحتى التنفس ، وعندئذ سيعرف الناس ، من هو فتحى سالم ، ويعملون له ألف حساب وسيكون الـكلام فى حضوره بحساب ، ولا بد وأن يعرف الرجل ما سيقوله قبل النطق به .

صمت الرجال ، يتحول الى صمت هادىء ، هدوء ناتج عن احساس بالرضا عن كل ما فى السوالم ، وقد لا يدوم هذا الرضا مساحة الليل فقط ، غير انهم سعداء بلحظات الرضا الصغيرة ، على امتداد العمر الطويل .

احس الرجال ، ان الجلسة أوشكت على الانتهاء ، لم يعد ما يقال ، قاموا من أماكنهم ، قالوا كل ما كتموه فى نفوسهم . ضحكوا ضحكات موشاة بالحبور . بالطيران فوق الارض والناس والاشياء ومشاكل الحياة اليومية . قالوا النكات ، سألوا عن اثمان الحبوب واخبار الجمعية التعاونية ، واسعار المواشى فى السوق ، تحسسوا أجسامهم ، مدوا اقدامهم على آخرها ، رفعوا أياديهم فى الهواء . قالوا ان الجلوس يضر بالجسم . ضحك أبو السعود ، قال ان ابناء السوالم أهل ضيق ، ولا ينفع فى الناس سوى الشغل الحمارى ، من أول النهار الى آخره وان الراحة لها ناسها فى البنادر . أهل السوالم يموتون من الشغل ، والناس فى البنادر تموت من الراحة ، فتعجب من حال مصر .

— واهى دى احدى العجائب السبع .

ضحك الرجال من كلام ابوالسعود ، اخذوا من دكان المعلم يعقوب ما تحتاجه المنازل ، شاى وسكر وجاز ودخان وورق بفره . وتناثرت الكلمات بين الرجال ، وعادت الضحكات الى الشفاه ، واضحى الليل أمام عيونهم موشى بكثير من المسرات ، وافترق الرجال ، سار كل منهم الى منزله ، ذهب بعضهم الي الجامع ، او عشة سلسبيلة او الى دوار العمدة . قام حب الدين ، نفض ملابسه من التراب ، سلم على الرجال الباقين ، قال له المعلم يعقوب ، وهو يحتوى يده بين كفيه ، ويهزها ضاحكا :

— الرب معين لنا جميعا .

تعليق على ما يحدث في السوائل

عشة سلسبيلة مرة أخرى ، الرجال يجلسون . الوقت بعد العشاء ، حب الدين لا يملك القدرة على مواجهتهم ، على أن تلتقى العيون فى صمت مبلل بالاسى ، ما يشغل حب الدين ، أن يبلغ هؤلاء الناس ، الرجال الجالسين حوله ، ما قاله المهندس . حب الدين لايتصور ان تصل الامور الى هذه الدرجة . انه صامت ، تنسال امام عينيه الاحلام ، وبين شفتيه ينام عقب سيجارة . كان ذلك أمرا محتوما . انطوى النهـــار ، وملامح الرجال هادئة ، السوالم تبعث لهم بروائح المساء ، روث البهائم ، الارض الجافة ، الزيت المحروق ، التوابل والدهن والدخان ، احتراق الخشب والحطب ، والقوالح ، الميـاه المرشوشــة على الارض فى الحارات والشارع الرئيسى .

قال حب الدين للرجال : ان المهندس عصمت ، سيحضر الى العشة بعد قليل ، لم يقل له السبب . حب الدين يخمن الامر . قد يرحل المهندس عن البلد ، بعد يوم ، أو يومين على الاكثر .

— وكأننا يا بدر .

— لا رحنا ولا جينا .

لا يصدق الرجال . وتدرك سلسبيله خلف النصبة ، وهى تعد الشـــاى وترص المعسل . ان كل شىء قد يؤجـل العمر كله . الرجال صامتون ، يدركون ، ان الارض ، تلك الرفيقة القديمة . قدم العمر نفسه ، ليست شيئا عاديا ، وانه فى تلك المســاحة الصغيرة ، التى يملـكها وردانى ، يكمن سر الاسرار . بعد ايام . تعود الارض الى وردانى ، وبردم البشر ، يرمون بداخلها الامانى . وكل ما كانوا يطلبونه ، يرمون بها فى قاعها المعتم ، ثم يردمون عليها بالطين . وعندما يشق سن المحراث باطن الارض ، وتبـذر البذور فى رحمهـا ، وتأتى الشـمـس والهواء والمـاء ، وتتعاقب الايام والليالى ، فانه يحدث ذلك الشىء الهائل ، الدائم الحدوث ، ينبت زرع أخضر لامع الخضرة من وسط حبـات الطين ، ويتحرك مع هبات النسيم . السر سيظل فى باطن الارض . الايام تمر ، يولد

الاطفال ، يكبر الصبية ، تنمو لهم شوارب كثة ، يحبون ، يهيمون لحظة الغروب فى الحقول ، يتزوجون ، يموت الرجال ، يدفنون والسر فى باطن الارض . وقد يكون البوح ذات يوم . أو يمضى العمر كله ، وسر الاسرار ، فى مكان ما ، تحت الارض السبعة .

— الموضوع فيه ملعوب .

يقول لهم : ان حامد أبو الليل ، من أهالى الضهرية . كان يتكلم بالامس عن المشروع ، وقال ان نتائج المشروع لن تعود على السوالم فقط . ستتعداها الى البلاد المجاورة ، يقول أبو السعود : انه سمع فى البلد ، المسالة مسالة علم . وما دامت الشركة قد قامت بكل هذه المجهود ، فان وجود البترول حتمى وبكميات كبيرة . أبو السعود يتكلم ، لايرد عليه أحد . الصمت مرة أخرى . فى المساء ، ذهب الرجال الى الحقل ، وقفوا حول الحفر القديم . جلسوا على التراب الاسمر الداكن ، هبت عليهم نســـمة هواء خريفية باردة ، نظروا الى السماء ، فاستقرت فى نفوسهم زرقتها الداكنة . أمسكوا بقطع الطوب الصغيرة ، نظروا ، تمعنوا فى الحلم القديم . أحسوا بالعجز . الارض واجهتهم بأمر لايمكن لاى منهم أن يفهمه . لن يقتنع أى رجل ، بما يقال له . الرجال يفكرون فى الامر ، ومن الصعب أن توجد فى عقولهم فكرة ، انه لا بترول ولا أرض ولا أحلام ، وهم يدركون انه من المستحيل عليهم العودة الى ما كانوا عليه . أيقظ حضور المهندس أشياء كثيرة ، كانت قد ماتت . قطعت جذورها . حجبوا عنها الماء وطراوة الارض . لدرجة انهم تصوروا ان الامور انتهت ، حضـــــور المهندس الى السوالم ، قلب كل الموازين .

ورداني يجلس بينهم . وهو يدرك أن أرضه لم تبح بسرها ، انه سعيد ، ويمنى النفس بالحظ . فجأة تتغير حاله . فى الحلق غصة . وفوق القلب هم ثقيل . ورداني لم يتأكد من المسألة ، ويسأل نفسه : أين الصالح فى الامرين ؟ يقول ورداني : قد أصل الى السر ذات ليلة ، ثم يعود ويقول : انه لن يكون أكثر من المهندس والعلم والورق والقلم . بخلت الارض بما عندها . ورداني يدرك أن الارض لم تعد أرضه ، أرضه كانت مساحة مستوية من الخضرة والسواد . أما الان ، فالتى هناك شىء آخر .

— انما الحكاية مش داخله دماغ حد .

— دا زمن الاعاجيب .

ـ لا ولسه ياما نشوف .

ليلة الامس ، عاش وردانى ليلته ، كأنه يعيش معركة ضد أعداء كثيرين ، لوثوا أرضه وحياته . بقع زيت ، أماكن دق الاوتاد ، آثار عجل السيارات ، مكان المظلة جراح تملأ أيامه . كان عليه أن يحاربهم ، أبعدوه عن ارضه ، ربطوه الى شجرة فى أرض مجاورة راحوا يخرجون له السنتهم ، ضحكوا عليه . وردانى يكتشف انه غير مربوط ، غير انه لا يستطيع حتى أن يتحرك من مكانه ، وفى الجو ، كانت رءوس الناس مقطوعة ، وعلى الطريق ، الايادى والارجل وقطع الاجساد ونقاط الدم .

ـ ايه يا وردانى .

ـ هيه .

يرفع وجهه للرجال ، فى الغد يتسلم ارضه ، يعود اليها مرة اخرى . قال ابو السعود ، وهو يتكلم جادا بلا ضحك : مما دفع الناس الى الانصات له . ليلة الامس تأخرت فى نومى ، سهرت كثيرا . الرجال ينصتون . كان ينام بمفرده ، وكان الناس أكلون لحما نيئا له رائحة ، الايادى يقطر منها الدم ، بين الاسنان لون أحمر قان . كان هناك شخص ما يدور على الرجال ، يعطيهم اللحم بغير حساب ، يؤكد لهم ان هذا الشخص ، هو المعلم يعقوب ، يضيف ، ان أمر الشخص محير ، مرة المعلم يعقوب ، ومرة فتحى سالم ، ومرة ثالثة العمدة . استيقظ من نومه وهو يستغفر الى الله تعالى ، الا يكون هذا الكلام صحيحا .

ـ قال الله ولا قالك .

قال ابو السعود : اللحم النيىء فى الاحلام فأل سيىء ، السوالم تنتظرها أيام عصيبة . سلسبيلة تجلس خلف النصبة هادئة ، حزينة . تنصت لكلام الرجال ، وتدرك أن هواء العشة الليلة ، غير نقى وانه ملىء بأرواح غريبة لدرجة انها تشعر بالزحام فى العشة

ـ يا ناس فضكوا من دى سيرة .

كل الرجال ، يريدون هذا من قلوبهم ، حديث الامانى ، شىء مختلف عما يقومون به الآن . الحال لن تطاق ، يتعاهدون على الكلام فى موضوع آخر ويحاولون ، يختارون موضوعا بعيدا ، يتحدثون ، يسرحون مع الكلمات ، وتثقل الالسنة ، وتلوك الاحرف ، وفى النهاية فانهم يعودون رغما عنهم ، الى الموضوع الرئيسى .

يسمعون نحنحة ، صوت واضح النبرات ، على باب العشة :

ـ يا ساتر .
ـ اتفضل .
ـ مساء الخير يا رجاله .

المهندس ، بمفرده . يدخل العشة ، يسبقه عطر ، يقف :لرجال المرة الاولى التى يدخل فيها للعشة ، وربما كانت الاخيرة . سلم على الرجال . شاب ممتلىء ، يتمتع بصحة جيدة ، ملابسه نظيفة ومكوية ، على وجهه بسمة عريضة . أخيرا يقف عصمت فهمى التجهاوى إمام سلسبيله على الله : تربط بينهما خيوط من الضوء والرغبة والحزن ، يقترب منها على مهل ، يرفع يده ، تتسع عيناه دهشة ، يفتح فمه ، يرين صمت على العشة ، وعلى الرجال .

ـ انت سلسبيلة ، اهلا ، سمعت عنك كثيرا .

يكمل وهو يسلم عليها :

ـ الحقيقة ، كان نفسى أشوفك من زمان .

تنام يدها الصغيرة ، بين كفى المهندس . يذكرها دفء اليدين بأشياء كثيرة دفعة واحدة . يوقظ فى النفس الحزن والالم والذكريات . تستريح نفسها على وسادة الصوت الحنون . تستقر يدها فى راحة كفه . لا ترد عليه ، تفعم الكلمات نفسها بالرجاء ، يجيش فى وجدانها احساس بالغربة ، وتتصور ، وهى تنظر اليه ، شوارع القاهرة ، موجات المياه المرتفعة فوق سور الكورنيش فى الاسكندرية ، اعلانات الامبادير التى تنطفىء وتضىء ، رائحة الشواء والدخان الخارج من أبواب المحلات بالليل ، الاضواء ، السيارات ، العشاق فى شوارع الزمالك المظلمة ، السيارات الواقفة على جانبى طريق المعادى بالليل ، الهمسات والتأوهات والملابس الملقاة فوق المقاعد ، مناجاة ابن الجيران ، المقاهى المزدحمة ، شارع عماد الدين لحظة خروج حفلة تسعة من دور السينما . معاكسات الشبان ، كلمات الغزل ، ثرثرة السكارى فى البارات .

ـ انا ماكنتش فاكرك حنوه كدا .

حديث المهندس يتحول الى نغمة اشتياق عالية ، ترتعش لها النفس . وفى هذا المكان النائى ، البعيد ، المظلم ، فان سكر ، يتضح لها الآن ، ومع كلمات المهندس ، كل الاكاذيب التى عاشت عليها فى الايام الماضية . ويسبح القلب فى أبخرة الغضب .

ـ تشرب ايه يا باشمهندس ؟

ـ طلبه على حسابى ..
ـ على حسابى أنا ..
ـ عنكو ، أنا اللى عازماه ، احنا الاتنين غرب ..

سكت الرجال ، وأحست بحنين فى داخلها وهى تتحدث عن الغربة :

ـ اسمعوا يا رجاله ..

يجلس الرجال ، يجلس المهندس ، وسطهم ، ينصتون له . يبدأ حديثه ، سكر تقول له : انه ضيفها الليلة ، وانها سعيدة به ، الرجال ينظرون اليها ، تقول ان الليلة ، ليلة فرح ، وان القلب ينفس عن نفسه الحزن والصدأ . تقوم سلسبيله ، تسوى ملابسها ، وتدرك كم هى رائعة ، وتلعن السوالم وحب الدين ، وأيامها التى مضت ، تمسك بيدها صينية صفراء ، عليها كوب شاى وكوب ماء ، تقترب منه :

ـ اتفضل يا زين الرجال ..

فى حديثها بحة الم . يخرج الصوت من عمق الفم ، فيهتز له الجسد ، تدوس على أرض العشة ، تقترب من المهندس ، تشم فيه رائحة رجل ، بقايا العرق ، رائحة التراب ، الملابس التى لم تنظف ، الشعر المبلل بالمياه . تعود سلسبيله ، فى حركة بطيئة ، الى مكانها خلف النصبة ، وهناك تجلس ، تطفىء الوابور ، تمد يدها تسكت الراديو ، تتحول الى عينين تنظران الى المهندس .

ـ احنا بنشوف بعض لآخر مرة الليلة .

اكمل المهندس كلامه ، قال لهم انهم لايجب أن ييأسوا . البترول موجود ، كل الذى حدث ، هو تأجيل المشروع فترة من الوقت ، حتى تكون هناك كمية بترول كافية . ما يهمه هو أن يؤكد للناس وجود البترول ، قد يختلف معهم فى أكثر من شىء ، والاختلاف امر مشروع ، هناك امر لاسبيل الى الاختلاف فيه . وهو وجود البترول .

ـ دى حاجه تلخبط ياعم ..
ـ فيه حاجه هنا اتغيرت ..
ـ مستحيل نعيش تانى ..
ـ كنا متأكدين من وجود البترول .

لايستطيع المهندس أن يرد على تساؤلات الرجال ، الكلمات مبللة بالرجاء ، ناطقة بمدى ماوصل اليه الرجال فى الايام الاخيرة ،

أحس المهندس بالذنب . قال الناس لاذنب لهم فيما حدث . قال كلاما كثيرا . كل شيء على ما يرام ، لو شاهدتم حال غيركم ، لادركتم ان حالكم احسن من سواكم . قال ان ابن عمه فى البلد ، كان بلا حذاء ، و لسبب ، هو ان اصبعا من قدمه اليمنى كانت مقطوعة . كان ابن العم يبكى ، يملأ أيامه ولياليه بالدموع . واشمعنى آنى يمنى ، هوه أنا كنت عملت ايه . ظل الشاب يبكى ، يعيش حياته بمرارة وألم . يقول المهندس ظل ابن العم هكذا . حتى ذهب الى مستشفى المركز . وعلى باب المستشفى ، شاهدا معا ، أمام باب مستشفى المركز ، شابا آخر ، بلا قدمين ، ان أهله يحملونه الى المستشفى . يقول المهندس ، ابن عمه عاد الى البلد على الفور ، قال لاهله : انه شاهد ، من هو أسوأ منه . وعند هذا الحد ، أدرك ان حالته لا تستحق حتى البكاء .

الحال هنا قال المهندس : احسن من بلاد أخرى ، ياجماعة أنا من الفلاحين . فلاح ابن فلاح . حالتكم دى أحسن ، أنا باحسدكم . البترول مهم دا صحيح ، انما دا اللى حصل .

يقول لهم : انه سيعود لهم ذت يوم ، الرجال يجب أن يذهبوا الى حقولهم ، من الصباح الباكر ، لننس ما حدث .

– بس ازاى يا باشمهندس ؟

– مش ممكن .

قال لهم : لنعتبر ما حدث كان كابوسا ، أو حلما . ضحك المهندس ، فلتكن حكاية مثل حكايات أبو السعود ، التى يحكيها فى الليالى الطوال . الرجال يشعرون بكراهية نحو المهندس . ما طلبه من المستحيل تنفيذه . يقول المهندس : انه يحب السوالم ويعتبر نفسه جزءا منها ، خاصة وان البلد فيها رجال ، مثل حب الدين وللوم وأبو السعود والمعلم يعقوب وفتحى أفندى سالم . نسى أن يقول لهم والعمدة رشيخ الخفر . قال لهم : ان عشة الست سلسبيلة عزاء لكل الناس ، وهو يتحسر على الايام التى مرت ، لانه لم يعرف طريقه الى العشة الا الليلة .

يا شماتة أهل البلد والبلاد الثانية فينا .

سلسبيله تجلس فى مواجهة المهندس ، تحدق فيه ، تشرب كلماته . انها تصحو الليلة من حلم طويل ، من نومة عمرها مائة الف يوم . الناس تنظر وعلى وجهها يستريح احساس مريح ، انها تحرك عينيها الواسعتين ، وتمر على الرجال . وكل رجل

يؤكد لنفسه ، بطريقة ما ، ان بين هذه المراة ، وبين المهندس شيء ما ، همس راجف ، قشعريرة ليلية ، وعود غامضة ، رغبات راعشة .

انما الباشمهندس منين ؟

يجسدها الرجال على جراتها . يلتفت الباشمهندس ، ترسم ظلال يده على أرض العشة ، خطوطا بالطول والعرض ، لحقول حرثت وخططت وزرعت غير انها أصابها البوار .

— مولود فى الصعيد الجوانى ، وشغلى فى مصر ، وتعلىمى كان فى الاسكندرية .

— ياه .

وقالت لنفسها ، مرحى يا زمن النزوح ، الدنيا واسعة ، وانها هنا ميتة تنتظر يوم الدفن ، والدفن ككل ما فى الحياة بالدور ، وكل شيء محسوب ، ان ما فى الصدور كثير بلا حدود .

— والله حاتوحشونا يا رجالة .

يقول لهم عنوانه ، عنوان العمل والسكن ، يطلب منهم ان راسلوه . أما الذين سيذهبون الى مصر ، لسبب أو لآخر ، فهذا هو رقم تليفونه ، فى العمل فقط ، فالتليفون فى المنزل ، امتياز خاص بالاغنياء فقط . يتساءل الرجال ، ان كان فى مصر أم الدنيا أغنياء وفقراء ، وتعجبوا من حال الدنيا . المهندس يحلف الناس ، بمقام سيدنا الغريب ، يطلب منهم أن يمروا عليه ، وسيكون تحت أمرهم ، ولن يغفر لاى فرد منهم أن ينزل مصر ولا يمر عليه .

— بكره حاتكون فى مصر يا باشمهندس .

تسأله سلسبيله ، الامر حقيقى ، قالوا لها ساعة الغروب ، ان الامر مزاح ، وسيتم ايضاح الموضوع فى الليل عند حضور المهندس ، يبدو ان الامر صحيح . قام أبو السعود ، خرج دون أن يسلم على أحد . انه يتجه الى منزل المعلم يعقوب ، يسير ببطء ، يفكر فى الامر . قال لنفسه : ان المهندس سيأخذ مرتبه فى أول الشهر ، مهما حدث للبلد ، السوالم والناس ، والامر لا يهمه . المصيبة لم تقع الا على رءوس الناس فى البلد . كانت البلدة نائمة ، غارقة فى الظلام ، مغموسة فى الصمت . قال لنفسه : انه لن يفعل اى شيء ، الا بعد ان يسمع رأى المعلم يعقوب .

يطلب المهندس من الرجال فى العشة ، ان يعاهدوه ، على ما تم الاتفاق عليه ، الرجال لايدرون ما يفعلونه ، بل انهم لا يدركون ان

كان المهندس ، يتكلم جادا فيما يقوله . كان الموضـوع كابوسـا غريبا . طلبوا من الله ان ينجيهم شر الايام . قالوا ان أيام الاباء والاجداد كانت خيرا من هذه الايام ، وان الايام القادمة ، ستكون اسوأ من ايامهم . قال الرجال لانفسهم : ان الامور كانت تسير حسنة أو سيئة ، المهم انها تسير بأى شكل ، حتى اتى المهندس وها هو ذا ، يريد ان يترك البلد . ليته ما حضر .

سلسبيله لا تسمع حديث الرجال ، انها ثملة ، اسكرها الحزن ، تنظر الى الرجال ، تدرك انهم متفاهمون دونما كلمات . الايام ثقيلة ، ثقل الحديد . وحكاية البئر والبترول والحياة الجديدة ، ستتحول مع الايام القادمة الى حلم قديم صدىء . يقول لهم : انه يعلم ، بوحى من داخله ، انه لابد وان يتم اللقاء ذات يوم .

ــ ومسير الحى يتلاقى .

يقف المهندس ، يتواعدون على اللقاء صباح الغد . وعلى الجسر ، سيكون الوداع .

ــ ما لسه بدرى .

ــ المهم تسلم على مصر يا باشمهندس .

يستريح فى العيون توق ورغبة ، يمد لها يده ، تحضن كفه بيديها الاثنين، ينام الصمت على صدر العشة ويخرج الرجال معه .

ــ الا الباشمهندس اسمه ايه ؟

تقف سلسيله ، تنادى عليه ، تسأله عن اسمه . يقول لها ، وكان قد ابتعد عنها : عصمت فهمى النجعاوى . تقترب منه ، يكون قد اصبح على الجسر . السجائر فى الايادى ، ترتفع ، تدور فى نصف دائرة ، تقترب من الافواه ، تشتعل نارها ، ان السجائر تبدو كالنجوم الليلية البراقة .

ــ انت اسمك عصمت بصحيح .

المهندس لم يسمعها ، تراه من الخلف ، تحاول أن تميزه ، تجرى . تراه عن قرب ، كتفاه متهدلتان الى اسفل ، يداه تطوحان فى الهواء ، وراسه مدلى ، والقدم تصطدم بأرض الجسر .

ــ انت اسمك عصمت بصحيح ..

لم يرد عليها . فى العشة جلست سلسبيله تبكى ، لم يكن هناك أحد .

الحديث عن البئر والبترول والمهندس مساحات فى القلب . وحكايته معلقة فى أماقى العيون. والرجال لاحدث لهم الا عنه . شعروا ان الموضوع كله أكبر من فهمهم . فحاولوا أن يفهموه . تعبت منهم العقول والقلوب ، الحال يختلف الان . فى كل مساء ، يجلس حب الدين وسط الرجال فى العشة ، يشرب الشاى ، يأخذ نفسا من الجوزة ، يتراهن مع الرجال ، على أن يشعل النار من الجوزة ، ينظر فى الوجوه ، يتفرس فى الرجال . يقسم لهم ان الايام القادمة ، ستحمل لهم حكاوى كثيرة . كلمات لا حصر لها ، وعند سماعنا لها ، لن نصدق الاذان ، سنكذب كل ما يصل الينا خلالها ، انه يختم حديثه فى كل ليلة ، بأنه مازال صغيرا فى السن ، ولا يزال هناك متسع من الوقت ، سننتظر ما تأتى به الايام القادمة . يصفق بيديه بعد ذلك « هيه دنيا » ويرين على الرجال صمت ، يقول بعده حب الدين للجالس بجواره :

— دا ملك منظمه سيدك .

حب الدين صامت الليلة . الوقت هو أول الليل . وحب الدين يجلس فى ركنه الصغير . قال له الرجال أكثر من مرة : مالك ؟ لم يرد عليهم . غمغم ، ما فيش حاجه والله . كان يتساءل : هل يخبرهم بأنه يتصور ان الامر كله خدعة ، اكذوبة من الاكاذيب . أعمته الحيرة والتساؤلات ، قرأ الفاتحة لمشايخ البلد ، قال انه ليس هناك أى شىء صحيح بالمرة ، حاول أن ينعم بالوهم طول النهار .

ذهب الى منزله ، وكان قد صحا مبكرا على غير العادة ، كانت سلسبيله نائمة بالداخل ، لم يشأ أن يوقظها . قال لنفسه : النوم رحمة ، ولكن أين هو ؟. فى الراس صداع ، وفى الصدر الم ، ولكن أين النوم ، نام على ظهره ، راح يتحسس الحصير بيديه ، سرحت عيناه فى السقف الواطىء . المخاوف تتحقق كلها مرة واحدة . ادرك ان شتاء هذا العام ، لن يكون قاسيا كان

يتصور ان النقود والبترول والمهندس ، ستذيب برد الشتاء .
كان يقول : ان عدم وجود النقود ، هو سبب البرد . قال له المهندس ، وكانا يسيران معا على شاطىء ترعة ساحل مرقص ، بمفردهما : ان المشى مريح جدا للصحة ، خاصة من أجل القدمين.
كانت تلك هى أسعد لحظاتهما . أصبحت عادة ثابتة ومحببة ، لم يكن أحدهما يتصور ان يأتى يوم ما ، لايخرجان فيه معا ساعة العصارى - يتمشيان ببطء وبغير نظام ، لمجرد الرغبة فى المشى . الناس تحسد حب الدين ، على هذه اللحظة كل يوم ، والحسد قد يصل احيانا الى درجة الكراهية العمياء .

قال له المهندس : انه قد ثبت بالفعل ، وجود بترول فى المنطقة ، الشركة لم توافق على الحفر ، لانه بترول غير اقتصادى.
للحظة ، لم يفهم حب الدين ، بدت أيامه التى مضت ، كلحظات ممطوطة ، غارقة فى الوهم والضباب ، وقال لنفسه : ما أحلى العلم ، وشعر بالاسف لأنه لم يتعلم فى الايام التى مضت منعمره .
قال المهندس . مكملا حديثه : انه سيصفى كافة أعماله منذ صباح الغد . قد يرحل عن السوالم بعد ثلاثة أيام ، فمجرد وجودهم ، يحمل الشركة نفقات ، وانه لا يستطيع أن يتحمل المسئولية ، ما دامت قد صدرت له التعليمات بنهو المشروع ، على أساس ان المشروع مؤجل . قال المهندس : انه لن ينسى البلد ، لن ينسى حب الدين بالذات .

ـ انت شاب عظيم ياحب الدين .

ـ الله يخليك يا باشمهندس .

ـ أنا مش باجاملك أبدا .

يسيران ببطء ، حب الدين يسبح فى بحار الدهشة ، يسيطر عليه نوع ما من عدم الفهم . وحب الدين بطبيعته بطىء فى فهم المواقف الجديدة ، وهو عادة يستغرق وقتا ، حتى تصل الامور اليه . عصمت بالنسبة اليه ، لم يصبح مجرد مهندس وبئر ومستقبل ، بل انه صديق من لحم ودم .

ـ دا معناه ايه يا باشمهندس .

ـ ولا حاجة .

ـ أنا محتار .

ـ انا اكثر حيرة منك .

أخاديد المرارة ، تنسال خلال بسمة المهندس . انه يشرح .

يقول كلمات مرة ، وتتحول كلمات المهندس الى أسئلة ، ومن حلقهما ، كانت السوالم ، تبدو لهما يتيمة ، تتألم بصوت خافت ، تطلب الامان من الليل المقبل ، وان كانت تعلم انه امان مؤقت .

ـ انما يا باشمهندس ، دا مستحيل

ـ وايه الفرق بين الممكن والمستحيل ياحب الدين ؟

يتكلم حب الدين بلسان غير لسانه ، يدور اللسان فى الفم دون أن يدرى ، يلوك الكلمات فى فمه ويطحنها تحت الاضراس قبل أن ينطق بها . وبعد الحديث ، بعد الكلمات المتناثرة والانصات للآخرين ، تبقى فى الذهن معان عالقة ، لم يعبر عنها ، تاهت فى زحمة الكلام . حب الدين يتذكر انه لم يقل للمهندس ، ان أهل البلد ، خاصموا العمدة وشيخ البلد وشيخ الخفر والخفراء ، خاصموا الحقول والسواقى والارض والبيوت والمياه . انهم لم يذهبوا الى الحقول منذ أيام . قضوا هذه الايام ، على الجسر ، فى انتظار البئر والبترول والمهندس . من الصعب على الناس ان يعودوا الى ما كانوا عليه . كانت الليالى طويلة ، وفيها حلموا بأشياء كثيرة ، والسبب هو المهندس .

حب الدين يريد ان يقول للمهندس ، انه اكتشف الآن ، وبعد العمر الطويل ، ان كل ما يحدث حوله . يتجه الى اسفل ، وانه يهيم فى الحياة بلا هدف ، وان طعم المرارة فى فمه قد زاد عن حده . لقد طبع اللسان والاسنان والفم كله بلون قاتم . نسى أن يؤكد له ، ان الالفة التى تربطه بالبلد والناس قد انقطعت .

ـ انما الحكاية دى حصلت من قبل .

ـ حكاية ايه ؟ .

ـ ان الحفر يتم ، وبعد كدا يقف .

ـ طبعا حصلت ..

ـ بذمتك يا باشمهندس . قول الحق ..

لايرد المهندس ، يقول له : الرجال بدءوا يضيقون بحياتهم . الفوها طوال سنوات العمر ، الحال تغيرت فى الاسبوع الاخير . ابدى بعضهم ضيقه بسبب الظلام الليلى الدسم . وقال آخر : الى متى نعيش فى البيوت الطينية ، وقال ثالث : الحياة اكوام من التراب ، تراب فى البيت ، وتراب فى الحارة والشارع والحقل ، وتساءل أبو السعود : كيف عاشوا السنوات التى مضت من العمر حتى الآن ؟

الكلمات تتدفق من فم حب الدين فى سرعة . والمهندس توقف ، وهو لا يتكلم . يكتفى بالانصات ، ينظر الى حب الدين وبسمة رضا تنير وجهه . ويقول لنفسه : ان كل انسان كنز فى حد ذاته ، ويقول انه كان ساذجا . لم يكن يتصور ان تصل حكاية البئر الى هذه الدرجة ، وأن يقول حب الدين كل هذا الكلام . أن تتدفق العبارات من فمه . عبارات جميله ، وإن كانت مرة المذاق .

يعودان الى البلد ، والشمس قد تحولت فى الافق الغربى ، الى قرص فى لون الدم . وقد اقترب من الارض . الظلال طالت ، وأشعة الشمس اللينة تداعب الاشياء . لحظة الغروب . والمهندس يقول لحب الدين : انه اكثر حزنا من أهل البلد . بسبب ماحدث. المشروع كان أول أعماله بعد التخرج ، وكان يتمنى أن ينجح فيه . ماحدث فأل سيىء بالنسبة لمستقبله. نجاحه فى المشروع ، كان يعنى حياته ومستقبله . لا يستطيع أن يقول مع الناس ، الموضوع كان «قسمة ونصيب» ، بل ان هناك ظروفا . هى التى حالت دون أن يتم المشروع فى البلد . سارا معا . كانت الناس تجلس على افريز الجسر صامتين يردون السلام والتحايا ثم لا يتكلمون . الشارع الرئيسى ، الحوارى الضيقة . ارض الوقف ، الخيام ، السوالم بحرى . الخيام والبيوت والناس . المهندس يقف أمام الخيام ، يتحدث مع حب الدين . يرفع يده . يسلم عليه ، يسير حب الدين بظهره ، يرفع يده . لا يكون ليده ظلال على الارض ، فيدرك انه المساء . يقف حب الدين ، يستدير ، يسير ناحية البلد .

حب الدين يجلس بالقرب من الرجال ، وهو يفكر فى حياته وحياة الناس ، بعد رحيل المهندس ، وطعم الحياة فى السوالم ، عندما يحاولون العودة الى ما كانت عليه ، أنسأم ، الضجر اليومى المتجدد . الرجال جالسون . يتحدثون ، لقد كانوا يتحدثون عن المناصب والوظائف والحياة الجديدة . تناقشوا ، تعاركوا ، تركت الايام والليالى ندوبا فى القلوب والنفوس والصدور،كرهوا بعضهم لحد الموت .

بعد أيام ثلاثة يرحل المهندس ، وتعود الحياة الى ما كانت عليه لن يوجد بترول ولا مهندس ، يقترب الرجال من حب الدين ، يجدون انه يبتسم ، يتكلم بعبارات غير مسموعة :

— انما الموضوع صحيح ياحب الدين ..

— ماهو مش لازم النكد فى أول الليل ..

- ايه رايك يا سلسبيله ، ما تيتكلمى .

يصمت الرجال ، يستنشقون روائح أيامهم الجافة ، أيام متوجة بالتوجس والصلوات ، موشاة بالطمأنينة الكاذبة . انهم ينظرون الى الليل ، وفى الظلام تسبح المخاوف على أجنحة الظلام . حب الدين يجلس منكمشا على نفسه ، وعبر عروقه يتمدد الوجع والاسى ، ويصمت الرجال ، وتحمل لهم الرياح ، من الشاطىء الآخر ، صوت رجل يتغنى بجمال الليل ، الصوت أحلى من صوت اى رجل آخر ، الكلمات تدعو الحبيب ، أينما كان ، تطلب منه الحضور ، كى يتمتعا معا بجمال الليل . وكنسمة هواء رطبة . يرتفع الصوت ، هادئا واضحا ، يتحول الى نغمة حزن واشتياق ، ثم يهمد الصوت الى جزء صغير من كتلة الاصوات الليلية المبهمة .

- الحكاية كانت حلم ، احنا كنا مغفلين ، كنا مساكين ، انتو عارفين ياجماعة ، كل واحد فينا كان عامل زى الفرقان ، زى ليه ، كان غرقان بالفعل . لقينا قشة ، قشاية صغيرة . قطعناها بايدينا واسناننا ، كل واحد فينا خد حته صغيرة ، وقال لنفسه خلاص الاشيا بقت معدن ، وسبحنا ، كنا عارفين ان الواحد منا لو طال التانى حا يغرقه . انتو طبعا عارفين ايه اللى حصل بعد كدا . اكتشفنا فجأة ، ان اللى فى ايدينا مش قشة ولا حاجة . كل اللى حصل ، اننا قعدنا بعد كدا ، ومافيش حد فينا مصدق . نسينا ان احنا غرقانين ، نضحك ونبكى ، وبعد كدا قعدنا ننتظر معجزة تحصل لنا . قلنا يا خلق هوه ، زعقنا ، رفعنا رءوسنا فى الهوا ، ما كانش فيه حد خالص علشان يسمعنا أو يشوفنا . الودان انسدت ، والعيون عميت . جت موجة عالية ، عالية . وكان لازم نفرق ، كان لازم نفرق . انهى حب الدين كلامه ، وصمتوا ، كان الظلام مفروشا فوق صدر الليل ، وانزلقت الامانى والاحلام الى أسفل ، تاركة الرجال يصعدون فى بخار الغضب والحزن ، كانت السوالم كلها صامتة ، مغموسة فى الدهشة والحنين ، وكانت نظرات الرجال مذبوحة ، وفى الصدور شىء ما ، كالانين الموجع . الرجال ينظرون الى بعضهم البعض ، وكل منهم تتحسس أخاديد المرارة فى اعماق القلوب

رفعت سلسبيله عينيها من فوق النعسبة ، نظرت اليهم ، دارت نظراتها فوق الجالسين فى العشة ، همست بصوت ناعس :

- وحدوه

تناثرت العبارات من افواههم .
ـ لا اله الا الله .
ضحكت سلسبيله .
ـ كمان وحدوه .
ـ لا اله الا الله .

تحدث أحد الرجال ، وجه حديثه الى حب الدين . رجاه ان يخبرهم بالامر كله ، فى الحكاية نقطة لا تفهمها عقولهم . لم ثم الحفر ما دام المشروع لن يتم ؟ . هذه النقطة تعذب الرجال . لم يرد حب الدين عليه . قال لهم : عليهم أن يصبروا ، ذات يوم سيعرفون الامر ، ارتفع صوت يغنى فى الحقول . لقد اصبح الليل الآن أكثر هدوءا ، والكلمات تسقط على القلوب فتوجع الرجال
ـ زرعت لو كان .
ـ سقيته ياريت .
ـ طرحت ما يجيش منه .

ينظر الرجال ، يكتشفون ان ورداني ليس بينهم ، لم يحضر الليلة الى لعشة . تخيل الرجال ارض ورداني والبئر وخيام الغرباء . اكد الرجال أن فى الامر سرا ما ، قالوا : فلنذهب الى المهندس ، نعيد عليه الكلام ، المزاح فى هذه الامور ، غير مريح . قرروا الذهاب الى المهندس ، غير انهم تكاسلوا ، قالوا فلنؤجل الموضوع حتى الغد . طلبوا الشاى ، دخنوا الجوزة ، تحدثوا فى كل الامور ، تمنوا أن يكون الامر حلما . الرجال يدركون ان السرور الذى نعموا به فى الايام الماضية ، كان سرورا كاذبا ، مسروقا . لم يكن من حقهم ، الكلمات تتراخى ، وتصبح أصواتهم مملة بالنعاس ، ويتمعن الرجال فى أحلام الايام المهجورة ، وتبقى منها فى مآقى العيون أشياء عارية معلقة ، الاحلام والبترول والمهندس والحياة الجديدة .
ـ ولا يهمكم يا أهل السوالم ..
تضحك سلسبيلة ، تخدش ضحكتها الصمت ، ينظر الرجال ناحيتها :
ـ خبر ايه ، هوه انا كفرت .
تبلع ابتسامتها ، يبقى لهم الصمت ، أفق شاحب من السكون واليقظة ، يمسكون به بين أياديهم . وفى نهاية السهرة ، يقسم أحد الرجال ، ان الارض فيها بترول ، وانهم سيتقلبون على

المصاعب . ويطلب منهم ارجاء الموضوع الى الغد .

الرجال يعودون الى منازلهم المتناثرة فى قيعان الحارات الملتوية . وفى القاعات الضيقة ، المزدحمة بالظلام والصمت . المبطنة بالقهر والحرمان ، يجترون حكاية البئر . ينفضون عن القلوب غبار الايام ، ويعودون من رحلتهم ، يقولون لانفسهم ، فى الليل الناعس . ان السبب فى يقظتهم الحارقة ، انهم عادوا منذ قليل من رحلتهم الطويلة ، من بلاد واق الواق . وانهم لم يجدوا كنوز الملك سليمان . ولم يكن هناك ملك بهذا الاسم . يقول الرجال : انهم عند وصولهم الى بلاد واق الواق ، مرفأ الوصـــــول وبر الامان . حطموا مراكبهم ، اشعلوا خشبها ، وعلى النيران ، اذابوا الخوف الجليدى النائم على الاعماق ، وفى طريق عودتهم ، كانوا يتذوقون على مهل . الاحســاس الطــارىء بخيبة الامل . لم يجدوا ما يعودون به . صنعوا من ورق الاشجار مراكب . ومن بقايا ملابسهم الممزقة . اشرعة تعب الهواء ، ومن شعورهم المهوشة حبال . وعادو . ذلك انه لابد من العودة فى نهاية الامر . وقال احد الرجال لنفسه : ان الامور فى هذا الزمان عجيبة . وانه محتار .

ذهب أحد الرجال الى منزل وردنى ، كان يريد أن يخبره ان أرضه ستعود اليه ، وان المهندس سيترك البلد . وبعد أن خبط على الباب ، وايقظ النائمين ، قالت له زوجة ورداني ، من خلف الباب : انها لا تســــتطيع أن تفتح . وورداني جاءته الازمة . لايستطيع حتى أن يأخذ نفسه . وان وردني والاولاد وهي جالسون جميعا ، ينظرون الى السقف الواطىء ، فى انتظار أن تأتى الرحمة من عند الله .

— أرض ايه بس .

قالت زوجة ورداني ، ولــكن لنفسها :

• خبر •

يتسلم ورداني ارضه ، صباح اليوم ، من المهندس ، بعد نقل معدات الحفر . ويقال ان البئر المحفورة في وسطها لم تردم بعد ، فظلت كالجرح في قلب الارض . وتبدو كميات الطين الخارجة من رحم الارض . للعيون وقد جفت . بفعل الشمس والهواء والغبار ونظرات الناس ، ويقال ان ورداني لن يرد للشركة مليما من ايجار الارض . يقول ورداني لنفسه : ان الارض والبئر وما فيها ، ستعود اليه ، وورداني لايعرف ، هل يفرح او يحزن، وورداني يعود الى منزله ، متمشيا على مهله في الحواري الصغيرة الملتوية . يصل الى حارته. يقف في اولها ، امامه تصعد الحارة الى اعلى . البيوت الواطئة ، مساحات من التراب على الارض والجدران والنوافذ ، الابواب المنكفئة على صدر الحارة الرجال العجائز ، الاطفال الصغار ، في الايادي بقايا طعام جاف ، العيون الذابلة . المحاجر التي أكلها الصبر والسهاد والمرض ، العتمة التي تطل من جوف البيوت ، بلادة الارض ، آخر أشعة الشمس المنكسرة على أسطح البيوت. الحارة من جديد، تزحم انفه رائحة التراب . ويتنفس الهواء مثقلا برائحة البيوت ، ويسمع ثرثرة الناس، كلمات قيلت من قبل . في حقله لم يشم رائحة الخصوبة . معالم الحقل تغيرت . اياد جهنمية عبثت بها. بعد منتصف الليل، الظلام، الصمت، النجوم اللامعة تبدو كثقوب في رداء الليل . الظمأ شقق الحلوق، السر ما زال بعيدا . السوالم تعود الى ما كانت عليه . في الغد ، سيذهب ورداني الى حقله ، سيعالج الامر ، يستر العورة التي رآها كل الناس دونما رحمة . وعندما يهب هواء الصباح الطرى ـ المشبع بالندى ، قد يغسل عن الارض عارها .

ورداني يصعد في الحارة ، يتوقف في المنتصف ، من تحته تنزل الحارة حتى الشارع الرئيسي ، الذي يقسم السوالم الى

نصفين . فى الشارع اطفال صغار ، رجال عائدون من الحقول .
ومن الشـــــارع ، صعدت نسمة هواء خريفية . على البعد ،
تنعكس آخر اشـــــعة الشمس ، فوق أعالى الاشجار والنخيل
وأسطح البيوت . ورداني يدرك انه لابد وان يواجه الارض بمفرده.
ورداني يستدير ، يصعد فى الحارة ، فى وجدانه تنسـل كلمات
موال حزين ، وعلى الجدران البليدة رسومات . كلمـات من ايام
الانتخابات التى مضت ، وفوق البيوت عيدان حطب ، غسـيل
منشور ، غرف صغيرة ، مخزن معاش ، لا شيء تغير فى السوالم
وحتى عودة الارض اليه ، واستلامها ، لا قيمة لها عند الناس .

اشاعة

أرض ورداني ، أرض مسكونة ، يسكنها أهل الجان ، جعـل
الله حديثنا خفيفا على قلوبهم وأسماعهم . وعندما تم الحفر من
قبل ، لم يستأذنهم احد من أبناء السبيل . لهذا غضبوا من أهل
البلد. والمطلوب ، عمل «ختمة» لهم ، حتى تنفك العقدة ، ويمنحوا
الارض الامان ، ويظهر المختفى فى باطنها ، على أن تكون الختمه
ليلة الجمعة ، وأن يذبح فيها ثور أسود غطيس ، ولا يوجد فى
جسمه شارة بيضاء ، يشترى من بلد ، يقع بحرى السوالم وليس
قبليها . ويستحم فى مياه النيل ، قبـل الذبح بيومين ، عندئذ
ستجود الارض بسرها العظيم . ورداني يشعر، بحنين دافىء يهب
عليه ، انه يتمنى أن يرى زوجته عارية ، أن تتكسر نظراته على جسدها
الابيض. تذكر فى هذه اللحظة، انه لم ير جسدها عاريا من قبل ،
وتذكر ان أصابعه الخشنة قد تمر على النعومة الحريرية لجسدها.
الحجرة تكون مظلمة ، وصوت تنفس الاطفال النيام حولهما يزحم
الليل.

ورداني يضع قدمه على عتبة داره ، ثمة وقت للزوجة والاولاد
وسط عناء العمل . واجهة منزله تطالعه ، باب صغير منخفض .
من خشب تاه لونه الاصلى ، عليه آثار دماء متجمدة ، حال لونها
الاحمر. يقول ورداني : ان الدماء هي دماء خروف ذبحه ، بعد
أن أعاد بناءها ، وانه صبغ الباب بدمائها ، بناء على طلب الجزار،
ويحتفظ بفروته ينام عليها فى ليالى الشتاء الباردة . فى منتصف
اطار الباب العلوى ، حدوة حمار صـدئة ، مثبتـة بمسامير من
الخشب ، فوق الخشب ، تصـــــطدم نظراته ببلادة الجدران
الطينية . من الباب يبدو وسط داره ، يهب عليه من داخله ظلام

رطب . من داخل وسط الدار، تتحرك زوجته وأولاده ، ورائحة الدخان تزحم المكان .

وردانى .

ــ نعم يا باشمهندس .

ــ دلوقت أنا باسلمك أرضك ، وطبعا انت استلمت كافة مستحقاتك المادية عن استغلال الارض فى المدة اللى فاتت .

ــ حصل .

ــ ارجوك ، وقع لى هنا ، باستلام الارض .

ــ حاضر .

ــ وقع لى هنا ، بأنك استلمت كافة مستحقاتك .

ــ حاضر .

ــ احنا ظلمناك فى حاجه يا وردانى .

ــ ما حصلش .

يمسك وردانى القلم من يد المهندس ، يشير له حب الدين بأصبعه الى المكان الذى يجب أن يوقع فيه . وردانى لايعرف القراءة . تعلم فى القسم الليلى كيف يكتب اسمه فقط . ينظر وردانى الى حب الدين ، تسأل عيناه عما فى الورقة . وردانى يعرف ان القلم والاوراق تخون أجدع الرجال . الحكاية مرة كالعلقم . وردانى يتذكر ، انه ما من مرة ، امسك بالقلم ، ونظر الى ورق أبيض أمامه ؛ كى يوقع فيه بامضائه . حتى يخاف من المحضر والمحكمة والحجز والمركز . والضرب على القفا والمصاريف ودفع الريال للشاويش فى التوفيقية والوقوف بلا سند أمام الحكومة . وردانى يقرب عينيه من الورقة . بدت له الورقة كشىء لايمكن فهمه : ان تشابك الحروف كالمتاهة ، كسكة الثعبان عندما تعبر الطريق الزراعى وقت الظهيرة ، يعاود وردانى النظر الى حب الدين :

ــ يا راجل امض عيب .

يحرك وردانى يديه ، يكتب اسمه ، ويعطى القلم للمهندس .

ــ شوف أرضك وحدودك .

يتحرك وردانى ، يشعر بخجل ، العيون تغرس نظراتها فى جسمه ، يدور حول حقله من الجهات الاربع ، يجلس ، يتحسس الحديد ، يدرك انه فى نفس مكانه ، وان جيرانه كما هم . قديما ، قبل أن يموت والده ــ رحمه الله ــ نصحه بأن يعلم حدود حقله بعلامات لا يعرفها أحد سواه ، أبناء الحرام ، لم يتركوا لابناء

الحلال شيئا ، في هذه الايام ، اى شيء ، هذا زمن ايام السوء ، وقد ينقلون الحديد بالليل ، فتقل مساحة أرضه وهو لايدرى . من يومها ، وهناك علامات صغيرة ، بجوار الحديد ، طوبتين من الطوب الاحمر ، عود نجيل مربوط عليه فتلة دوبارة من المنتصف وفى آخر الدوبارة عقدة لايستطيع احد أن يعقدها . دار وردانى حول ارضه ، تأكد من الحديد فى الجهات الاربع ، تحسس الارض بيديه ، ثم سار ناحية المهندس :

ـ خلاص يا باشمهندس ، الارض زى ماهى ..

يقف المهندس ، تعبث نسمات الخريف بملابسه ، يلف الاوراق، يضع القلم فى جيب قميصه . يمد يده لوردانى ، يبدو اتساع الحقول ، كأنه يسبح فى نفوس الرجال ، ورداني ينظر ناحية الشرق تلتقى زرقة السماء الغامضة بسواد الارض ، وعلى خط الافق ، شراع سفينة ، تسبح فى النيل ، وغراب يطير فى السماء ، وخط اشجار يمتد على طول الطريق الزراعى .

ـ وردانى .

ـ ايوه يا باشمهندس .

ـ فى الحقيقة ، انا مش عارف اهنيك بأرضك ، والا أعزى اهل البلد .

مرت فترة صمت ، لم يتكلم احد . احس وردانى انه من الواجب عليه أن يقول اى شيء ، الكلمات تاهت منه ، تذكر أن هذا الرجل ضيف عندهم ، وان سكوته قلة ذوق ، بحث فى ذهنه عما يقوله ، حرك شفتيه ، رفع يديه فى عجز وتسليم .

ـ الحكاية ان احنا زعلانين عشانك ، كنا عرفناك واللى تعرفه احسن من اللى ما تعرفوش ، أهل زمان قالوا لنا كدا .. أصل.

لم يستطع أن يكمل حديثه ، حرك يديه ، هز المهندس يده بترحاب فى وجهه :

ـ أهلا بيك يا وردانى .

سار الرجال خلف المهندس ، استدار وردانى الى ارضه. قال لنفسه : هذه الارض ليست ارضه ، لقد ورثها عن أبيه ، انها امانة لابدوأن يسلمها لابنائه من بعده . أرضه هى ما يشتريه بنفسه ، من حر ماله وعرق جبينه . اما هذه القطعة من الارض. فما عليه الا ان يسلمها لابنه الاكبر . تصور وردانى ، وهو يقف على رأس حقله ، انه بتسليمه الارض للمهندس ، قد خان العائلة

وأن عظام أبيه قلقة فى قبره ، كان يجب أن يدافع عنها ، حتى ولو ذهب الى السجن . قال ورداني لنفسه : انه كان جبانا ، اليوم الذى يأتى لايمكن أن يأتى يوم آخر مثله . رجال هذا الزمان ليسوا رجالا . قال له والده : من يفرط فى أرضه ، فقد فرط فى عرضه . الايام ليست سهلة ، سأل نفسه : أين هم الرجال الذين كانوا سيقفون معه فى وجه المهندس . لقد نسى خيانة السوالم له ، تركوه بمفرده أمام الحكومة ، مما اضطره الى التسليم . والعزاء الآن : انه فى باطن الارض ، يوجد السر الذى سيكون له وحده . استشهد بنجوم السماء ، كان الهواء ممتدا على البساط دائريا حول حواشي الافق .

ورداني يقف وسط داره ، وزوجته تحادثه ، وهى فى آخر وسط الدار :

ـ مالك يا ورداني ، لازم صدرك تعبك ..

امامه حجرة صغيرة ، ينام فيها بالليل مع الاولاد يستقبل فيها الضيوف ، ويجلس فيها أيام الاعياد والمواسم ، تفرش الحصر الجديدة ، تسند الى الجدران ، مساند جديدة فى وسط الدار ، باب صغير ، يفتح على الزريبة وحجرة المعاش . بجوار الباب سلم خشبى يفضى الى سطح داره . وفوق السطح غرفتان : غرفة يضع فيها خزين الحبوب ، وأخرى تربى فيها زوجته أرانب كثيرة ، تباع يوم السوق ، ولا يأكل منها الا نادرا .

يجلس ورداني وسط داره ، كل ما حوله يؤكد ان الليل احتوى البلد بداخله . ومع قدوم الليل ، يخاف ورداني ، يدرك انه يموت ، وقد لايرى الغد . وستبقى لحظة انتصاف الليل ، هى لحظة مجىء الازمة . ان ورداني يشعر بضيق مفاجىء . يقوم ، يخرج .

ـ ما تستنى لما تعشى العيال ..

يستدير ، وهو على الباب . ينظر الى زوجته وأولاده ، لايرد عليها . السوالم تستسلم لعالم الظلام ببطء ، والشمس واهبة الحياة والنور، اختفت. ورداني يسير مسرعا، وفى أنفه رائحة اختمار الارض الشراقى بعد الرى ، وفى اذنه انين الرياح فى الليالى الشتوية . وفى الصدر احساس مبتل بالحزن .

قال ورداني : فى صباح الغد ، سيذهب الى الحقل . هناك سيواجه أرضه بمفرده ، الارض اصبحت غريبة عليه ، وفى القلب والعين ، ينمو احساس مر بالخيانة .

١٣ من ديسمبر سنة ١٩٦٤ .

في صباي ، كنت أحلم ، بأن اقضى العمر فى المدن الكبيرة ، اعيش حياتي بالطول والعرض والعمق والارتفاع ، في ساحات القتال الواسعة ، أماكن يسيل لها اللعاب ، بلاد الثلج والضباب في شمال اوربا ، مساحات النباتات فى المناطق الاستوائية ، فوق ظهر باخرة ، تذهب حتى القطب الجنوبى ، وهناك نمزق أستار المجهول . حلمت بالسفر الى بلاد بعيدة ، المدن النحاسية ، البلاد المغسولة برائحة الكافور ، التمنى بأحلام لن تتحقق ابدا ، الرغبة في عناق العالم بساقين من الحب والرغبة . اسمع الاغنيات المعذبة على ضفاف الدنوب . أشرب الفودكا في قرى سيبريا الخالية . اتناول الخراف المشوية فى خيمة مفروسة فى وسط صحراء مترامية الاطراف ، مرتديا ملابس أمير عربى . أدور في بلاد لا أعرف من لغة أهلها حرفا واحدا . اصيح بصوت عال : ليس لحماقة قلوب البشر من حدود . حظى شاء لى أن أواجه مصيرى بمفردي . فى تلك البقعة الموحشة من العالم . كانت معركتى الاولى . وذلك هو ختامها .

قد يثبت من كافة التحليلات ، احيانا ، ومن خلال البئر الاختبارية وجود بترول بالفعل ، قد يكون بترولا غير اقتصادى ، بمعنى أن العائد من البترول المستخرج لا يغطى نفقات الحفر والاستخراج والتكرير ، ويكون التصرف فى مثل هذه الحالة أن يؤجل المشروع فترة من الوقت ، فترة طويلة ، قد تصل الى مئات السنين تتحول البئر خلالها الى بئر اقتصادية ، وقد تبقى كما هي .

فى أيامى الاولى ، كان عندى يقين انه يوجد هنا بترول ، وان المشروع سيتم على الوجه الاكمل ، وبدات خطوات المشروع ، الدراسات النظرية ، حفر البئر الاختبارية ، ومن خلال هذه الخطوات ، امكن التوصل الى جملة امور هامة ، تحديد ابعاد

المصيدة البترولية ، غور البئر ومساحتها ، سمك الطبقات الرسوبية ، بيانات جيولوجية واقتصادية . تقييم للامكانيات البترولية فى أجزاء المنطقة ، توصيات عن مناطق أخرى ، تستحق دراسات تفصيلية . ومن خلال الدراسات ، توصلت ادارة الشركة الى أن البئر الموجودة فى اتسوالم ، بئر غير اقتصادية ، وبالتالى توقف المشروع . قلت لهم : هنا بترول ، شممت رائحته واحسست بوجوده ، وقرأت عنه فى عيون الرجال ، قالوا انه بترول غير اقتصادى ، فلم أنطق حرفا واحدا بعدها .

امامى هنا أيام قلائل ، كى أنهى المشروع ، أسلم الارض الى صاحبها ، أخلع الخيام ، أرسل المعدات الى الشركة ، أشكر الذين عاونونى . ما يهمنى هم الناس . كانت الناس قد تركت العمل فى الحقول ، وراحت تنتظر البئر . اتساءل : كيف سيذهبون ذات صباح الى حقولهم ، يزرعون ويقلعون ويعيشون حياتهم اليومية المألوفة ، ذلك صعب عليهم ، بدأ بعض معاونى فى السفر ، احسست بالضيق ، قلت لمعاونى اننى لا أريد أن اقابل اى فرد :
— حتى ولو كان حب الدين ؟

تذكرت اننى نسيته ، لم أرد عليه ، دخلت خيمتى ، كنت افكر فى أمر حب الدين ، أهم الناس . رجل بسيط ، لم يتعلم كثيرا ، ولا يزاول مهنة يعيش منها . فى داخله شىء ما يميزه عن باقى الناس . احببته ، أستريح له . تصورت اننى سبق أن قابلت حب الدين من قبل فى مكان غير السوالم . انه شاب لطيف وضع فى مكان غير مكانه . قلت لنفسى : أصعب الامور أن يفهم الناس ما حدث ، وقد أتكلم مع الناس ، يهزون رءوسهم علامة الفهم والموافقة ، البدلة التى أرتديها تقيم مسافة بينى وبين الناس بعد أن أتكلم ، أحدهم يقول شيئا ، لايعترض ولا يناقش وانما يمط حبل الحديث . اننا لا نتعلم شيئا، ذلك اننا لا نجد متسعا من الوقت كى نتعلم ما نجهله ، الايام تدفعنا الى اللعب ، يشرح لنا شخص ما قواعد اللعبة ، بسرعة وبعبارات خاطفة وبلغة أخرى غير لغتنا . وفى أثناء اللعب ، عندما نرتكب الخطأ الاول ، ولو كان ذلك بحسن نية ودونما قصد ، فنحن نغتال بلا سبب .
— المشروع حايؤجل ، بصفة نهائية ياعصمت
— حاضر يا افندم .
رفعت عينى اليه .

— بس يا افندم .
— فيه ايه يا عصمت .
— لا ولا حاجه .
كنت اريد أن أقول ، ما ذنب الناس فى السوالم ، كنت اريد أن أحـــدثه عن حب الدين ووردانى وأبو السعود وملوم والمعلم يعقوب والعمدة والارض والحقول والجسر . سلم على ، ودعنى ، ركب سيارته ، تركني وحدى . وامامي فى السوالم كان المشـل ، أجلس فى خيمتى ، أمامى خطوات المشروع ، لرسومات ، الخرائط كلمات مدونة بالحبر ، عبارات بالقلم الأحمر ، توقيعات ، للعرض على ، تصديق ، يعاد النظر فى الموضوع . مررت بأصـــابعى على المشروع وقلت لنفسى : الاحلام هنا فى الحروف الصغيرة ، على الاوراق . وخارج الخيمة ، فى السـوالم كلهـا ، لم يكن هنـاك شخص يعرف الخبر ، قررت أن اخبرهم غدا ، فى ســـــاعة العصارى ، على أن أخبر حب الدين أولا ، فى سيرنا اليومى .

— النتيجة دى زعلتك ياعصمت .
— هيه ، لا يا افندم .
قالها وهو يقف بجوار سيارته ، تعثرت الـكلمات على لسانى ، قلت لنفسى : ان لصمت الزاخر بالمرارة ، خير من أى كلام . أحضرت ورقة صغيرة ، سأسطر فيها رسالة الى أهلى ، اقول لهم فيها ، فشلت فى مشروعى ، قد احصـــــل على اجازة طويلة ، اقضيها هناك بينهم فى قريتنا التى تنام فى حضن الجبل والنيل . سأقول لهم : ان سفرتى الاولى ، لم تصل الى نقطة ما ، والسوالم يا والدى ، كانت مرفأ الامان وساحل الهلاك فى نفس الوقت .

ان ما يهمنى ، أهل السوالم . البئر والبترول والمهنـــــدس والحياة الجديدة ، يتحولون فى حياتهم الى كذبة كبيرة . وحتى لو قلت ان كل السعداء على الارض ، لايملـكون آبار بترول ، ولا حياة جديدة ، فما استمعوا الى كلمة واحدة منى . اقول ، واريد ان يسمعنى كل رجل فى السوالم ، اقول بصوت عال : ان هذا البلد فى حاجة الى نبى ، رسول جديد ، يوقظ الموتى ، ويغســـل الالم ويمســـح الجراح . كل ما فى الســـوالم يوحى بالقدم . ان الزراعة والرى وحياة الناس من ميلاد ونمو وحب وزواج ، كل ذلك يجرى ، كما كان يحدث منذ الوف السنين . الرجال يزرعون لانه ليس هناك عمل آخر يمكن القيام به ، اتساءل : هل لهؤلاء

الناس رأى فيما يحدث . وعندما استمع الى اخبار العالم من الراديو فى آخر الليل . القاهرة تحييكم . اعفاء نكيتا خروشوف من جميع مناصبه . انهيار الحكم العسكرى الرجعى فى السودان. الصين تفجر قنبلتها الذرية الاولى . قرض من الاتحاد السوفييتى قدره ٢٨٠ مليون جنيه وذلك لاستصلاح ٢٨ ألف فدان . سقوط حزب المحافظين فى لانتخابات البريطانيـة وتأليف حزب العمـال للحكومة الجديدة . أدرك لحظة سماعي لهـذه الاخبـار ، ان ذلك يحدث فى عالم آخر ، كوكب شقيق لنا . الناس معزولون عن كل ما يحدث . وان سمع أحدهم ما يحدث ، وعرفه بالصدفة ، فانه يفتح عينيه اللتين بلا رموش ، ويتوقف فى مكانه ، يفتح فمه ، يقول : ياه ، بقى كل ده بيحصل فى الدنيا ، يا اخى دى الدنيـا واسعة . ثم يمضي فى طريقه ، كأن الامر لايعنيه . اقول : الناس موتى ، يدفنون كل فى ميعاده ، وكل ما يطلبه النـاس فى الفترة التى تسبق الدفن ، فترة الانتظار والتى يسمونها العمر، ان يكون الاكل والشرب والزوجة ، مضمونة حتى آخر ايام العمر .

اتذكر كل ما حدث . كأنه كابوس . مقابلتى للعمدة ، رئيس قرية ششت الانعام ، معاون نقطة البوليس ، مفتش الصحة ، رئيس مجلس مدينة ايتاى البارود . العمدة رجل غريب الاطوار، كيف كنت سأتعـامل معه . رجل بليـد الحس ، رجل اعمـال متخلف . لقـــد كنت أريد ان تمتلىء العيون والقلوب والعقول بأشياء اكثر انسانية . انتهت حكايتنا ، وغداً أو بعد غد ، يجلس معهم حب الدين على الجسر او فى العشـة ، ويحكى لهم حكاية البئر كلها وعندما يخدش شكل الحياة حادث جديد ، فان الرجال يعجزون عن فهم الحادث مهما تكن بساطته . السوالم كلها ، تلك الـكتلة الصماء من النـاس والارض والبيوت والحوارى ، قادرة على فهم الاحداث بطريقة بالغة الغرابة .

فى لقائى الاخير معهم ، شعرت ان التفاهم قد تم دون كلمات ، كان اللقاء نوعا من الصلاة ، صلاة جديدة . صـلاة صامتة . كنا نصلى معا : للأرض ومـيـاه الترعة وزرقة السماء وتراب الحوارى وجدران البيوت ، ولم يكن أحد يدرى ساعتها ان ذلك اللقاء ، هو اللقاء الاخير .

الناس هنا أمام اختيارين : وفى هذا العالم الصغير المحدود ، القائم على قيم معمرة ، وشكل واحد ، ممل ورتيب للحيـاة ،

يصبح السؤال شاقا وعسيرا ، ويصبح الجواب عليه فى رهبة الموت . عليكم يا أهالي لسوالم أن تختاروا ، وأنا أشفق عليكم . عندما اخبرت الرجال بالامر ، نظرت اليهم ، وجوههم قاسية ، يتلامع فوق جلودها النحاسية عناد الريف الصامت ، وادركت ان الصبر الايوبى المترسب فى نفوسهم ، يستيقظ الآن ، وقلت ان هؤلاء الرجال ، لن يتنازلوا ، لن يتراجعوا بعد ذلك أبدا .

كان الليل قد استقر فى الخارج ، وكانت السوالم كلها نائمة ؛ خرجت ، أمام الخيام ، وقفت بمفردى .

ـ من هناك ؟

كنت أود أن أصعد فوق مئذنة سيدى اغريب ، ومن فوقها انادى بصوت عال ، اصيح : يا أهل السوالم ، قبلى وبحرى ، يا أيها الجوابون التعساء فى رحم الليل ، حينما يحمر الفجر ، وينشر شفقه الاحمر على صفحة السماء ، لن تبصروا أثرا لطريق العودة ، من سفر كل ليلة ، ولكن لم العودة الى السوالم .

الظلام ووشوشات الاشجار واصوات الليل تحمل الدهشة والحنين . بدا لى الناس فى هذه الساعة ، يغزلون من ظلام الليل احلامهم ، ويتمدد الليل فى أعماق الرجال . حاولت ان اقرأ الظلام . قال لى الخبير انني بدأت تجربتى الاولى ، ولكنها جرت بشكل غير سليم ، الحياة ما زلت ممتدة أمامى ، وانه ما زال هناك متسع من الوقت ، كى أفعل ما اريده .

القاهرة من جديد ، الذهاب الى المنزل بعد الظهر ، تناول طعام الغداء فى المطاعم المتوسطة ، الجلوس فى صدر المقهى فى السابعة مساء حل الكلمات المتقاطعة ، قراءة صحف المساء ، الاستماع الى فضائح مدينتنا النحاسية ، الشاى والقهوة ؛ لعب الطاولة والدمينو ، قزقزة اللب ، تلميع الحذاء ، التثاؤب ، الاحساس بفراغ عذب ، القيام ، التسكع فى الشوارع ، العودة الى المنزل ، وفى الحجرات الصغيرة ، نجتر الاحزان ، ونتأمل ما فى هذا العالم من شجن ومرارة واخفاق .

وهنا ، فى السوالم ، سيقضى الرجال ، أيام العمر ولياليه ، فى انتظار ان تتحقق المعجزة فى حياتهم ، ويمتلك البسطاء الارض والماء والغذاء . وقد يبذر الرجال فى رحم الارض احلامهم ، وينتظرون ، حتى يتحقق لهم كبرياؤهم الخاص . وعندئذ قد يمتلك الناس الارض والحياة . قد يشعرون بأنفسهم ، وينامون

على الاسرة ، ويستحمون مرة فى الاسبوع ، ويقضون حاجاتهم داخل مراحيض نظيفة ، ويشربون مياه نقية . قد تمتلىء المحافظ بالنقود ويتعلم الصبية ، قد يمسك الرجال بالجرائد اليومية معدولة ، ويفهمون الاحرف السوداء عليها . وحتى يحدث هذا ، سأنطلق ، أنا عصمت فهمي النجماوى ، أجوب البلاد ، مزهوا بانكسارى ، وقبل أن أرحل ، أن اسافر بعيدا ، يجب أن أقول لاهل السوالم ، ماذا أقول لهم ؟ أوصيهم بالصبر الى أن يأتى الخير . اننا نهزم وبعد الهزيمة ، لا نجد الوقت الكافى كى نعاود الكرة ، فالموت يجيء سريعا .

جمعت أوراقى ، وضعتها على المنضدة ، اعددت فراشى ، وجلست . انصت للصمت الليلى . وقبل أن أرحل ، قبل أن أختم السفرة الاولى ، سأدور فى حوارى البلد ، وسأذهب لاول واخر مرة الى عشة سلسبيله ، وارمى على الناس والبلد السلام الاخير . فى الليالى التى مضت ، كان الرجال يذهبون كل مساء ، الى عشة سلسبيله ، عشة صغيرة على شاطىء الترعة ، وفى الليل ، اشرطة الضوء تبدو من خلال ثقوب العشة . امام العشة تلمع رصاصية الماء ، ووسط الليل الصامت الهادىء ، تبدو العشة كتلة من الحياة الصاخبة ، مدفونة تحت صمت السوالم ، وفى المنتصف طبلية قديمة . فى آخر العشة من الداخل قفصان قديمان كفئا على الارض ، فرشت فوقهما جرائد قديمة ، وفوق أوراق الجرائد ، أكواب ، صينية شاى صفراء ، أحجار جوزه فارغة ، ماشه ، والرجال يكونون دائرة حول الطبلية .

لن انسى ذلك ابدا .

عندما ذهبت اليهم ، افسحوا لى مكانا وسطهم . جلست ، تناولت من يد سلسبيلة كوب شاى صغيرا ، عبارة عن سائل لزج غامق السواد ، مرارته مركزة ، يترك أثرا دسما على اللسان ، يوجد الراديو على مكان مرتفع بجوار سلسبيله صوته عال ولا أحد ينصت اليه . نسيت أن أقول ان سلسبيله رائعة . جميلة ، تساءلت لحظة مشاهدتى لها : كيف كانت تعيش هنا . جلس الرجال فى مواجهتى ، ابتعدوا عنى ، لم يكن يجلس بجوارى أحد منهم . ذكرتهم بالحاكم والمحكوم ، والحكومة ، كما قال لى حب الدين من قبل ، لا أحد من رجال الحكومة يجلس الرجال بجواره النظرات متبادلة بيننا ، الصمت يزحم المكان ، اقترب حب الدين

مني . في يده الجوزة ، الرجال تنظر اليه بدهشـــة . قدم الى الجوزة . لم أشأ أن أردها . دسست غابتها بين شفتي ، سحبت نفسا .. شيء حاد ساخن يسري في النفس ، يختلط بمرارة ودسامة الشاي . يشيع في النفس سرورا مفاجئا ، تصعد سخونة هادئة من الصدر الى الرأس . ان لـكل مجموعة من النـاس مسراتهم الخاصة ، ومهما تكن الحياة جهمة شائهة . فان النـاس قادرون على خلق مسرات صغيرة . يستسلم الرأس ، تدور الغـابة بين الرجال ، تنعقد سحابات الدخان الازرق في جو العشة ، لا يبدو من الرجال سوى انصافهم ، تهيم النفس ويغيب العقل ، وتبدو سلسبيله كأحلى نساء العالم . وقلت لنفسي . من لي بجلبـاب واسع وطاقية من الصوف وقدم تشققت من أثر مياه الري ، وصدر مغطى بالشعر وشارب كث وذقن غير حليق ، وعند هذا الحد . ستبدوسلسبيلةغاية المنى. تتحرك الالسنة، وأهمس في بطء وتثاقل ان جســد ســلسبيله وعد بلذة دائمة ، وانها أحلى من نســاء القاهرة . أين كانت في الايام المـاضية . ويصيبني هم مفاجيء . دائما نكتشف أحلى الاشياء بعد فوات الاوان ، نحب بعد تساقط شعيرات الرأس . نتزوج بعد ان تصيبنا الـكهولة .

— ضمني وانا أضمك ، ليل الشقا طويل .

شمس العصاري غابت ، ياللي بلادك بعيدة .

كانت سلسبيله تغني . انســالت الـكلمات في خاطري . وفي الاعماق . كانت الدموع الدافئة تسح . نظرت حولي ، كنت نصف نائم . وفي جو العشة ، كان الصخب والضجيج .

يــوم الــوداع .

٢١ ديسمبر سنة ١٩٦٤

خيام الغربا

قال عصمت لنفسه ، على غير موعد سيكون الرحيل . بدأ العمال فى فك الخيام ، حمل كل منهم أشياءه الخاصة . ورغم شكواهم الدائمة من الحياة فى السوالم ، واستعجال الرحيل ، والتباكى من ظلم العالم الذى رماهم هنا ، فان الرجال هذا الصباح ، يشعرون بحب للسوالم .

ـ والله الدنيا دى عجيبة

ـ حد كان يصدق

وفى مكان الخيام ، تبدو آثار الحياة . حفر مكان الاوتاد ، أماكن نظيفة من الارض ، بيضاء لامعة ، أماكن أسرة ومكاتب ، أعقاب سجائر ، فضلات مياه مداوقة ، أوراق ممزقة ، علب سردين فارغة ، ومن الجهات الاربع ، كان أهالى السوالم ، يقفون فى صفوف . عصمت يقف فى مكان مرتفع ، ينظر الى الناحية البحرية ، حيث الارض والبئر المؤجلة الى موعد غير معلوم قال لنفسه : انه أحب السوالم بكل ما فيها ، وان سلسبيله على الله ، قد تركت فى العين والقلب والصدر ، ما يكوى النفس ، احساس لاذع ومر ومؤلم . وسأل نفسه : هل سيراها قبل الرحيل .

عصمت فهمى يسير بخطوات بطيئة راسما دائرة ، حول الرجال القائمين بحمل المكاتب والحقائب والخيام وأوانى الطعام والكراسى والاسرة ، ناظرا الى أسفل ، ان عينيه تنظران الى نفس الاماكن التى يدوس فيها بقدميه . عصمت يضع يده اليمنى فى جيب بنطلونه الايمن ، ويده اليسرى فى جيب بنطلونه الايسر ، انه يفكر .

ان الصغار من اطفال السوالم قبلى ، والذين كانوا ذاهبين فى هذه الساعة الى مدارسهم ، حاملين كتبهم ، ونافخين فى الهواء ،

محاولين طرد شتاء اتى قبل الاوان ، ما زالوا يذكرون المهندس ، فى سيره البطىء ، شاب قمحي اللون ، يرتدي بنطلونا أزرق ، وقميصا سماويا مفتوح الصدر ، شاب طويل ، يقال عن مثله من ابناء السوالم ، انه ولد فى أيام الرخاء ، وانه من بيت عز . من فتحة القميص يطل شعر غزير أسود ، وفى محجريه تدور عينان عسليتان ببطء وشاعرية ، تمسحان البلد والحقول . ويومها ، سأل الصغار انفسهم ، وهم فى الطريق الى مدارسهم ، عن السبب فيما يحدث ، فك الخيام ، الناس المتجمعون ، ما يحزن المهندس فهو يبدو مهموما ، والمهندس فى نظرهم شاب أكمل تعليمه تخرج ، وتوظف ، واستراح من المذاكرة وضرب المدرس وسؤال الاب عن سير الدراسة ، واستجداء القروش القليلة من الاب والاخوة الكبار . ان صبية السوالم يسمعون دائما عن ايام زمان، يقال لهم : كانت أياما عظيمة ، اما هذا الزمان ، فأيامه بخيلة فى النقود والصحة والحال ، ولا يدركون السبب . ان جميع الاطفال ، قد اقسموا لانفسهم جميعا هذا الصباح ، بأنهم لابد وأن يصبحوا مهندسين .

ـ مالك يا باشمهندس ؟

ترتفع عيناه سائلتين ، هو احد معاونيه ، لا يجيب عليه بكلمات واضحة ، يستمر فى سيره . بعد الغد ، يجلس فى مكتبه ، فى الدور العاشر من احدى عمارات القاهرة ، يشرب القهوة ، ينظر من نافذته ، يشاهد أسطح العمارات العالية ، الميادين المزدحمة الشوارع الطويلة الصاعدة فوق صدر القاهرة ، هذا كل ماهنالك.

ـ المهم ان الحكاية انتهت ..

ـ حكاية ايه ؟

ـ سواء بالخير ، أو بالشر ، انتهت .

لا يكمل المهندس حديثه ، يستأذن ، يحاول أن يتمشى ، يكتشف ان صمت الناس والحقول والبيوت يضجره ، وعندما ينظر الناس اليه باحترام ، يقول ان الاحترام سيقتله . عضمت يجد نفسه مجبرا على أن يرد التحايا ، ويبتسم ، وينحني ، ويقول للناس : انه رغم ما حدث ، فان كل شيء هنا ، على خير ما يرام .

● الرجال على الجسر ●

لقد تألموا كثيرا ، وتحملوا وبقوا يبتسمون .

قال لهم أبو السعود ، ان غيط ورداني ، كان من قبل منذ

مئات السنين ، قبر شيخ عظيم .
ــ قبر سيدنا الشيخ رضوان ، رحمه الله
في منتصف الحقل ، دائرة صغيرة ، كانت دائما بائرة ، نباتاتها صفراء ، تنمو ، تذبل ، ثم تموت ، وتبدو من خلال النباتات ، سمرة الارض الغامقة . يقول ابو السعود : ان سن المحراث ، أو حديد الفأس ، لم يكن يسوخ في هذه القطعة من الارض ، ثم يكن من الممكن اصلاحها ، لا بالسماد ولا بالكيماوى ولا بالمياه .

ابو السعود يرفع صوته . سيدنا الشيخ رضوان زاره في المنام ، ليلة الامس ، كان حزينا ، شكى له أهالى البلد ، شكى الايام التى انعدم فيها الخير . اقترح عليهم أبو السعود أن تقوم البلد ببناء مقام صغير لسيدنا الشيخ رضوان ، في نفس المكان الذى دفن فيه ، وهو منتصف أرض ورداني ، وبعدها قد يفرجها الله .
انهى أبو السعود حديثه ، لم يعلق أحد على كلامه ، لكن الرجال يدركون بالفطرة أنه حدثت لهم خديعة ، خيانة . والخيانة مرة الطعم في الحلوق ، كاوية لحبات القلوب . الخيانة حدثت بشكل أو بآخر ، سرقة . مؤامرة . أتى أناس في الليل ، والليل ليس له صاحب أو حبيب . وكله اعداء . آذان تسمع ، عيون ترى . سرقوا في الظلام ما في أرض ورداني .

السماء صافية ، صفاء خريفى كاذب . بعد قليل ، يسافر المهندس ، تاركا البلد ، ويعود الرجال الى بيوتهم ، يغمسون لقيماتهم بالاتهامات . ويرسو الذبول فوق العيون والوجوه ، بدا لهم الصباح متعب الجبين . وطار في السماء ، طائر أسود اللون مهاجرا نحو الجنوب . وراح يطعن الفراغ ، بجناحيه في خفة وسرعة . وتعلقت به أنظار الرجال ، تابعوه ، حتى وصل الى حافة الافق . حيث تلتقى السماء والارض . وعادت عيونهم مرة واحدة ، نظر كل منهم الى الواقف أمامه . وكأنما قد عجزوا عن أن تلتقى العيون ، فراح كل منهم يعبث بيده .
ــ ما توحدوه .
ــ لا اله الا الله .

أدركوا انهم جميعا موتى . الايام التى مضت . يقول الرجال ، لم يكن لها صاحب ، وأيامهم القادمة ، ستكون مليئة بالجراح .
الرجال يقفون على الجسر في انتظار المهندس ، في العيون نظرات حالمة ، النظرات تشتعل بوميض حار ملتهب . ومن تحتهم ، كانت

مياه الترعة ، تسير هادئة ، نحو دميسنا وكفر عوانه . غير مبالية بما يحدث فوق الجسر ، ليلة الامس ، ذهب الرجال الى حقل ورداني ، جلسوا حول الحفرة الكبيرة ، وكانت قطع الطوب الناتجة من الحفر متناثرة ، وراحوا يتمعنون فى حلمهم القديم ، اقتربوا من الحفرة ، كاد بعضهم يسقط فيها . كانت هناك ـ مكان الحفر ـ مياه نشع تنز من جدران البئر ، وآثار أقدام ، فى طريق عودتهم ، قالوا كلاما كثيرا ، ضحكوا ، القوا النكات ، ضرب بعضهم بعضا ، وكان الاتساع الليلى يعجن الاصوت والحركات والاحزان .

وقف المهندس بينهم ، اتجهت اليه العيون والايادى والقلوب . اتفقوا جميعا ، ان الصمت هو خير ما يفعلونه ، حب الدين أتى مع المهندس ، كان يبدو عجوزا ، راح ينظر الى مياه الترعة الهادئة ، وهو يقضم أظافره بهدوء ، يسأله المهندس عما يشغله :

ـ مافيش حاجه .

المهندس يبتسم ، لم يقتنع احد من الواقفين بأن حب الدين ليس عنده ما يحزنه . تحركت شفتا حب الدين دونما ارادة منه ، سأله المهندس : هل معه نقود ؟ فقال : انه معه الكفاية ، سأله عن سلسبيلة ، فأخبره بأنها قامت مبكرة هذا الصباح، على غير العادة وحضرت الى العشة ، كى تراه قبل سفره . شعر حب الدين عقب حديثه بخجل ، الستر يكتسب معنى خاصا . قد يعيش المرء حياته بشكل ما ، وعندما يتعرى امام عيون الآخرين ، فانه يشعر بالغضب ، يحاول أن يخفى بعض الامور . سأله المهندس : ان كان العمدة قد اغضبه ، أو هل هو مريض .

ـ والله العظيم ما فى حاجة .

ـ امال فيه ايه ؟

طلب منه المهندس ان يحكى لهم كيف قضى يومه ، منذ أن صحا من نومه ، حتى الآن . قال كلاما كثيرا ، ان دماء حمراء تصعد الى وجهه ، ولم يدر ماذا يقول :

ـ لازم شفت حاجة فى المنام .

ـ لا .

ـ افتكرت الارض والمدارس وليالى البنادر .

ـ لا .

ضرب المهندس كفا بكف ، ركب السيارة ، وهو يحاول ان

يضحك ، اعتدل فى جلسته . نظر فى ساعة يده . كانت زرقة السماء تنعكس على مياه الترعة . راحت عيناه تدوران فى بطء على البيوت والاشجار ومئذنة الجامع ودوار العمدة والجسر والترعة .

ــ سوق يا اسطى .

رفع يده للرجال ، لوحوا له بأيديهم ، سارت السيارة ببطء . وصلت الى آخر الجسر ، استدارت . اعتدلت على الطريق الزراعى . خيوط النظرات تربط عيون الرجال بالسيارة المبتعدة. السيارة تسرع فى سيرها متجهة ناحية الضهرية . واتسعت المسافة ، فطالت خيوط النظرات حتى تمزقت . وأسرع الجسر والاشجار مرتميين الى الخلف ، وارتمى الطريق خلف السيارة دائخا ، متحولا الى شريط صغير من التراب الرصاصى، علىجانبيه الاشجار والحلفاء ، وفوق آخر نقطة فى الطريق ، تبدو السماء زرقاء . السيارة تسرع ، الطريق الى مصر ، دائما السفر . وفى السماء المغسولة بالشهد ، كانت الطيور تطير مهاجرة نحو الجنوب معلنة اقتراب الشتاء ، وكانت شمس الخريف اللينة الصفراء تسكب أشعتها على الكون .

المهندس يفكر فى حب الدين . بالتحديد فيما يضايقه . اعمل فكره ، قال لنفسه : انه لا شىء يضايق حب الدين . استدار نظر الى السوالم ، كانت البيوت تدور فى بطء ، وكانت السوالم كلها تتباعد ، وتصغر وتنخفض عن مستوى النظر .

عشة سلسبيله على الله

قال لها عصمت :

ــ ياتيجى معايا أوضتى . يا اشوه وشك بمية النار ..

كانت تسير فى حاره باب الوداع ، قال ان حجرته بالقرب من القلعة ، فى آخر شارع محمد على . ليس له جيران . الايام صعبة ومن الخير لها أن تطاوعه ، كانت فى يده زجاجة صغيرة . وكان الليل فوق صدر المدينة . سلسبيله تعرف انه لن يفعل شيئا . وقفت فى مكانها ، واستراحت الملاءة السوداء على ثنيات الجسد الطرى ، وراحت تمضغ اللبانه ببطء ، رفعت يدها فوق حاجبها واهتز الجسد :

ــ لا ياواد ، خفت منك ، تعال خش فى عبى .

ضغط عصمت بأسنانه على شفتيه ، حتى كاد يدميها ، ثار فى داخله احساس دافىء .

ـ ما كانش يتعز ياسي عصمت .
ـ يا سكر .
ـ فوت بكره .
لم يكن من عادتها أن تصحو من النوم مبكرة . قالت لنفسها ، بعد أن حضرت الى السوالم : ان أيام القحط ، فائدتها النوم . كانت تنام حتى أذان العصر ، وكانت تدرك ان ما تفعله شبيه بالمرض . لم يكن نوما ، كان نوعا من الاستلقاء على الظهر ، فى انتظار ما يحدث . فى هذا الصباح ، صحت من النوم مبكرة ، حضرت الى العشة ، كنستها ، رشت أرضها بالمياه ، منذ ليلتين عرفت ان اسم المهندس عصمت ، لم تصدق ، سألته بصوت عال : ان كان اسمه عصمت ، امتص الظلام صوتها ، وتاه النداء بين جنبات الصمت .

سلسبيله تجلس فى العشة ، فى انتظار أن تراه ، ان تقف أمامه . وتقول العيون ما يقال ، تلتقى الايادى ، تحتك الانامل ، وتملأ الانف من رائحة جلده ، وتحمله السلام الى مصر الغالية ، تريد أن تقول له : انها هنا ، ترتدى العرى ، تحيط نجسدها نظرات الرجال ، تغطيه بالرغبات .
بعد ان صحت من النوم ، وقفت أمام المرآة ، مشطت شعرها ، أخرجت من صندوقها القديم ما زينت به وجهها .
ـ والله زمان يا سكر .
بحثت فى صندوق ملابسها ، أخرجت فستانا زاهى اللون ، ارتدته على مهل ، رفعته قليلا بيديها ، راحت تخطو على أطراف أصابعها فى الحجرة ، ادركت انها ما زالت جميلة .
ـ ياخسارة يابت يا سوسو .

ترنمت بمقطع من أغنية قديمة ، كلمات مبللة بالفراق واللوعة شكت سوء الحال ، قالت لنفسها : الحياة لم تعد تطاق تعجبت كيف قضت الايام والليالى والشهور التى مضت . النوم والاكل والشرب ، النوم والصحو ، النوم والرغبات فى العيون ، غيرة حب الدين . الانتظار ، الوعد بالزواج ، الحلم بحياة مستقرة ، السفر الى المدن الكبيرة . تساءلت وهى تدلق مياه الغسيل . وتخرج الشعيرات بأصابعها من بين أسنان المشط ، بعد أن أكملت زينتها ، ألم يأت زمن النزوح بعد ، وهمست لنفسها : متى تستريح اليد فى اليد وتنسج الشفاه كلمات غير مسموعة

وتتحول النظرات الى حبال للمودة .

سلسبيله تسير متجهة الى العشة ، المياه تملأ الترعة ، أوشكت ايام الجفاف على الانتهاء ، الميــاه تجرى ، دموع الاحزان الجنوبية ذكرى عصمت وحارة باب الوداع والدفء المفقود ، السماء المغسولة الصامتة ، الحقول الممتدة . سلسبيله ما زالت تسير فى حوارى البلد ، وسلسبيله فى سيرها تشاهد البلد وقت الصباح ، تشعر كأنها تشاهد البلد لاول مرة . سلسبيله تفكر فى نساء البلد ، لا تذكر انها خاطبت احداهن من قبل ، تعاملها مقصور على الرجال وما أن تأتى سيرة سلسبيله ، حتى تهتف النسوة :

ـ الشر بره وبعيد .

ربما يرثين لهــا فى سرهن ، وقــد تعجب احداهن بها ، وهى جميلة ، هذا الاعجاب لا يعلن أمام الاخريات ، وقد تتمنى احداهن أن تنجب فتاة صغيرة فى حلاوة سكر ، وتظل هذه الامنية سرها الذى لا تبوح به لاحد ، حتى ولا لزوجها ، وقد يختلفن فى جميع الأمور ، الا انه من المتفق عليه ، ان سلسبيله حلوه .

ـ تقول للقمر قوم وانا اقعد مكانك .

ما ترتديه من ملابس ، يدهش الجميع ، سكر تعرف هــذا ، وهى منذ أن حضرت الى البلد ، لم تحاول أن تكلم احدى النساء فى كل يوم ، تسير فى الحوارى الضــــيقة ، وجزء من الشارع الرئيسى ، واثناء سيرها ، تنحدر الابواب والبيوت والنــــوافذ الى الخلف ، وهى تعرف انها مبطنة بمحاجر صغيرة ، تدور فيها عيون بلا رموش ، تشاهدها ، يتحدثون عن حكايتهــا مع حب الدين . النساء تقول : سلسبيلة امراة ماشية «على حل شعرها» ، وقد تتمنى احداهن أن تكون مثلها ، وان تفعل ما تفعله ، وتظل هذه الامنيات نجوى صامتة ، ورؤى ضبابية فى الصدور ، وسلسبيله تسمع كل ما يقــال عنهــا ، حتى ما تنبس به مناقير أبو قردان الأرض العطشى وقت الرى ، وشوشات ورق التوت ساعة هبوب الرياح . الرجال فى السوالم ، فى ســاعات العراك والغضب مع نسائهم ، يعايرونهن بسلسبيلة ، وعلى الفور يقال كل شىء ، وتبقى حكاية سكر معلقة فى اماقى العيون ، كالبراءة المفقودة ، او العفاف الذى انتهك وولت أيامه . وقد تتذكر النســاء ، عنــد مرور سلسبيلة عليهن ، ذكريات مدفونة فى قاع العقل ، الحلال والحرام ، رائحة زوجها مقترنة برائحة رجل اشتهته . وقد تتذكر بعض النساء ،

انها تذوقت الحرام فى ساعة راعشة ، فى الحقول الواسعة ، وتتذكر ن الستر كان آخر ما تتمناه . تقول النساء : سكين مسكينة وغلبانة .
ـ دي وليه .
ـ والوليه مكسورة الخاطر .
ويطلبن لها من الله الستر والغفران .
فى العشة ، كانت سلسبيله على الله تنتظر .

● منزل فتحى سالم ●

فتحي سالم يقف خلف نافذة حجرته ، تهيم نظراته فى فضاء الحقول المتسع ، تمر عيناه ببطء علىما يراه . استيقظ من نومه متأخرا ، وفى ليلة الامس ، رقد فى فراشه ، لم ينم ، فكر وفكر ، تقلب على جنبيه ، ضغط على رأسه الملتهب بيديه وطلب من الله الرحمة .

ان سحابة من الغبار تتحرك على الطريق الزراعى ببطء الآن ، ثم تسرع متجهة ناحية الشمال ، فى الاتجاه المعاكس لسير الريح ومياه الترعة وطيران الطيور المهاجرة نحو الجنوب . فتحى سالم يدرك انها سيارة المهندس ، وهو مسافر . قال فتحى سالم عند حضور المهندس : ان حضوره خطر عليه ، يشعر بفراغ لسبب سفره .
ـ خلاص .

بدت له البيوت والناس والترعة والرجال على الجسر، كصورة معلقة على جدار الذاكرة ، يستعيدها الانسان كل صباح ؛ أتى سفر المهندس عليه وعلى أعدائه ، وهو لهـذا ليس حزينـا ، فى المركز، منوهبوظيفة،بالليل يكتبالاوراقسرا ، وفىالصباح، يذهب الى المركز . طلبوا منه الا يخبر أحدا بذلك ، ولا حتى حبيبة القلب ، اقسم انه لا يعرف أحدا ، وان عزلته ليست احساسا نابعا من الداخل ، بل هى سور قديم بنته الظروفحوله ، قال انه يحادث نفسه كثيرا ؛ عندما لا يجد من يتكلم معه ، تعود الناس ان يشاهدوا نور حجرة فتحى سالم مضاء . انه آخر الاضواء فى ليل السوالم الساهر . والرجال الساهرون على الجسر ، يشاهدون ظله يروح ويجىء فى الحجرة الصغيرة . منزل فتحى سالم فى آخر البلد من الناحية القبلية ؛ مبنى على مكان مرتفع . ويقول الناس : ان المكان المرتفع فوق كوم كان مسكونا بالجن والعفاريت من قبل .

وفى الصباح ، كانوا يشاهدون فتحى سالم ، وقد استيقظ مبكرا ، رغم سهره . انه يترك منزله ، وقد ارتدى بدلة قديمة ، مخططة ، لايملك سواها ، يمسك بيده شمسية ، يلف حول رقبته منديلا ابيض . انه ذاهب الى ايتاى البارود ، يحرص فى سفره على الا يقترب من احد بالكلام أو الانصات أو السؤال ، دائما بمفرده .

فى ايتاى البارود ، يقول الرجال : انه يسلم على الحكومة ، ويقول هو لأمه بعد عودته ، انه قابل فلانا وفلانا وعلانا ، وشرب الساخن والبارد ، وجلس على المقاعد الوثيرة ، ورأى سماء ايتاى البارود المغسولة بالشهد والحنين من خلال نافذة مغطاة بالستائر الوردية الناعمة .

فتحى سالم يدرك ، ان موضوع الوظيفة المحترمة ، والمرتب الثابت أول كل شهر ، والجاه والمنصب ، قد طال تأجيله . الامور فى منزله قد اصبحت اسوأ من اى وقت مضى ، وكبرياؤه فى البلد اصبحت مهددة . وفى كل مرة يجلس هناك ، يبتسم ، يجفف حبات العرق ، تتحرك شفتاه فى حركة تشى بالتنازل .

ـ باقول لك ياسعادة البيه .

يقول كلاما كثيرا ، البسمة الذبيحة تسبق الكلمات ، والاحرف المتآكلة تزحم هواء المكتب .

ـ انا بس بافكر سيادتك .

فى البداية ، قرر فتحى سالم ان يصفى حسابه مع البلد . صفحات مكتوبة مدون عليها بالحبر الاحمر « سرى للغاية » .

طلبوا منه أن يراعى الدقة ، وأن يراجع نفسه . ذهب يسأل عن السبب فى تحولهم عنه وسوء معاملتهم له . لم يعطه أحد وجها . استأذنوا منه ، فالوقت كله ليس مخصصا لمقابلات الناس .

فتحى سالم يعود من ايتاى البارود ذات مساء مريضا ، يسير ببطء ، ينظر ناحية البلد والناس ، كأنه يودعهم . فى حجرته ، جلس ، هذى ، قال كلاما كأنه الهلوسة . قال ان الاعداء من امامه ومن خلفه . من امامه اهل السوالم ، ومن خلفه ايتاى البارود . قال انه يجب أن يضرب فى كل الاتجاهات والله المستعان . صاح ، بكى ، ارتعش جسمه ، نام فى سريره ، أمضى أياما مبللة بالسهاد والمرض ، خاطب اناسا فى الخيال . وفى أحلامه ، تشفى وتوعد . وقال : موعدنا الغد ، وليس الغد ببعيد . بعد ان شفى يخرج

الي البلد مرة اخرى . قال النـاس : فتحى سالم تغير ، المعلم يعقوب همس للرجال ، بعد ان اعطاهم فتحى سالم ظهره ، عائدا الي منزله :

ـ دى صحوة الموت .

فتحى سالم يقول لنفسه : انه كان ينتظر الخير على يدى المهندس

ـ زى كل المرات السابقة ، الواحد يصحى من نومه ، يتصور ان الموضوع فيه حاجه ، يقوم ، يفرح ، يلبس ، يشتم ، تكرهه الناس ، وتخلص الحكاية ، وافضل هنا لوحدى ، وورايا حاجات كثيرة ، كراهية وخلافات وجراح ، أما قدامى ، بركة ساكنة ، عليها ناموس وهاموش . آدى الحكاية .

فتحى سالم يستدير ، يعطى ظهره للنافذة ، يطالعه المنزل من الداخل ، وفى داخل المنزل ، امه واخوته . يسير فى حجرته ، امامه مكتبه القديم المتآكل ، على المكتب قلم ودواة حبر وورق ابيض . هنا يكتب للناس شكاواهم . هـذه المرة سيجلس ، لن يكتب شكاوى . سيكتب عن حالته ، تسع شكاوى ، لن تنقص أو تزيد واحدة . يرسلها الى جهات كثيرة . ويجلس هنا منتظرا .

فى الخارج ، الرجال يتمددون فى استرخاء ، وفى حوارى البلد ، يستمع الى صوت واه يستجدى . انه شحاذ يتجول ، يطلب من الناس ما يفيض عن حاجتهم . فتحى سالم يجلس على مكتبه ، ينظف قلمه ، يغمسه فى الدواة ، وعلى نافذة حجرته ، هبت نسمة هواء جافة .

● حب الدين سرحان ●

مناجاة : انصت يا قلبى ، مددت يدى القصيرة ، امسكت به بجلبابه الطاهر . توقف ، نظر الى ، وكانت تطل من وجهه نورانية . سألته ، قلت له : لم حرقت السفينة ، وغرقت حتى القاع . قال لى : السفينة لم تحترق ، انى اتكلم ، فهل تسمع الى ، ما العمل ياسيدى . خانتنا الريح ، وفرغت القلاع وجفت المياه ، وجنحت السفينة . نامت على احد جنبها . جلسنا على سطح الماء . انفرست نظراتنا فى سماء الله العالية . انتظرنا ان يطلع علينا طائر ، يحدد لنا مكان اليابسة . انقضى العمر ، ومات البعض ، الطائر لم يطلع علينا . لم يرد على ، ادار وجهه ، وكان عليه هم عظيم ، سار ، طار فى الهواء . وقلت لنفسى : فلنملأ القلاع بما فى الصـدور ونسد الخرق بقطع من القلوب ، وعلى

حبات الدموع الدافئة ، ستسير السفينة .

بعد قليل ، يستأذن حب الدين سرحان من الرجال ، ويعود الى بيته ، تاركا سلسبيله فى العشة بمفردها . فهو يريد ان يخلو لنفسه . سينام ، يوما أو يومين ، نوما عميقا وقد ينام العمر كله . حب الدين سرحان يدرك هذا الصباح ، انه تعب بما فيه الكفاية . هيكله مريض ، وعظامه تفككت ، ولا يطلب سوى النوم

المهندس ، الباشمهندس ، مهندس البترول ، عصمت افندى ، عصمت بيه ، الباشمهندس عصمت ، سعادة البيه ، حضر المهندس ، ذهب المهندس ، اتى المهندس ، قام المهندس بعمل كذا . قال المهندس . مكتب الشركة الفرعى بالسوالم بحيرة فى سكرتيرية مهندس المشروع . قال المهندس لفلان كذا ، المهندس يعلم كل شيء . قلت للرجال فى العشة ، ذات مساء اننا ما زلنا صغارا ، واننا سنسمع مع الايام القادمة حكاوى ، لن تصدقها الاذان لحظة سماعها ، العمر ما زال طويلا امامنا . علم المهندس لا تحده حدود . يا أهالى البلد ، الحاضر يعلن الغايب ، وارتفعت رءوس الرجال كسنابل عجفاء تحدق فى السماء ، تسمع المنادى ، تقال كلمات ، تذبل على الشفاه ، وسيولد الاطفال وينسون حكاية البئر والبترول واحلام الآباء ، وتحدق الكلمات فى بطولة الايام المفقودة . حضر المهندس ، لف ودار ، سافر وحضر من جديد ، ثار على كل ما فى البلد ، قرر أن يضع شيئا يبلغ حد الروعة ، غير ان واقع السوالم ، شكل حبته ، كسره ، وعندما استعصى على الكسر قتله . وبعد الحكايات ، الكلمات المبللة بالشوق ، الايام المخضبة بالذكريات . تعود الحياة الى ما كانت عليه والحمد لله . فى الليالى الطوال ، غمسوا خبزهم فى ماء العين ، مضغوا اللحم حتى التخمة . وفى الصباح ، تسلل شعاع صغير من ثقب الباب . كنت انام على ظهرى ، فاتحا عينى عن آخرهما . كانت الاشياء تبدو فى شريط الضوء واضحة ، غبار ، ذبابة ، ناموسة . تظهر فى شريط الضوء ، تعبره فى سرعة. تختفى اختفى الشعاع . عرفت ان الشمس قد اصطدمت بمنزل الجيران اثناء صعودها فوق صدر السماء ، افتح لهم الباب ، آخذهم بالاحضان ، تمسك اصابعهم الخشنة بالقلب ، تدوس اقدامهم فى الصدر ، تضحك ضحكات مسلوخة . وتتحول الاصوات الى ضربات على طبلة الاذن . اللى حا يحصل فى السوالم معجزة ، وانا

اصر على كلامى ، انا احذرك ياحب الدين انت والمهندس ، الاتحاد حايصفى المشروع كله ، تتجوزنى ياواد ياحب . اقول متى تاتى النهاية يا اصدقاء كل ليلة . اسمعونى . بعد أيام تحدث المعجزة ، يتدفق البترول ونسعد ، صدقونى . ليس هذا كلام المهندس ، او رؤيا شاهدتها فى المنام . بل ان هذا ما عرفته بنفسى. ستصبح لحظة المساء هى القنطرة ، بين الرجال ، وبين الليالى الدافئة : يا رفقة السهر .

— يقابلك صاحب الملك الصبح .

— اشمعنى .

— يطالبك بأجرة الجلابيه اللى لابسها .

— ها . ها . ها .

يضحك الرجال ، يضربون اكفهم على حوائط العشة ، يستلقون على الارض ، تسيل من أشداقهم ضحكات باهتة ..

— محفظتك تقول للمعلم يعقوب ساعة مايطالبك باللى عليك :

— اشمعنى .

— وانا مالى يابويا وانا مالى .

— ها . ها . ها .

تمتلىء العيون بدموع مفاجئة ، وينتعش فى الاعماق حزن راكد .

استمعوا ، ساحكى لكم حكاية ، من جدب الايام تغزل الحكايا. فالحكايا تبذر فى رحم الارض احلامنا . ونجلس ، ننتظر ايام الحصاد ، وفى ايام الانتظار ، نعوم فى بحار الكلمات .

— يحكى ، والله اعلم ، انه حدث فى قديم الزمان، وسالف العصر والاوان ، ان كان فى بر مصر ، جماعة من الرجال ، ضاقت بهم الحال . وافزعهم سوء المآل . قالوا لانفسهم ، لنترك الديار ونسافر ، لنرى ، هل حدث لغيرنا ، فى اى مكان آخر ، ما يحدث لنا . ثم انهم سافروا ، ركبوا الريح ، وخاضوا الماء المتأجج ، وداسوا مساحات اليابسة ، غير انهم بعد ان وصلوا الى البلاد البعيدة ، حدث ان ..

القاهرة — الضهرية — بحيرة ١٩٧٢

تمت



يوسف القع

هــذه الرّوايــة

فى خريف ٦٤ ، وصــلت الى قرية السوالم بعثة للبحث عن البترول، ومع أول قطرة من مطر ذلك العام ، رحلت البعثة. طمان المهندس الناس. البترول موجود ولكنه غير اقتصادى . العائدمنه لا يغطى التكاليف ، سيؤجل المشروع سنوات قد تطول . تنتهى الحكاية على أرض الواقع ، لتبدأ الرواية .احداثها تبدو كالتالى : انبتت كلمــات واحلام المهندس أجنحة ، طار بها سكان البلد. رحلوا ، سافروا فى الزمان . كون كل منهم لنفسه يوتوبيا خاصة به.أصوات المهندس تصبح شروخا وشقوقا تصيب وجودهم . يرحل المهندس . الجوابون التعساء فى رحم الليل ، يلوب تحت اقدامهم طريق العــودة . حب الدين سرحان ، سلســبيله على الله ، ابو السعود ، المعلم يعقوب ، العمــدة ، مللوم ، وردانى . وجوه تطل علينا من خلال اسطر الرواية. تصرخ ملامحهم فينا كل منهم يصحو على واقع يعيشــه ، تتمدد بداخله رغبة دافئة فى الدخول مع الواقع فى علاقة انسانية . تبــدا وتعيش وتموت مكتسبة لون ورائحة المأساة

المكان الذى يعرفه الروائى ، هــو البلد الذى يعيش فى قلبه . البيــات الشــتوى . تمنح ابطالها ، الفقــراء الشرفاء وعيا بالعظمة التى يجهلونها فى انفسهم . الرواية ترفض الحــكاية التقليدية، ولغة القواميس ، والتصوير الفوتوغرافى ، بخلق عالم خاص بها . له زمانه ولغته ومكانه وشــخوصه . واقعية تبدأ من جزئيــات الواقع ونثر الحياة اليومية ، واقعية اسطورية شعرية لا تعد بديلا للواقع الحقيقى ولا الغاء له . ولكنهــا تقدم رؤية فكرية لواقع القرية المصرية الآن .